جرجي زيدان

شجرة الدرّ



٦ قروش

روايات الهلال

سلسلة تاريخ الاسلام

روايات الهلال

صاحباها ورئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣ * مارس ١٩٤٩ * جمادى الأولى ١٣٦٨

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٦٠ مليما — فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٨٠ قرشا سوريا — فى لبنان ٨٠ قرشا لبنانيا — فى فلسطين ٧٥ ملا — فى شرق الاردن ٨٥ ملا — فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٦٠ قرشا — فى سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش سورى أو لبنانى — فى فلسطين وشرق الاردن ٨٠٠ مل — فى العراق ٨٠٠ فلس — فى المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشا صاغا أو ١٧ شلنا — فى الولايات المتحدة وكندا وكولومبيا والمكسيك والارجنتين ٦ دولارات — فى سائر انحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ أو ٦ / ٢٠ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا أو بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات — فى خارج القطر المصرى : بموجب شيك على أحد بنوك القاهرة أو حوالة نقدية (Money Order) أو الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد أو العملة الاجنبية

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المبتديان — القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر
التليفون : ٤٦٠٦٤ (ثمانية خطوط)

محمد أمين الأرناؤوط
الإسكندرية

كلمة التحرير

تبتدىء رواية « شجرة الدر » بمقتل الملك المعظم طوران شاه آخر سلاطين الدولة الايوبية ، ومبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح . وهى تأتى فى العصر التاريخى بعد رواية صلاح الدين التى صدرت فى الشهر الماضى

اما أبطال هذه الرواية ، فمن المماليك الاتراك ، وكان الملك الصالح قدجعل منهم رجال دولته وخاصة بطانته . فلما راوا ان السلطة أصبحت فى أيديهم طمعوا فى الاستقلال بالحكم . حتى اذا توفى الملك الصالح وخلفه طوران شاه قتلوه شر قتلة . ثم اختلفوا على من يبايعونه من بعده ، فتداركت شجرة الدر الأمر ، فبايعوها بالملك ، فكانت أول امرأة ملكت فى الاسلام

ثم قام النزاع بينها وبين بعض أمراء المماليك ، فاستقالت مرغمة ، وبويع بعدها لعز الدين ايبك ولقب بالملك المعز ، وتزوجها ، فأفضت السلطة الى المماليك الاتراك فتوارثوها

وقد تضمنت هذه الرواية وصف بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وما كان من زحف هولاكو التترى عليها وتخريبها وقتله الخليفة المستعصم بالله ، وانتقال مقر الخلافة الى القاهرة فى عهد الملك الظاهر بيبرس

▭

وبهذه الرواية يكون قد صدر من سلسلة روايات تاريخ الاسلام ثلاث روايات . وقد رأينا أن نعود الى السلسلة من بدايتها فننشرها بالتتابع عدا الرواية الاولى منها ، وهى : « فتاة غسان » فسنؤجل نشرها لفرصة ملائمة لطولها . ولهذا ستكون الرواية التالية : « ارمانوسة المصرية » تصدر فى ١٥ ابريل القادم . وفيها يرى القارىء بأسلوبها الشائق تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى صدر الاسلام مع بسط احوال العرب وعاداتهم ، واحوال الاقباط والرومان فى ذلك الزمان

شجرة الدرّ

تتضمن مقتل الملك طوران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، ومبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح وتتويجها ملكة لمصر ، وهى أول ملكة فى الاسلام

تاليف

جرجى زيدان

دار الهلال بمصر

أبطال الرواية

✡ **شجرة الدر**	: زوجة الملك الصالح
✡ **شوكار**	: جارية شجرة الدر
✡ **عز الدين ايبك التركمانى**	: قائد الجيش
✡ **ركن الدين بيبرس**	: أحد أمراء الجيش
✡ **سلافة التركية**	: جارية الملك الصالح
✡ **سحبان**	: تاجر أقمشة من بغداد
✡ **المستعصم بالله**	: آخر الخلفاء العباسيين ببغداد
✡ **الأمير أحمد (أبو بكر)**	: ولى عهد المستعصم بالله
✡ **هولاكو التترى**	: حفيد جانكيز خان
✡ **مؤيد الدين بن العلقمى**	: وزير المستعصم بالله

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى سرد حوادث الرواية ، وكان شديد الحرص على أن تكون وقائعها الرئيسية صحيحة

✽ حسن المحاضرة للأسيوطى	✽ سيرة الملوك
✽ تاريخ ابن اياس	✽ معجم ياقوت
✽ الهلال مجلد ١٩	✽ تاريخ ابن جبير
✽ تاريخ الفخرى	✽ تاريخ مصر الحديث لجرجى زيدان

فذلكة تاريخية

فرغنا من رواية صلاح الدين وقد دخلت مصر فى حوزته ، وبنى بها قلعة القاهرة وجعلها كرسى ملكه ، ثم توارثها السلاطين من اولاده واخوته وأولادهم وأحفادهم، واقتسموا فيما بينهم ملك مصر والشام، حتى أفضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ الى الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء المماليك الأتراك ، وجمع منهم نحو الف مملوك بنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة أسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلا من قلعة القاهرة ونقل اليها أهله وحاشيته ومماليكه

وفى أيامه حمل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وكان الملك الصالح مريضا فما علم بأمر هذه الحملة حتى أمر بالتجنيد والاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين استولوا على دمياط بخيانة بعض أهلها وفرار بعض أمرائها . وتوفى الملك الصالح على أثر ذلك ، وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه ، الذى لقب بالملك المعظم ، ولكن النفوذ كان لشجرة الدر احدى جوارى الملك الصالح ، وهى التى دبرت أمور الدولة بعده ، وكتمت موته حتى جاءوا بابنه غياث الدين من سورية وبايعوه سنة ٦٤٧ هـ

وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ، ففازوا وردوهم على أعقابهم بعد معارك شديدة ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وجنده .

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك المعظم غياث الدين ، ومماليك أبيه الملك الصالح ، فخرج هؤلاء المماليك عليه ، فخاف وأراد الفرار ، ولكنهم قبضوا عليه وقتلوه شر قتلة قرب فارسكور ، ثم أجمعوا أمرهم على مبايعة شجرة الدر ، وهى أول امرأة تولت الملك فى الاسلام . وقام التنازع على السيادة بينها وبين بعض الامراء المماليك ، وبين بقية الدولة الأيوبية وغيرهم من طلاب السيادة ، وافضت السلطة أخيرا الى المماليك الاتراك وتوارثوها ، وفى أيامهم سطا التتر على بغداد بقيادة هولاكو ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، وانتقلت الخلافة الى مصر مما سترى تفصيله فى هذه الرواية ان شاء الله

فى جزيرة الروضة

ــ ما أجمل ضوء القمر يا شوكار !

ــ انه جميل يا سيدتى ، وليس أجمل منـــه الا الجلوس بين يديك والتمتع بحديثك

ــ انك تتملقيننى يا شوكار ولا تقولين الحق . من منا أكثر تمتعا بصاحبتها : أأنا وليس فى حديثى الا المتاعب والمشاكل السياسية ؟. أم انت وقد وهبك الله كل ما تتطلبه الغانيات من الجمال والذكاء ورخامة الصوت ولطف العشرة ؟ . وانت فى مقتبل العمر وأنا فى حدود الكهولة، وقد أناخ على الدهر بأثقاله ومشاكله

فخجلت شوكار من هذا الاطراء وبادرت الى الجواب قائلة : « العفو، يا سيدتى ، انك تخجليننى بهذا الاطراء ، ومن اكون أنا حتى أعد شيئا مذكورا بجانب مولاتى شجرة الدر ، محظية الملك الصالح ــ رحمه الله ــ وأم ولده ؟ . وقد خصك الله بمواهب لم يخص بها أحدا من البشر سواك . ليس فى النساء يا سيدتى امرأة تطمع فى بعض ما نلتـــه . زادك الله رفعة و . . »

فبادرت شجرة الدر الى قطع حديث جاريتها شوكار بأن وضعت يدها على فمها بلطف وهى تبتسم لها ، وفى ابتسامها انقباض ، وقد أبرقت عيناها من عظم التفكير ، ثم تنهـــدت تنهـــدا عميقا وقالت : « تحسدينني على ما تتوهمينه فى من رفعة القدر ؟ . من هنا يأتى سبب شقائى » . قالت ذلك واطرقت وهى مقطبة الوجه ، فتهيبت شوكار النظر اليها ، ولم تجبها

وكانت شجرة الدر جالسة على مقعد من الابنوس ، فى شرفة بأحد قصور الملك الصالح التى بناها فى جزيرة الروضة ، تطل على مجرى النيل الى مسافة بعيدة . وجزيرة الروضة من أجمل جزر النيل بين مصر القديمة والجيزة ، وطالما اتخذها الملوك متنزها ، وقد جعلها مولاها الملك الصالح سريرا لملكه بدلا من القلعة حيث كان أسلافه يقيمون . وأنشأ فى هذه الجزيرة قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس ، نسبة الى

مقياس قديم للنيل ، وسموها أيضا قلعة الروضة اوالقلعة الصالحية. وكان فى موضع هذه القلعة أبنيةكثيرة فيها القصور والمساجد والمعابد، ودور الصناعة لبناء السفن ، والهودج الذى بنـاه الآمر بأحكام الله الفاطمى لجاريته ، واشتهر أمره . فهدم الملك الصالح كل هذه الأبنية، وبنى القلعة مكانها ، وانفق فيها أموالا طائلة . وفى جملة ما بناه قصور ومسجد ، نقل اليها العمد والأساطين الصوان والجرانيت والرخام من الهياكل القديمة ، وغرس فيها الأشجار والرياحين . وبنى فيها ستين برجا شحنها بالأسلحة وآلات الحرب ومايحتاج اليه من الغلال والأقوات خوفا من محاصرة الافرنج ، لأنهم كانوا على عزم غزو مصر . وبالغ فى اتقان تلك الأبنية حتى قيل ان الحجر الواحد من أحجارهاكلفه دينارا . وكان يقف بنفسه ويرتب العمل ، فلما تم بنـاؤها نقل اليهـا أهله ونساءه وجواريه ، وفرق فيها مماليكه ، وعددهم نحو ألف مملوك . وأنشأ خارج القلعة بناء عظيما جمع فيه أصناف الوحوش من الأسود والنمور وغيرها

وكانت شجرة الدر فى جملة جواريه ، وقد أنجبت ولدا اسمه خليل، فقربها منه ، كما كانت هى على جانب عظيم من الدهاء والذكاء ، فنالت نفوذا عظيما عنده . فلما مات فى المنصورة سنة ٦٤٧ هـ كتمت أمره ، وقامت بأمور الدولة ، وكانت توقع على الأوامر بتوقيعه خوفا من الفشل وهم فى حرب مع الصليبيين . لـكنها أسرت الخبر الى كبار الأمراء ، ولا سيما عز الدين أيبك التركمانى ، وكانت بينـه وبينها مودة ، فبعث أعيان الأمراء الى غياث الدين بن الملك الصالح فاستقدموه من حصن كيفا وولوه عليهم وواصلوا محاربة الصليبيين

أما شجرة الدر فانها عادت الى تلك القلعـة وأقامت فيهـا ، وفى خاطرها أشياء لم تطلع عليها أحدا ، ورغم ثقتها العظيمة بشوكار لم تفاتحها بشيء منها . وفى تلك الليلة المقمرة جاشت أشجانها وأرقت لسبب تعلمه هى ولا يعلمه سواها . وكانت كثيرة الاستئناس بشوكار جاريتها ، وهى جميلة الطلعة رخيمة الصوت تتقن العزف على العود. فلما أرقت دعتها اليها للاستئناس بها واللهو بصوتهـا . واتشحت شجرة الدر بثوب بسيط ، والتفت بمطرف من الخز ، وجلست على الشرفة وأطلت على مجرى النيل ، وقد سكنت الطبيعة وهدأ النسيم الا ما يعبث منه بشعرها المرسل على ظهرها وقد ضمته وأرسلتـه بلا اعتناء . ولم تحسن ارتداء مطرفها ، حتى ليخيل الى الناظر اليها أنها فى شاغل مهم ، ناهيك بما فى عينيها من دلائل القلق حتى يكاد الشرر يتطاير منهما لفرط ما جاش فى خاطرها من البلبلة . وهى

امرأة ليست كسائر النساء ، فلها قلب الرجل ومطامع كبار الرجال. اذا عزمت على أمر فلا تبالي ما يقف فى سبيلها من العقبات لأنها تذللها بأية وسيلة كانت ، كما يفعل عظماء الرجال وأرباب المطامع

وكانت شوكار جاريتها الخاصة فتاة تركية مثلها ما زالت فى مقتبل العمر ، فأحبتها واتخذتها مستودع أخبارها وأسرارها . وان كانت لفرط دهائها لا تفتح قلبها لأحد أو تأمنه على أسرارها المهمة . ولذلك كان كبار المماليك يهابونها ويحسبون لها حسابا ، وقد استولت على قلوبهم تهيبا واعجابا

◻

خرجت شجرة الدر تلك الليلة من قصر الملك الصالح أجمل قصور تلك الجزيرة وأثمنها رياشا وزخرفا ، ومعها جاريتها شوكار . ومشت فى ممر مسقوف يؤدى الى شرفة تطل على النيل ، فجلست على أريكة مغشاة بالديباج المزركش ، وجاريتها تعزف على العود وتغنى لها أصواتا تعودت أن تطلب اليها انشادها ، وهى مستغرقة فى هواجسها تنظر الى النيل وهو يبدو كالفضة اللامعة من تكسر نور القمر على سطحه . ولولا ما يتخلل بياضه من التموج والارتعاش لم تشك أنه فضة خالصة ، أو أنه مرآة صافية ، وكانت مراياهم تصنع من الفضة المصقولة بدل الزجاج اليوم

وكأنها أحست بطول سكوتها واشتغالها عن غناء شوكار ، فأجالت بصرها فى الضفة المقابلة من النيل فى بر الجيزة ، وقد بدت فيها النخيل صفوفا أرسلت رؤوسها فى الفضاء كأنها أسراب من العذارى يحملن المظلات وقد وردن الماء ، فلما أشرفن على ضفاف النيل تهيبن فوقفن خاشعات ينظرن الى مجراه . وبانت ظلال النخيل فى الماء ، وأكسبها النيل حركة اهتزازية كأن أولئك العذارى نزلن للاغتسال فارتعدت أجسامهن من البرد أو من الحياء . ووراء النخيل تراءى الهرمان كأنهما جبلان وقد انتصرا على طوارىء الحدثان ، فأرادت شجرة الدر أن توهم جاريتها أنها سكتت تهيبا للطبيعة الجميلة فقالت لها : « ما أجمل ضوء القمر يا شوكار ! »

فسرت شوكار لأن سيدتها قد سرى عنها ، وزادت امتنانا لما سمعت اطراءها صوتها . لكنها ما لبثت أن رأتها عادت الى الانقباض وأخذت تشكو من حالها ، وأن ما تغبطها عليه من النعيم انما هو سبب شقائها. فانقبضت نفس شوكار ، وألقت العود من يدها ، وتقدمت حتى جثت عند قدمى سيدتها ، وقبلت ركبتها وقالت : « ما الذى يشغلك



جلست شجرة الدر على أريكة مغشاة بالديباج ،
وأمامها جاريتها شوكار تعزف بعض الألحان

يا سيدتى ؟ وهل انت لا تثقين بى ، مع أنى مستودع أسرارك ، وليس لى شاغل سواك ؟ »

وشرقت بريقها من عظم التأثر ، فابتسمت شجرة الدر لها ووضعت يدها على رأسها وجعلت تعبث بشعر الفتاة وبوجهها كأنها شاب يداعب فتاة يحبها . وشوكار مطرقة يلذ لها ذلك لأنه دليل ارتياح مولاتها اليها . وهان على شجرة الدر أن تصارح جاريتها ببعض هواجسها ، وهى تحسبها خالية الذهن من أمرها ، وتحسب سرها مكتوما عنها كل الكتمان ، وذلك من الأوهام الشائعة عند أصحاب الاسرار . يكتم المحب حبه ، ويلذ له كتمانه ، لتوهمه أنه لا يعلم به أحد سوى حبيبه . وقد يكون ذلك الحب حديث الجيران والخدم ليل نهار ، وقس على ذلك أكثر الأسرار ولاسيما ماكان منها يتعلق بالعامة ، فانه لا يخفى عليهم ، لكنهم يسكتون عنه فيتوهم صاحبه أنه سر مغلق على الناس كافة . وهب أنه يخفى على الجيران فهو لا يخفى على الخدم والجوارى لأن هؤلاء لا شاغل لهم غير استطلاع الأسرار والتوسع فيها والتكهن بما يكون من أمرها ، لكنهم فى الغالب يشوهون الحقيقة بما تصوره لهم أفكارهم وميولهم

فكانت شوكار على بينة من هواجس سيدتها وان لم تصب الحقيقة تماما ، لكنها تجاهلت وطلبت الى شجرة الدر أن تكاشفها بسرها . فقالت لها شجرة الدر : « لست أخفى عليك سرا كما تعلمين، لكن ما أكتمه ليس مما يهمك الاطلاع عليه »

فقالت : « لا أطلب الاطلاع عليه لأنه يهمنى ، لكننى أطلب ذلك لعلمى أن الانسان اذا اشتكى ما يكابده لشخص يحبه ويثق به ، فان وطأة ذلك السر تخف عنه »

فضحكت شجرة الدر على سبيل المداعبة وقالت : « يظهر يا بنية أنك قد جربت الأسرار ولذة المكاشفة »

فأطرقت خجلا وقالت : « ليس عندى أسرار أكتمها أو أبوح بها ، وليست أسرارى مما يصح الاهتمام به . لكنى أعرف ذلك عن سواى، فهل أنا مخطئة يا سيدتى ؟ »

قالت : « كلا ، انك تقولين الصواب . ولكن دعينا من ذلك الآن واطربينا بشىء من غنائك الرخيم »

لم تعتبر شوكار ذلك الرفض مقصودا لأنها قرأت عكسه فى عينى سيدتها شجرة الدر — والعينان أصدق من اللسان — فاستأنفت الكلام قائلة : « انى طوع ارادتك يا سيدتى ، لكننى أحب تخفيف قلقك »

فأحبت شجرة الدر ان تكون جاريتها البادئة بالحديث فقالت لها : « ماذا تظنين سبب قلقي ؟ »

قالت : « من أين لى أن أعلم ذلك ؟ . ليس فيما أعلمه من أحوالك الا ما يوجب السرور والفخر ، حتى فيما له علاقة بالقلب ، أعلم أنك قد نلت منه ما لم ينله سواك . ان الأمراء كافة يتمنون رضاك ، ويعدون التفاتك نعمة . ويكفى لاكتساب قلب أحدهم أن تنظرى له نظرة رضا . على أنك فى غنى عن ذلك بموقعك الجميل من قلب مولاى عز الدين ايبك ، وهو كبير الأمراء ، ويتمنى لفتة منك و . . »

فلما سمعت شجرة الدر اسم عز الدين تصاعد الدم الى وجنتيها ، وقطعت كلام جاريتها وهى تظهر عدم الاهتمام وقالت: « ليس هذا الامر مما يهتم له أمثالى يا شوكار ، وانما هو للفتيات أمثالك »

□

واظهرت شوكار أنها صدقت سيدتها ، مع أنها تعلم حق العلم بما بينها وبين عز الدين أيبك التركمانى كبير الأتراك من صلات المحبة ، ثم حولت كلامها الى موضوع آخر وقالت : « اصفحى يا مولاتى عن جراتى واغفرى لى خطئى ، فلعل شواغلك تتعلق بأحوال الدولة ، على أثر وفاة سيدى الملك الصالح رحمه الله »

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « نعم . نعم . انها تتعلق بما نحن فيه من الخطر ، والحرب قائمة بيننا وبين الافرنج فى المنصورة وفارسكور»

فقالت : « ولكن الاخبار الواردة علينا حسنة على ما أعلم . الم يأتنا الطائر مبشرا بالنصر ، ثم حمل الينا الرسول خبر انتصار جنودنا على الفرنسيس ، وانهم قتلوا منهم ثلاثين ألفا ، وأسروا ملكهم لويس ، وجسوه فى دار ابن لقمان . . ثم جاءنا رسول يحمل رسالة أخرى ، وعليه ثوب ملك الافرنج نفسه ، وهو المخمل الاحمر بفرو سنجابى وقلنسوة من ذهب . وقد زينت له القاهرة زينة لم يسمع بمثلها ؟ أم أنت تظنين ذلك غير الواقع ؟ »

قالت : « بل هو الواقع عينه »

قالت : « اذن ما الذى يقلقك يا سيدتى ؟ »

فتنهدت وقالت : « لقد أحرجتنى يا شوكار . فلا بد من اطلاعك على بعض الخبر . ان قلقى ليس خوفا من الافرنج فان جندنا كلهم أشداء — ولا سيما هؤلاء الاتراك الذين بنى لهم مولانا الملك الصالح هذه القلعة —

قد ظهرت بسالتهم فى الحرب التى ذكرتها . ولكننى أخاف الانقسام بين جندنا من سوء تصرف الملك المعظم طوران شـاه ! » . قالت ذلك وهزت رأسها هز الأسف

فقالت شوكار : « هل تأذن مولاتى بكلمة ، وان كنت لا أفهم شيئا من احوال الدولة ولا شأن لى بتدبير المملكة ؟ . أظنكم أخطأتم باستقدام هذا السلطان من حصن كيفا وتوليته السلطة . وعندكم من الأمراء من هو أكفأ منه »

فقالت : « ولكن الناس لا يذعنون للسلطان الا اذا كان من الأسرة المالكة ، اسرة آل أيوب ، ولولا ذلك لهان الأمر . ولو كان طوران شاه هذا عاقلا لاستقام الامر ، ولكنه غلام جاهل أحمق يشرب الخمر ، فاذا سكر فعل ما لا يفعله الاطفال . بلغنى أنه يصف الشموع فى الليل أمامه ، ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع ويقول : (هكذا أفعل بالمماليك البحرية) . يعنى مماليكنا الاتراك . وما برح منذ جاءنا ــ ولم يمض عليه شهران ــ يفضل مماليكه الأكراد الذين أتوا معه على مماليكنا ، ويعرض بذلك فى مجالسه ، مع أن النصر فى حروب الافرنج انما كان بفضل أبطالنا ، ولاسيما عز الدين ايبك وركن الدين بيبرس وسيف الدين قطز وامثالهم . فأخاف أن يطول النزاع ويغتنم العدو تفرقنا فيكر علينا ! » . وسكتت لحظة وهى مطرقة ، ثم بلعت ريقها واستأنفت الحديث قائلة : « ولكننى دبرت تدبيرا اذا أفلح سلمنا من الخطر ! » . ثم نهضت ، وأظهرت انها فى شاغل خوفا من أن تستزيدها شوكار بيانا وهى لا تريد كشف ذلك التدبير لها

ادركت شوكار غرض سيدتها ، لكنها تشاغلت باصلاح العود وهى تنظر الى النيل . لكنها ما لبثت أن لحظت عن بعد اضطراب صفحة الماء ، فتطلعت فاذا هى ترى شبحا كبيرا سابحا قادما من الشمال ، ولم تتمالك حين تبينته أن صاحت : « هذه سفينة قادمة الينا . لابد لقدومها فى هذا الليل من أمر مهم ! »

وكانت شجرة الدر تتشاغل باصلاح شعرها ، فلما سمعت صيحة شوكار التفتت نحو السفينة وصاحت : « هذه عشارية عز الدين ما الذى جاءنا به يا ترى من الاخبار ؟ » . قالت ذلك وهرولت وهى تلتف بالمطرف ، وتبعتها شوكار فى مثل دهشتها نحو المرفأ

وكان للروضة مرفأ جميل تقف عنده السفن منذ كانت فيها دار الصناعة ، ومن هذا المرفأ الى داخل القلعة طريق مختصر . لكن شجرة الدر ــ بعد أن دفعتها الدهشة الى طلب المرفأ ــ عادت الى رشدها .

وتراجعت ، واظهرت أنها ذاهبة الى الايوان الكبير الذى كان الملك الصالح يستقبل فيه الوفود والأمراء والوزراء

▭

كان ذلك الايوان من أفخر الأبنية ، بذل الصالح جهده فى اتقانه وزخرفته ، وهو قاعة كبيرة قائمة على أساطين الرخام ، وقد زين سقفها بالصور المذهبة والنقوش من النوع المعروف بالمقرنص ، وعلى جدرانها كتابة جميلة بصفائح الذهب والرخام الآبنوسى والكافورى والمجزع ، مما يبهج النفوس ويستوقف الابصار

ولم تدخل شجرة الدر هذا الايوان منذ شهرين وبعض الشهر بعد أن توفى الملك الصالح ، فاضطرت لاخفاء اضطرابها أن تنزل اليه ، فأمرت بعض الخصيان أن يفتحه ، ودخلت وشوكار وراءها وقد ادركت قلقها وتوهمت أنها تريد الخلوة هناك فتراجعت عند الباب وقالت : « أستأذن فى الانصراف يا سيدتى »

قالت : « الى أين ؟ » . قالت : « الى حيث تأمرين . وانما أخاف أن يكون فى وجودى ما يثقل عليك »

فأشارت اليها أن تدخل وقالت : « تعالى يا شوكار . لا ينبغى أن اخفى عليك شيئا » . فدخلت ، وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب فى صدر الايوان كان يجلس عليه الملك الصالح ، وأشارت الى شوكار فجلست على كرسى مذهب بين يديها ، وقد أضىء الايوان بالشموع وظهرت نقوشه الجميلة . وتأملت شوكار فى سيدتها وهى جالسة على سرير الملك وضحكت ، فلحظت شجرة الدر ضحكها وسألتها : « ما بالك تضحكين يا شوكار ؟ » . قالت انى مسرورة يا سيدتى من جلوسك هنا ، وقد استبشرت به خيرا . ان هذا المجلس لائق بك ! »

فخفق قلب شجرة الدر لهذه البشرى ، لأنها كانت راغبة فى السيادة ، وهى أهل لها ، لكنها أنكرت ذلك على شوكار ، وأظهرت أنها تستبعد هذا الامر وانها ليست أهلا له ، وشغلت نفسها باستدعاء قيم تلك الدار . فلما حضر أمرته أن يذهب الى المرفأ ، واذا جاء أحد برسالة فليأت بها اليها فى ذلك الايوان

وجلست وهى تظهر الجلد ، لكنها كانت على مثل الجمر من القلق . وجلست شوكار بين يديها تشاغلها بالحديث عما فى تلك القاعة من التحف ، وما أنفقه الملك الصالح فى تلك الأبنية ، وهذه تظهر الاهتمام

بالموضوع وتقص عليها ما رأته من عناية الملك الصالح باتقان ذلك البناء

وبينما هما في ذلك اذ سمعت شجرة الدر صوت نفير من بعيد ، فعلمت انه اشارة وصول السفينة الى المرفأ ، فخفق قلبها وظهر القلق في وجهها ولحظت شوكار ذلك ولكنها تجاهلته . ولم يمض وقت يسير حتى جاء الغلام يقول : « ان الامير ركن الدين بيبرس بالباب »

فقالت شجرة الدر : « ليدخل »

فدخل شاب طويل القامة ، قد تزمل بعباءة تغطيه كله ، ثم نزع العباءة فاذا هو جميل الخلقة صبوح الوجه عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب ، لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣ سنة ، وعليه الدرع والخوذة كأنه في ساحة الحرب التي قدم منها . فلما دخل حيى شجرة الدر تحية لم تحى بمثلها من قبل ، ففهمت ما عناه لكنها تجاهلت وقالت : « ما وراءك يا ركن الدين ؟ »

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد . فأدركت أنه يحمل سرا لا يحب أن يفوه به جهارا ، فأشارت الى الخدم بالخروج واحتفظت بشوكار ، وأشارت اليه أن يتقدم نحوها ، فتقدم فقالت : « ما وراءك أيها الامير الشاب ؟ قل ولا بأس من وجود عزيزتي شوكار ، بل لابد من وجودها فهي التي طالما أعجبت بشهامتك، قل . ما وراءك ؟ »

فاستغربت شوكار ما روته شجرة الدر عنها من أنها معجبة بركن الدين ، ولم تجد باعثا على ذلك في تلك الساعة فسكتت ، واتجهت بكليتها لسماع ما يلقيه ركن الدين . أما هو فلما سمع قول شجرة الدر عن اعجاب شوكار به التفت اليها فوجدها في غاية الجمال واللطف ، وفي عينيها معنى جمع بين الذكاء والسحر . وكان يسمع برخيم صوتها لأن ذلك كان شائعا في القصر . لكنه توجه نحو شجرة الدر وقال : « ان ورائي أمرا ذا بال وخبرا مهما لا أدري أيسر مولاتي أم يسوءها »

فأجفلت ونظرت في عينيه باهتمام وقالت : « قل ما هو .. ولا يهمك ساءني أم سرني ، فاني لا أتوقع من هذه الدنيا سلامة »

فقال ان الملك المعظم طوران شاه بن مولانا الملك الصالح قد لاقى أجله في هذا الصباح ، وبعثني مولاي الامير عز الدين أيبك لأنقل هذا الخبر اليك ريثما يصل هو الى هنا في صباح الغد ، ولم يشأ ان يرسله مع الطائر مبالغة في الكتمان ، لكنه دفع الي هذه البطاقة الصغيرة مختومة ، وأمرني أن أدفعها اليك يدا بيد » . قال ذلك واستخرج من جيبه بطاقة دفعها اليها

فلما سمعت شجرة الدر بموت طوران شاه بانت الدهشة في

عينيها ، لكنها تجلدت وتناولت البطاقة وفضتها ، واقتربت من المصباح وقرأتها فاذا فيها : « أما بعد فانى مسرع فى ارسال البشارة بذهاب ذلك الشاب المغرور الى سبيله ، على كيفية يقصها عليك الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى حامل هـذه البطاقة اليك . وقد كان لهذا الامير النصيب الاكبر من العمل فى هذا السبيل وهو يستحق التفاتك . وعندى خبر آخر سأتلوه عليك فى الغد شفاها ان شاء الله »

قرأت البطاقة لنفسها وعادت الى مخاطبة ركن الدين كأنها لم تقرأ شيئا فقالت : « أأنت على ثقة من قتل الملك المعظم ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى . كل الثقة »

قالت : « هل قتل سرا ؟ »

قال : « كلا يا سيدتى ، انه قتل جهارا » . قالت : « من قتله ؟ »

قال : « نحن قتلناه ، لأنه لم يترك للصلح مكانا ، وقد بالغ فى الطيش والهوج ، وكرر مغاضبتنا وأسمعنا الاهانة ، ولم يعجبه المماليك البحريون ، مماليك أبيه الملك الصالح ، وكلما ذكروا أمامه استخف بهم ، مع انهم أصحاب السيف حماة هذه الدولة . . وهم الذين ردوا الافرنج عن هذه البلاد . وقد صور له طيشه أنه الفاعل لما يريد ، واننا حشرات لا يعتد بنا ، حتى بلغنا انه كان يصف الشموع ويأخذ رؤوسها بالسيف ويقول انه هكذا سيفعل بنا . وقد صبرنا على ذلك ، حتى بلغنا أن هذا لا يرضى مولاتنا أم ولد الملك الصالح رحمه الله ، فأضمرنا له السوء ، فلما كان صباح اليوم جلس فى موكبه والأمراء والأكراد وأصحابه بين يديه ، ورؤوس النواب واقفون أمامه بعصى كسيت بالذهب ، كأنه يقول لنا انى سلطانكم رغم أنفكم . فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وبقى وحده وحضر السماط فجلس عليه على العادة ، فتقدم اليه جماعة منا بأيديهم السيوف وضربوه على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل البرج الخشبى ، وأغلق عليه بابه ، فأطلقنا النار على البرج ، فخرج منه وألقى نفسه فى البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول : « خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا » ، فلم يغثه أحد . ومازال على ذلك حتى قتل ، فكأنه مات حريقا غريقا قتيلا ، فأخرجناه من البحر وتركناه على الصعيد وسيبقى كذلك حتى لا يعرف له قبر »

☐

كان ركن الدين يقص خبر مقتل طوران شاه ، وشجرة الدر مصغية

لا تبدى حراكا ، لكن الاهتمام باد فى عينيها فلما فرغ من كلامه قالت : « مات طوران شاه ! رحمه الله ، انه أخطأ فى تصرفه ولم يحسن سياسة الملك الذى أعطيناه اياه . وكل من لايسوس الملك يخلعه ! » . ثم نظرت الى ركن الدين وقالت : « وهل عندك خبر آخر غير هذا ؟ » .

قال : « عندى خبر سيتلوه عليك مولاى الأمير عز الدين ايبك فى صباح الغد »

قالت : « لعله خبر مهم ؟ »

قال وهو يبتسم : « أظنه كذلك »

فأدركت شيئا من مراده لكنها حولت الحديث وقالت : « لم تخبرنى عن القواد الابطال الذين فتكوا بالملك المعظم . هل أنت منهم ؟ »

قال : « نعم انى أصغرهم شأنا ، وقد فعلت ذلك بأمر مولاى الأمير عز الدين »

فأعجبها تواضعه واحتشامه فقالت : « اراك تتنصل كأنك تعد هذا العمل جريمة وعارا . . انه عمل عظيم يحق لك الافتخار به ، وقد نجيت البلاد من الخراب ، لأن هذا الملك لم يكن أهلا للسلطة ، ولوطال مكثه فى هذا المنصب لجرّ علينا الدمار . فلا تخف ، وقد أنبأنى عزالدين ببلائك ، وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام ، وسيكون لك شأن عظيم ، فاذا صدق توسمى فيك أهديتك أثمن ما عندى » . قالت ذلك ونظرت الى شوكار وضحكت ، فأدركت شوكار غرضها فغلب عليها الحياء لأنها لم يخطر ببالها حب أحد . وقد كفاها من نعم المولى أن تكون حائزة رضا سيدتها شجرة الدر ، فلما سمعت تلميحها تصاعد الدم الى وجنتيها وأطرقت ، وودت لو أنها بالنقاب لتغطى وجهها ، لكنها لم تكن تتنقب بين أيدى الأمراء

أما ركن الدين بيبرس فأعجبه اطراء شجرة الدر شجاعته ، وكان يسمع بحسن شوكار ولطفها وجمال صوتها ولم يكن يتوقع أن يأتى يوم ينالها فيه ، فلما رأى شجرة الدر اشترطت فى نيلها أن يصدق توسمها فيه لم يدر بماذا يجيب ، فقال أخيرا : « أشكر لمولاتى حسن ظنها بعبدها ، وأرجو أن أكون أهلا لثقتها . وفى كل حال انى رهين اشارتها وما تأمرنى به ، وأفديها بروحى »

ففرحت شجرة الدر بهذا التصريح لأنها انما أرادت أن يكون طوع ارادتها لتستخدمه فى أغراضها لما رأته فيه من البسالة ورباطة الجأش

ولما سمعت شوكار جواب ركن الدين أحست بشيء لم تحس بمثله –

قبلا ، وبان التأثر فى عينيها ، وخفق قلبها خفقانا لم تعرفه من قبل . لكنها أطرقت وظلت ساكتة

وأما شجرة الدر فقد سرها ما وقفت اليه من مقتل الملك المعظم ، اذ هى التى أمرت المماليك أن يقتلوه ، ولولا ذلك لم يجسروا على قتله . وقد أغراهم على ذلك عزالدين أيبك حبيبها ، وهو كبير قواد المماليك . وكان لركن الدين بيبرس اليد الطولى فى هـذا العمـل ، وكانت قد سمعت من عز الدين عن بسالته وتفانيه فى طاعته وطاعتها فأرادت أن تزيد اخلاصه فى طاعتها فوعدته بشوكار . فلما لحظت تعلق آماله بها تحركت فى مجلسها كأنها أرادت استئناف الحديث ، فقالت : « ومتى يصل الينا الامير عز الدين ؟ »

قال : « أظنه يصل فى صباح الغد ، وسيأتى معـه سائر الأمراء والعسكر ، وسيحدث تغيير عظيم فى أمور الدولة . وقد حفظ الأمير عز الدين حق هذه البشارة لنفسه وهو كبيرنا ومولانا »

فضحكت شجرة الدر وهى تنهض عن السرير وقالت : « أظنـك نلت جائزة حسنة . . وانما أرجو أن تحقق ظنى فيك ياركن الدين »

فأدرك أنها تصرفه ، فتحول وهو يلتفت الى شوكار لفتة الوداع وهى لا ترفع بصرها اليه ، لكنها رأته ورآها وتفاهم النظران وتناجى القلبان . وما أسرع تناجيهما اذا توافقت الطباع

خرج ركن الدين وقد شغله ذلك الوعد عن دهشة الخبر الذى حمله من فارسكور الى القاهرة ، وما يرجى أن يحدث من التغيير فى أمور الدولة بسببه ، سار توا الى برج من أبراج القلعة كان يقيم فيـه مع بعض المماليك من رفاقه



عز الدين أيبك

مشت شجرة الدر – بعد أن توارى ركن الدين – نحو شوكار وهى تجر مطرفها وراءها ، فنهضت لها احتراما ، وأطرقت شكرا ، وهى لاتدرى أأحسنت اليها بذلك الوعد أم أساءت . ولم تستقر أفكارها لتحكم فى الأمر فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « أرجو أن تكونى مسرورة من هذا النصيب يا شوكار »

فرفعت بصرها والخجل يغشاه فرأت شجرة الدر تنظر اليها نظر المداعب فأجابتها : « يظهر أن سيدتى ملت رفقتى ؟ » . وضحكت

فقالت شجرة الدر : « لا ، لكننى نظرت الى مستقبلك ، فمن كانت فى مثل ما أنت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب أن تنال نصيبا حسنا . وأنا على ثقة أن هذا الشاب الباسل من خيرة الشبان ، وله مستقبل مجيد . فاذا أخطأ ظنى فيه ولم يكن الرجل الذى أرضاه لك لا أزوجك به . لا تخافى انى شديدة الغيرة على مصلحتك لأنك بمنزلة ولدى كما تعلمين . . والآن ينبغى لنا أن نطلب الرقاد فقد تعبنا »

فقالت شوكار : « ولكن التعب جاء بنتيجة ترضينها يا سيدتى . . ان الرجل الذى كنا نشكو منه قد مضى لسبيله وعادت الأمور الى مجاريها . فمن يا ترى سيتولى هذه السلطنة ؟ . أرجو ألا يعودوا الى بيت أيوب مرة أخرى . ان هؤلاء قد مضت أيامهم ولكل أيام دولة ورجال »

فأظهرت شجرة الدر أنها خالية الذهن من أمر المستقبل ، وانها تتوقع أن تعرف الحقيقة فى الغد بعد مجىء عز الدين . فأكبت شوكار على يد سيدتها وقبلتها للوداع ، فقبلت شجرة الدر رأسها

وحالما خلت شجرة الدر بنفسها انصرفت من باب سرى فى الايوان الى قصرها وقد توسط الليل ، فلما صارت فى غرفتها كان الخدم قد أناروها ، وهى فى أجمل ما يكون من الرياش ، وعلى جدرانها ستائر الديباج عليها الأبيات الشعرية أو الصور والنقوش بأزهى الألوان . وما كادت تدخلها حتى استلقت على سريرها واستغرقت فى

هواجسها، وجعلت تناجي نفسها قائلة : « قتلوا طوران شاه ــ لا أقامه الله ــ وقد قتل بسعي عز الدين حبيبي » . ولما ذكرت اسمه تنهدت وقالت : « هو حبيبي لكنه شرير لا أظنه أمينا فى حبه . وهؤلاء الرجال لايؤمن جانبهم . ما لي وله ؟ ! فليكن كما يشاء . ألم يخدمني فى هذا الأمر ؟ . ليس بعد قتل طوران شاه الا أن يعود الملك الى يدي . هكذا وعدني عز الدين فهل تراه قد بر بوعده ؟ . فاذا صرت ملكة فأنا أول ملكة فى الاسلام . وسأجازي عز الدين خيرا لأنه أخلص فى خدمتي »

قضت هزيعا من الليل فى مثل هذه الهواجس ، ولما نامت حلمت انها تولت الملك وقبضت على صولجانه ، وذلك لفرط رغبتها فى الملك مهما يكلفها الوصول اليه ، فانها من طلاب السيادة بأية وسيلة كانت وقد نبت ذلك فى خاطرها منذ ولدت للصالح ابنها خليلا لعلمهـا أنه سيكون وسيلة الى تحقيق مطامعها أو أنه يكون هو السلطـان وهي الوصية عليه ، لكنه توفى طفلا

وفى صباح اليوم التالى جاءتها الجارية الموكلة بتدبير غرفتها وقالت : « ان الامير عز الدين أيبك ينتظر فى الايوان يا سيدتي »

فنهضت وأصلحت من شأنها ، وبذلت جهدها فى الزينة لتظهر بين يدي حبيبها فى أجمل حالاتها . وهـذه طبيعة النساء على الاجمال ، فكيف بمن تعلق على ذلك الحب غرضا سياسيا مهما ؟ لبست ثوبا مخططا معتم اللون ، وضفرت شعرها ضفائر قليلة أرسلت منها اثنتين الى جانب وجهها ، وغطت رأسها بغطاء مرصع بحجارة كريمة فوق الجبين له ذيل مزركش يغطي العنق من القفا حتى يسترسل على الظهر ، وقد تقلدت عقـدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من العقيق وغيره ، وتمنطقت بمنطقة مشبكها من الذهب المرصع ، وهي مع كونها على أبواب الكهولة لا يزال ماء الشباب يتلألأ فى محياها ، ولا تزال عيناها ترسلان السحر الى قلوب الناظرين ، فتتملـكهم الهيبة والقوة ، لا اللطف والوداعة ، كما ينبعثان من عيني شوكار

وكان عز الدين أيبك يشعر بقوة تلك المرأة وسيطرتها على قلبـه ويحبها حب تهيب واحترام لا حب شغف وتلهف . وزاده رغبة فيها ما كان يعلمه من منزلتها عند الملك الصالح وتقدمها فى داره ونفوذها عنده . فتودد اليها وبادلته هي حبا بحب ، ووافق ذلك هواها لأنها مع مطامعهـا الواسعة لاحول لها ، وهي امرأة لا تطمع فى قيـادة جند تستعين بهم فى نيل أغراضها ، فرأت فى ارتقـاء عز الدين الى منصب كبير أمراء المماليك فائدة لها فأعانته على نيل ذلك المنصب فى زمن الملك الصالح ، وهو لم ينس هذا الجميل لها . ولما سنحت فرصة

أخرى يخدمها فيها بقتل طوران شاه لم يضيعها ، وان كان قد فعل ذلك لمصلحته أيضا

فلما أتم عمله أمس أنفذ بعض الخبر مع ركن الدين واحتفظ ببقيته لنفسه ليتلذذ بسماع الاطراء والاعجاب بدهائه وبسالته . وجاء فى ذلك الصباح على جواده مع جماعة من حاشيته وقواده ، ولم يسترح الا قليلا ثم جاء الى الايوان ، وبعث الى شجرة الدر لتوافيه

لم تمض هنيهة حتى دخل الغلام يعلن قدومها ، فوقف لها عز الدين ، ثم أكب على يديها كأنه يقبلهما ، فأجفلت وأشارت اليه أن يجلس ، وجلست هى على السرير وجلس هو بين يديها ، وأمرت الخدم بالخروج . ولما خلت به قالت : « أهلا بك يا عز الدين . قد بلغنا بلاؤك فى انقاذ البلاد من ذلك الغلام ، جزاك الله خيرا . انها خدمة للمسلمين »

قال بلهفة المحب الولهان : « انما فعلت ذلك خدمة لسيدتى وحبيبتى شجرة الدر وطوعا لأمرها »

فأثر كلامه فى خاطرها لأنها تحبه ، فهاجت أشجانها وقالت : «انى أعرف هذا الجميل لك يا عز الدين . وليست هذه هى المرة الاولى التى برهنت فيها على صدق مودتك ، فأنا أسيرة ودادك »

قال : « يكفينى منك لفتة رضا يا سيدتى ، ولا سيما الآن بعد أن صرت ملكة المسلمين »

فتظاهرت بالاستغراب وقالت : « ملكة المسلمين ؟ ماذا تقول ؟ » . قال : « أنت الآن ملكتى والقابضة على قلبى وستصبحين غدا ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين » . قالت : « وكيف ذلك ؟ أفصح »

قال : « لما قتل الملك المعظم أمس اجتمع الأمراء ودار الحديث على من يتولى السلطة بعده ، واختلفت الآراء فقلت لهم : « اننا لا نحب أن نستقدم أحدا من آل أيوب ، وقد رأينا مصيرنا معهم ، وشدد آخرون فى أن يكون السلطان من البيت الأيوبى ، فقلت لهم نعمل عملا وسطا نحن انما نحترم من الأيوبيين مولانا الملك الصالح ــ رحمه الله ــ ولا نأمن أحدا من أهله ، وهذه أم ولده خليل كانت من أعز الناس عنده ، وهى عاقلة مدبرة ، ومن أبناء جلدتنا وتغار علينا ، فأرى أن نوليها هذا المنصب . فرضى القوم بذلك ، واتفق رأيهم على أن تكونى ملكة مصر . ألا يحق لى أن أقبل يدك وأطلب رضاك ؟ »

قالت : « معاذ الله . أستغفر الله . انك حبيبى وصاحب الفضل على ،

لأني لولاك لم أحصل على هذا المنصب . فاذا تم لى الملك فأنت صاحب النفوذ الأول فيه ، فأدعوك مدبر المملكة . ومن هو أولى به منك ؟ »

فانشرح صدر عز الدين لهذا الوعد ، وهو ما كان يتمناه وقد حصل عليه على أن يتدرج منه الى ما هو أعظم . فأظهر الشكر وانه لا يستحق هذا الالتفات ونحو ذلك من أسباب المجاملة

أما هى فانها عرفت لصديقها فضله ، وأخذت تثنى على علو همته وغيرته ، وأنها لا تثق الا به ، وقالت له : « انى لا أستغنى عنك فى تدبير المملكة »

فقال : « أنت فى غنى عن تدبيرى لكننى طوع ارادتك وما تأمرين »

وقضيا ساعة فى الحديث ، وكل منهما قد طار قلبه فرحا بما ناله ، ثم قالت : « ومن الحكمة أن نفرق المناصب على أصحابنا الذين معنا من الجند لتتأيد هذه الدولة فماذا ترى ؟ »

قال : « دبرت كل شىء ، ولا يخفى على سيدتى شجرة الدر أن جندنا مؤلف من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وأكثرهم من المماليك المبتاعين . وانما يهمنا نحن أن نقوى الاتراك لأنهم جندنا الأصليون فنقدمهم فى مناصب الدولة ، وهم كما تعلمين طبقات من حيث المناصب ، وفيهم أمراء المئين وأمراء الألوف ، وكلهم من الفرسان الأشداء ، وهم عضد الجند وقوته ، فنفرق هذه الوظائف على كبار الأمراء الذين أخذوا بناصرنا فى هذا العمل . ومناصب الدولة غير الجندية عديدة أعظمها منصب أمير السلاح الذى يتولى حمل السلاح للسلطان فى المجامع الجامعة ، والداودار الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ويرفعها اليه ويستقبل من يحضر ويقدم البريد ويأخذ خط السلطان على جميع المناشير والتواقيع والكتب ، والحاجب الذى يقف بين الأمراء والجند ، وأمير جاندار الذى يسلم الزردخانة ويقتل من أراد السلطان قتله ، والأستاذ دار واليه أمر بيوت السلطان كلها ، وغير ذلك من المناصب . فما الذى ترينه من أمر هذه المناصب ؟ ثم لابد من ارضاء الجند بالعطايا »

قالت : « انى تاركة أمر ذلك كله اليك لأنك ستكون مدبر المملكة ، فتولى هذه المناصب من تثق بهم من رجالك وترى فيهم الاخلاص لنا ، لكننى أطلب امرا واحدا وهو أن تنظر فى أمر ركن الدين بيبرس الشاب الذى بعثت رسالتك معه . انه من خيرة الأمراء فوله منصبا بحيث يكون قريبا منا »

فلما سمع اطراءها ركن الدين أحس بالغيرة ، ورغم ثقته به حدثته

غيرته أن يطعن فيه ـ والغيرة تعمى وتصم ـ ولكنه رجع الى صوابه ودهائه وقال : « ان ركن الدين من خيرة الامراء ، صدقت . وأرى ان توليه الداودارية ، وبذلك يكون قريبا منا »

وأحست شجرة الدر بغيرة عز الدين ـ والمرأة أرق شعورا من الرجل ، لكنها تجاهلت وأغضت لأنها لم يكن لها مطمع فى حب أحد ، وانما هى تحب العلى وتهوى السلطة وتبذل كل شىء فى سبيلها ثم قالت : « ومتى يأتى الامراء من المنصورة ؟ »

قال : « أظنهم يكونون هنا غدا ليحتفلوا بتولية شجرة الدر ملكة على هذه الديار . ما أجمل هذا الاسم فى فمى ! وما ألطف وقعه فى قلبى ! فهل لاسمى شىء من ذلك فى قلبها ؟ » . قال ذلك ونظر اليها نظرة عتاب

فنظرت اليه وقد أدركت مراده وقالت : « سترى ثقتى وحبى ، وستعلم مركزك بالفعل لا بالكلام . أراك تلمح وتستطلع كأنك تشك فى صدق مودتى . سامحك الله ياعز الدين . . » . وبان العتب فى عينيها

فاعتقد صدق قولها وقال : « معاذ الله ياسيدتى . . »

فابتدرته قائلة : « لاتقل سيدتى ، أنت حبيبى ، أنت سندى ، انت موضع ثقتى وعليك اتكالى . كن واثقا بذلك . . »

قال : « انى واثق ولكن المحب كثير . . »

فقطعت كلامه وقالت : « دعنا من ذلك فانه مفهوم بيننا ، وهلم الى تدبير شؤوننا . . انى أسمع لغطا فى الدار »

فأسرع عز الدين وهو يقول : « إظن الامراء قد وصلوا من المنصورة ، ولعلهم يطلبون تقديم تحياتهم لك »

قالت مبالغة فى اكتساب قلبه : « وهل ترى أن أستقبلهم ؟ »

قال : « لا أرى بأسا من استقبالهم اذا طلبوا ذلك لأنهم أصحاب فضل فى هذا الامر ، وقد رأيت منهم اذعانا سريعا لما اقترحت أن تصير السلطنة اليك . ولكن . طبعا سترسلين الستر بينك وبينهم ، ولا سيما انت الآن ملكة المسلمين »

فنظرت اليه بطرف عينها وهى تبتسم وقالت : « ان عزالدين غيور ، ولكن يسرنى ذلك ، لأن الغيرة دليل المحبة ، على انى لم أكن أحتاج الى تنبيه ، وأنت تعلم انى لاالقى أحدا كما ألقاك » . قالت ذلك وأشارت الى الخصى الواقف فى خدمتها أن ينزل الستر . ولم يكد يفعل حتى جاء الحاجب يقول : « ان كبار أمراء الجند يلتمسون التشرف بمقابلة السيدة الجليلة » . وذكر الحاجب أسماء الامراء بلبان الرشيدى وفارس الدين أقطاى وبيبرس ركن الدين البندقدارى وسنقر

الرومى . فقال عز الدين بالنيابة عنها : « فليدخلوا »

دخل كبار الامراء وحيوا تحية طيبة فاستقبلهم عز الدين بلطف . ثم تكلم الفارس اقطاى عنهم قائلا : « ان الامراء قادمون لرفع واجب التعزية الى السيدة أم خليل فى القضاء الذى نزل بطوران شـاه ، ولابلاغها أن اختيارهم قد وقع عليها لتتولى أمور المسلمين ، فعسى أن يقع ذلك لديها موقع الرضى »

فأجاب عز الدين عنها قائلا : « ان مولاتنا السيدة الجليلة قد بلغها بلاؤكم الحسن أيها الأمراء فى سبيل مصلحة الدولة وقد وقع القضاء على ذلك الملك فأسفت لما أصابه ، ولكنه جنى على نفسه رحمه الله »

فقال الامير سنقر الرومى : « انه الجأنا الى ما أتيناه لأنه لم يجعل لنا يدا فى شؤون الدولة . وان مولاتنا زوج ملكنا المرحوم الملك الصالح أولى الناس بهذا الامر »

فأجابتهم من وراء الحجاب : « انى شاكرة مروءتكم وحسن ظنكم ، ولا يسعنى الا الانصياع لما تم اتفاقكم عليه وأنتم نخبة الامراء أصحاب السيوف . وانما اقبل هـذا المنصب اعتمادا عليكم وثقة بكم لأنى لا أستطيع عملا ان لم تأخذوا بيدى »

فصاحوا بصوت واحد : « نحن طوع أمر مولاتنا نفديها بأنفسنا . وغدا نحتفل بتوليتها فى القلعة ان شاء الله »

ثم تحولوا للخروج فرافقهم عز الدين وهو يقول لهم : « ان مولاتنا شجرة الدر كانت تحدثنى قبـل وصولـكم مثنية على بسـالتكم وشجاعتكم ، وقد أعدت الهدايا للأمراء والرجال ، وقالت لى انها انما ترضى بالسلطنة لأنكم اخترتموها لها »

وقد صدقوه ، وسرهم ما سينالونه من الهدايا ـ وهى العطـايا يعطيها السلطان عند توليته ـ وقد اعتزمت شجرة الدر أن تجعلها كبيرة لعلمها بما يعتور سلطنتها من العقبات لأنها أول امرأة تولت ذلك فى الاسلام

وخرج عز الدين لوداعهم وهو يثنى على هممهم ويمنيهم ، ثم عاد الى شجرة الدر يلفتها الى الهدايا وقيمتها ، ثم افترقا على أن يمضى لتهيئة الاحتفال

□

لم تطلع شمس ذلك النهار حتى علم أهل جزيرة الروضة بما نالته شجرة الدر ، وانها أصبحت سلطانة مصر . وقد وقع الخبر موقع

الاستغراب عند كثيرين ، وموقع الغيرة والحسد عند زميلاتها جوارى الملك الصالح ــ وكل ذى نعمة محسود ــ وكانت أشدهن غيرة جارية كردية الاصل اسمها سلافة ، كانت تفاخر سائر الجوارى بأنها من قبيلة الملك الصالح ، وكان هو يقربها حتى جعلها قيمة قصره ، لكنها لم تلد منه كما ولدت شجرة الدر ، فأصبحت هذه أقرب جواريه اليه . وكانت سلافة بارعة الجمال لكنها قليلة الدهاء شديدة الغيرة سريعة النقمة

وكانت مشهورة بجمالها الفتان ، يتحدث أهل الروضة والقاهرة بحسنها وان لم يرها منهم الا القليلون . ومن بين الذين أتيح لهم رؤيتها تاجر بغدادى اسمه سحبان كان يتردد الى مصر ومعه الاقمشة الفارسية والهندية ، وكان الملك الصالح يدعوه اليه ويبتاع منه ما يختاره لنسائه من الانسجة الجميلة ويطلب منه احضار ما يحتاج اليه من مصنوعات العراق وفارس وغيرهما . فاتفق له وهو يعرض عليه بعض المنسوجات النسائية ، وكانت سلافة حاضرة لتختار نوعا منها ، أن وقع بصره عليها فأخذت بمجامع قلبه ، لكنه تجلد وتهيب ، وشعرت هى بما جال فى خاطره ، وتجاهلت انه أصبح بعد تلك المقابلة يغتنم الفرص لابلاغها ما يكنه فؤاده من الحب لها بهدايا يبعث بها اليها على أيدى بعض الخصيان دون أية اشارة ، فيظهر ذلك منه مظهر الاكرام للملك الصالح لأنها قيمة داره ورئيسة جواريه

فلما توفى الملك الصالح ضعف شأن جواريه ، فتوسم سحبان بابا للنظر الى سلافة نظر المحب الطامع بالقرب ، فاحتال يوما ببضاعة حملها الى القصر كعادته ، فلقيه أستاذ الدار وتساوما ، ولم تتأت له مشاهدة سلافة ولا مخاطبتها ، وقد علمت هى بمجيئه وتجاهلت ، وفى خاطرها أن تراه ولكنها لم تكن تعرف سبيلا الى ذلك ، ولا حاجة لها اليه لأنها لم تشعر بالميل اليه

فلما علمت بما صارت اليه شجرة الدر فى ذلك اليوم ، وانهم سيحتفلون فى الغد بتوليتها ملكة ، وان ذلك انما جرى بسعى عز الدين ايبك ــ ولم تكن تخفى على سلافة علاقته الودية بشجرة الدر ــ هبت نيران الغيرة فى قلبها ، وأصبحت تتقلب وتتعذب كأنها على قطع الجمر ، وأخذت تفكر فى ايقاع الاذى بشجرة الدر ، لا لسبب غير الغيرة ، فانما لذتها أن ترى تلك النعمة قد زالت عنها . ذلك هو داء الحسد العضال ، وبين مرضاه من يفضل أن يشترك هو نفسه فى الاذى الذى ينوى ايقاعه بمحسوده على أن يراه رافلا فى نعمته

ضاقت سلافة ذرعا بطول التفكير وهى جالسة فى غرفتها ، فأرادت

التشاغل ببعض الشؤون ، فتنقبت والتفت بملاءة من الحرير، وخرجت من قصر النساء من ممر يؤدى الى حديقة تابعة لذلك القصر فيها الاشجار والجداول والرياحين والازهار كان الملك الصالح قد تعود أن يقعد فيها صباحا . وجاءها أحد خصيان القصر مسرعا يعدو وهو يقول : « ان الشيخ سحبان جاء بأنسجة جديدة »

فلما سمعت اسمه أجفلت ، لكنها أحست بانفراج كربها قبل أن تفكر فى كيفية ذلك — وهو تنبؤ نسائى مبنى على مجرد الشعور بلا برهان . فان المرأة تأتيها الفكرة أولا ثم تفكر فى برهانها — فالتفتت سلافة الى الغلام وقالت : « أين هو ؟ »

قال : « هو فى فنـاء القصر ، وقد ذكرك بالتخصيص ، وقال ان بين أقمشته أشياء تسرك »

فقالت : « لا أرى أن أعود الى هناك . دعه يدخل الى هذه الحديقة من بابها الخارجى لأرى بضاعته » . قالت ذلك وأصلحت من شأنها وتنقبت بطرف الملاءة ، وأصبح قلبها يخفق ، ولم تكن تشعر بشىء من ذلك فى مقابلاته السابقة

وبعد هنيهة دخل الغلام من باب الحديقة وهو يقول : « هذا الشيخ سحبان ياسيدتى » . ورجع

وكانت جالسة على كرسى بين الازهار فالتفتت نحو الباب فرأت الشيخ سحبان كما كانت تراه قبلا بقلنسوته الفارسية وجبته السوداء ولحيته القصيرة الخفيفة وعينيه البراقتين ، لكنها تفرست فيه هذه المرة فرأت فى وجهه معنى لم تلحظه من قبل . فلما دخل حياها فردت بمثل تحيته ، وأشارت اليه أن يتقدم وقالت : « أين الاقمشة ؟ »

فتقدم وقال : « انهـا لا تزال فى القصر مع الجمـال ، فاذا أذنت باستجلابها الى هنا فعلت »

قالت : « لابأس ، دعها الآن هناك .. تفضل اجلس » . وأشارت الى حجر منحوت كالكرسى ، فجلس عليه وهو يصلح قلنسـوته ، فقالت له : « لم تكن عادتك اذا جئت بأقمشة أو نحوها أن تطلب سلافة باسمها »

قال : « وهل ساءك ذلك ياسيدتى ؟ »

قالت : « كلا .. لكننى لم أفهم السبب لتغيير عادتك معى »

قال : « غيرت عادتى جريا مع التغييرات الكثيرة التى انتابت أهل هذا القصر فى هذا العام »

فتصاعد الدم الي وجنتيها ، وبانت البغتة فى عينيها ، وتذكرت ما هى فيه فقالت : « صدقت ، ان التغيير كثير ــ رحم الله الملك الصالح ، انه كان حرزا لهذه الدولة ، فلما مضى اضطربت أحوالها » . وظهرت فى مآقيها دمعة أوشكت ان تسقط

فقال سحبان : « نعم ، رحمه الله ، ولكن ما العمل ؟ هذا قضاء مبرم ياسيدتى ، والدنيا دول » . قالت : « أعلمت ماذا جرى ؟ »

قال : « اذا كنت تعنين ما صارت اليه شجرة الدر فقد علمت »

قالت : « نعم ، اياه أعنى . وكيف تراه يا سحبان ؟ »

فاستأنس بمناداتها له باسمه بلا لقب وقال : « أرى ؟ ماذا أرى ؟ أرى أمرا أقل مايقال فيه انه لم يسبق له مثيل فى الاسلام »

فابتسمت وقد أشرق وجهها ، وقالت : « أرأيت مثل هذه البدعة قط ؟ » . قال : « لا . لكننى » . وبلع ريقه كأنه يحاذر أن يبدى رأيه

فقالت بلهفة : « قل . ولكن ماذا ؟ . قل »

قال : « ولكن . كيف توصلت هذه الجارية الى هــذا المنصب ؟ لا أدرى »

قالت : « ألا تعرف عز الدين ايبك التركمانى أمير الجيش ؟ »

قال : « نعم أعرفه . قد فهمت مرادك ياسيدتى . نعم فهمت الآن عرفت الفرق بين السيدة سلافة الكردية والمحظية شجرة الدر التركية »

فتوسمت من عبارته ما يوصلها الى الموضوع الذى تريد الخوض فيه فقالت : « وما هو الفرق ؟ »

قال : « الفرق ان هــذه وفت بالامانة فى حق مولاها . وأن تلك أشركت سواه فى حقه »

فأظهرت انها تعارضه وقالت : « لا لاتقل ذلك انها أم ولده خليل . لا . لاتقل ذلك »

فأدرك سحبان انها تتظاهر بالاعتراض ، فقــال : « قد قلت يا سيدتى ، انى أتردد على هذا القصر منذ عدة أعوام ، وقد رأيت سلافة مرارا وعيناى شاخصة اليها ، وفى كل مرة أحاول أن أكسب منها لفتة فلا تفعل . ولم أر غيرها يحرص هذا الحرص . أستأذنك ياسيدتى فى هذا التصريح . وأما سواك فمع كونها أم ولده فان علاقتها مع عز الدين ايبك مشهورة ، ومع ذلك فهى الآن ملكة المسلمين ، ولابد لكل منا أن يصدع بأمرها »

فصاحت فيه : « انها لن تكون ملكة واذا صارت فالى أجل قصير » . ثم رأت أنها قد تورطت بالتصريح بما فى نفسها ، فتراجعت والتفتت

الى ما يحيط بها ، وتشاغلت بزهرة قطفتها من شجرة الى جانبها وهى مطرقة وقد علت الحمرة محياها

فتوسم سحبان فى ذلك المنظر فرجا فقال بصـوت منخفض : « ياسيدتي لاينبغى لنا أن نطيل الحديث بلاجدوى. اذا كان لابد لامرأة من أهل هذا القصر أن تحكم فأنت أولى من سواك لأنك أرقى درجة من سائر نسائه ، وأنت من عصبة الملك الصالح رحمه الله ، ولكن »

فقطعت كلامه قائلة : « لا . لا أريد أن أحكم . ان النساء لم يخلقن للحكومة يا سحبان ، ولذلك قلت لك ان شجرة الدر لاينبغى أن تبقى فى السلطة طويلا ، والآن أقول لك لاينبغى أن تبقى أبدا » . قالت ذلك وبان الغضب فى عينيها

وأدرك هو أنها تستحثه على مساعدتها فى هذا الامر فقال : « اذا كنت ترين فى مكانا لثقتك فانى رهين اشارتك . أفصحى لى عما ترينه » . فغلب عليها الحياء ، والوردة فى يدها ، فجعلت تتشاغل بنثر أوراقها بين أناملها كما يفعل المضطرب الافكار وهو لايدرى ، فابتدرها سحبان قائلا : « اذا كنت لم تفهمى مرادى بعد فانى أتجاسر وأفصح عما يكنه ضميرى لك يا سيدة الملاح . . انى أسير هواك منذ عرفتك ، وكلما زدت اعراضـا عنى أيام الملك الصالح ازددت اجلالا لأخلاقك الفاضـلة . وأما الآن وقد مضى ذلك الملك الى سبيله ، فهل ترين فى سحبان ما يستحق التفاتك وثقتك ؟ »

فازدادت حياء ، وتوردت وجنتاها ، وشعرت بخفقان قلبهـا ، وأوشكت أن تنسى الامر الذى كان شغلها الشاغل فى ذلك الصباح . ثم التفتت الى ماحولها فلم تر غير الاشجار والرياحين ، ولم تجد ما تتشاغل به عن الجواب ريثما تعمل فكرتها . وأدرك سحبان ما دار فى خلدها فتحفز كأنه يريد النهوض ، فمدت يدها نحوه وأشارت اليه أن يمكث . وظلت سـاكتة وهى تعض شفتيها وتمسح جبينها وتصلح نقابها فقال لها : « دعينى أنصرف الآن فربما كان وجودى معك سببا للقيل والقال »

فنظرت اليه نظرة اخترقت أحشاءه وقالت : « وأى قيل وقال ؟ انى لا أخاف أحدا ، وأما وجودك هنا فانه لازم لى »

فهش لها وضحك كأنه نال أمرا لم يكن يتوقع الحصول عليه وقال : « اذا كان وجودى هنا لازما لك فانى رهين أمرك »

□

اعتدلت سلافة فى مقعدها ، والجد باد فى عينيها ، ولو كشفت عن

وجهها لظهرت دلائل العزم والاصرار حول شفتيها ، وقالت : « هل أنت صادق فيما تقول ؟ »

قال : « جربى يا سيدتى . بعد أن تسمعينى كلمة منك يطمئن لها قلبى . ألا ترين فى الرجل الذى يستحق رضاك ؟ »

فأشارت برأسها وعينيها وقالت : « بلى ! والدليل على ذلك انى سأعرض عليك أمرا خطيرا لايجوز أن يطلع عليه أحد على وجه الارض » وسكتت

فقال : « تفضلى يا سيدتى » . قالت : « وسأكلفك بمهمة لا تخلو من الخطر »

قال : « روحى فداك . لا ابالى أن أموت فى سبيل رضاك » . فقالت : « أنت من أهل بغداد تسافر اليها كل عام ، أليس كذلك ؟ »

قال : « أسافر اليها متى شئت» . قالت : « ولماذا لاتمكث هناك ؟ »

قال : « لابد من الجواب عن هذا السؤال ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « ان هذه الجلسة التى سمح الزمان بها على قصرها جعلتنى أشعر أن قلبينا متحدان من عهد بعيد . فاذنى لى أن أخاطبك بجسارة وصراحة » . قالت : « هذا ما أريده منك »

قال : « لا أقيم فى بغداد لأنى شيعى ، والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولاسيما فى بغداد ، فانه لا تمضى سنة لايقاسون فيها تعديا أو اضطهادا أو نهبا أو قتلا ، ففضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وان كنت فى غنى عن التجارة ، ولكننى جعلتها سبيلا للأسفار . واذا سافرت الى بغداد فلا أمكث فيها الا ريثما أبتاع البضاعة وأعود»

قالت : « هل تعنى أن الخليفة المستعصم الحالى يطارد الشيعة ؟ »

قال : « أكثر الخلفاء العباسيين فعلوا ذلك ، والمستعصم هذا من أشدهم وطأة علينا ، فقد قاسينا فى أيامه الامرين » . قال ذلك والغضب يتجلى فى وجهه

فأطرقت وبان التردد فى عينيها وسكتت ، فقال : « مالى أراك تترددين ؟ قولى ما يخطر لك » . قالت : « اخاف أن يكون فى قولى تعب عليك » . قال : « لا لذة فى الحب ان لم يرافقه التعب »

ولما ذكر الحب اختلج قلبها فى صدرها وقالت : « أنت تطلب ذلك باسم الحب يا سحبان ؟ » . قال : « اذا كنت تأذنين »

قالت : « نعم . أنظر يا سحبان . ان هذه الجارية التركية لا ينبغى أن تبقى ملكة الا ريثما تصل أنت الى بغداد وتعود منها »

ففهم مرادها وقال : « لك على ذلك . وهل تريدين أن اذهب بهذه

المهمة من عند نفسي أم أكون رسولا منك ؟ »

قالت : « بل تكون رسولا تحمل كتابا مني الى بغداد ، ولا يصل الكتاب حتى يأتي الجواب بخلعها لا محالة »

قال : « لمن تريدين أن يسلم الكتاب ؟ » . قالت : « سلمه الى قيمة قصر النساء هناك . انها صديقتي ، ولي معها مودة . هل تفعل ذلك ؟ »

فنهض وقال : « أفعله الساعة . هاتي الكتاب » . ومد يده الى منطقته واستل منها دواة مغروسة فيها واستخرج القلم منها ودفعه اليها وأخذ من جيبه ورقة بيضاء دفعها اليها فتناولت الورقة والقلم وهي تتفرس في وجه سحبان وهو ينظر في عينيها . بقيا لحظة على هذه الحال كأنهما يتفاهمان بالعيون . ثم قالت سلافة : « أن هذه هي المرة الاولى التي تخاطبنا فيها ، الا تعد ذلك تسرعا مني ؟ »

قال : « حسبي قلبك . . فمن القلب الى القلب دليل . واذا كنت في ريب من صدق خدمتي أقسمت لك بما تريدين » . وهم ان يقسم ولكنها أمسكت بيده وقالت : « لا حاجة الى اليمين »

وكانت هذه هي المرة الاولى التي تلمس فيها يدها يده منذ تعارفا ، فأحس كلاهما بالقشعريرة وهي دليل التحاب ، ولا تحدث عند كل تلامس بين الجنسين ، وانما تقع بين اثنين في قلبيهما استعداد الى الاتحاد . أو بالتعبير العلمي « بين كهربائيتهما تجاذب » ويزيد هذه القشعريرة ظهورا قلة الاختلاط بين الجنسين والمبالغة في التحجب ، ويلوح للباحث في نواميس الحب وظواهره أن أسبابه تقوى أوتضعف على حسب الامزجة والاشخاص ، أو كأن الواحد متمم للآخر ، فاذا التقى اثنان من هذا النوع شعرا بالتجاذب لأول مرة على ان للجمال المادي والمعنوي قواعد أجمع الناس عليها ، يغلب في أصحابها أن يلفتوا أنظار الناس ويجتذبوا قلوبهم

فلما أحست سلافة بتلك الرعشة اتخذتها دليلا على صدق مودة سحبان ، وتناولت الورقة وأخذت تكتب ، وكانت بارعة في الخط والانشاء لأن السلاطين كانت لهم عناية في تعليم الجواري الكتابة واللغة والادب . ولما فرغت من الكتابة أقفلت الكتاب ودفعته اليه وقالت : « هذا سري قد عهدت به اليك . اذا أفلحت فقد برهنت لي على ما تقول »

فتناوله وقال : « أستودعك الله » . ومشي وهو يلتفت اليها حتى خرج من الحديقة ، وظلت هي بعده واقفة تفكر فيما فعلته ، فخالج ذهنها ندم على تسرعها ، لكنها راجعت ما رأته وشاهدته منه ، وتذكرت تاريخ معرفتها به ، فلم تجد ما يوجب الحذر

أول ملكة للمسلمين

أصبحت القاهرة في اليوم التالى وأهلها فى هرج ، والناس يزحم بعضهم بعضا نحو القلعة ، بين راكب وماش ، رجالا ونساء . حتى أصبحت ساحة الرميلة تحت القلعة غاصة بالناس من كل الطبقات ، وقد اختلط بهم الباعة يحملون أنواع الكعك والفاكهة والثمار والملحات والحلوى والمأكولات الجافة . وبينهم حملة الودع وكشاف البخت وفاتحو المندل ، ينادى كل واحد على بضاعته على اختلاف الالحان وطبقات الاصوات ، وقد علت ضوضاء الناس وأصوات الحيوان

ولو اشرفت على الرميلة من سور القلعة لرأيت الساحة بقعا ، يشغل كل بقعة جماعة متشابهون لباسا وشكلا ، اكثرهم قاعد القرفصاء ، يلهو الواحد منهم بشيء يمضغه أو عود ينكت به الارض أو اداة يلاعب بها أصابعه . وهناك جماعات التفت على رجل يلاعب دبا أو قردا ، ثم يدور عليهم بدفه يجمع ما يجودون به من الدوانق ، وجماعات هدأ جوهم لاشتغالهم بحديث يقصه عليهم شيخ منهم يبذل جهده فى اجتذاب قلوبهم ونيل اعجابهم ، وهم يتطاولون بأعناقهم نحوه ، وقد أخذهم الاستغراب

ولو أتيح لك حضور تلك المجالس لرأيت عجبا وأخذتك الدهشة من أخلاق العامة وسرعة تصديقهم للغرائب ، لأنك قد تسمع حديثا أنت أعلم الناس به فتجده تشوه واضطرب حتى انقلب الى غير ما تعرفه ، وقد تنكره وتظنه حديثا آخر . ويزداد تحريفهم للأحاديث بنسبة ما تحويه من الغرابة عن مألوفهم ، فما ظنك فى موضوع ذلك اليوم ، وهو تنصيب امرأة ملكة على المسلمين ، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخهم . فتضاربت أقوالهم فى ذلك ، واخترعوا الاسباب الباعثة عليه ، وافترضوا الاسرار ، وتكهنوا بمصير هذه الحال ، وزعم بعضهم انهم صاروا فى آخر الزمان ، وسوف تنقضى الدنيا ، لأن ذلك من دلائل الفناء

وبينما هم فى ذلك اذ سمعوا نفخ الابواق وقرع الطبول ، ثم رأوا موكب أمراء المماليك البحريين متوجها نحو القلعة وفى مقدمته كبراء

الفرسان بالملابس المذهبة تتلألأ فى شعاع الشمس حتى يكاد بريقها يذهب بالابصار ، وبعدهم هودج شجرة الدر تحمله البغال وقد تجلل بالحرير المزركش ، وأحاطت به الفرسان فى أزهى الملابس وأجملها وفيهم حملة الاعلام ، ووراءهم كوكبة من الفرسان أصحاب المزاريق ثم كوكبة من حملة الرماح . ووراءهم جماهير الناس مشاة على أقدامهم يموجون كالبحر الزاخر ، وفيهم من تبطل واوقف عمله لمشاهدة موكب الملكة ، وهو لايرجو شيئا من وراء تلك الخسائر ، وانما يساق العامة الى ذلك بفطرتهم الساذجة وميلهم الطبيعى الى مشاهدة الغرائب ، فهم يؤخذون بالظواهر ويتبعون كل ناعق . ولذلك كان اجماع العامة على أمر ما لا يدل على صوابه

وصل الموكب الى باب القلعة الكبير المواجه القاهرة ، ويقال له الباب المدرج ، وكانت طائفة من الجند قد وقفت هناك بالسلاح لتمنع الناس من الدخول . وللقلعة باب آخر نحو القرافة أقفلوه فى ذلك اليوم لئلا تتزاحم الاقدام فى ساحة القلعة ، وهى ساحة كبيرة فى وسط القلعة تنتهى بمصطبة وراءها باب كبير هو الباب الداخلى المؤدى الى الابنية الخاصة بسكنى السلطان والامراء والاجناد ، وفيها الجامع والايوان

دخل الموكب القلعة من بابها المدرج ، وظل العامة خارجها يكتفون بما يسمعونه من قرع الطبول ونفخ الابواق . وقطع الموكب الساحة حتى وصل الى الباب الداخلى المذكور ففتحوه ، ولم يأذنوا لغير الخاصة بدخوله ، ولاسيما الامراء وأرباب المناصب ونحوهم ، وخلفوا فى الساحة جمعا من الخاصة اكتفوا بأنهم امتازوا عن سائر العامة بدخول القلعة

ودخل الموكب من ذلك الباب الى ممر فسيح تحف به الأبنية وهناك ترجل الفرسان ، واعتنى جماعة بشجرة الدر فأنزلوها عن الهودج ، وبينهم وبين الايوان الكبير ممرات وأبواب لابد من اجتيازها ، وكانوا قد فرشوها بالسجاد وعلقوا على أبوابها الرياحين والاعلام ، ومشى عزالدين ايبك وسائر الأمراء — وهم بملابسهم الفاخرة — بين يدى شجرة الدر ، وهى فى ذلك اليوم فى أبهى ما يكون من اللباس . وكانوا قد أعدوا لها قبة من الحرير المطرز قائمة على أربعة أعمدة يحملها نفر من القواد ، وقد أرخيت ستائرها . وشجرة الدر فى داخلها ، ومعها جاريتها شوكار وبعض الوصيفات

□

لم يصل الى الايوان الكبير الا الخاصة وكبار الموظفين وهم أصحاب



« ووجــه عز الدين ايبــك خطابه إلى الجمع قائلا : نحن الآن
نحتفل بتنصيب مولاتنا الصالحة شجرة الدر على العرش ... »

المطامع وطلاب السيادة ، يسخرون العامة لأغراضهم ويسوقونهم كالانعام لايدرون مصيرهم ، وربما اكتسبوا رضاهم بأكلة يطعمونهم اياها أو بصلاة يتلونها بين أيديهم ، أو دعاء لولى أو قديس يعرفون انهم يعتقدون كرامته

وظل أصحاب القبة سائرين حتى وصلوا الى صدر الايوان ، وكانوا قد نقلوا اليه سرير السلطنة الذهبى ، فجعلوا القبة فوق السرير وأرخوا ستائرها حوله فقعدت شجرة الدر على السرير وبين يديها شوكار والوصائف يأتمرن بامرها ولا يراها أحد من الحضور . ثم دخل قاضى القضاة فقعد الى يمين القبة ، ووراءه صاحب بيت المال وناظر الحسبة ، والى يساره كاتب السر وغيره من كبار أرباب المناصب وذوى السن وأمراء المشورة ، وجلس بين يدى القبة فى وسط الايوان الامير عز الدين ايبك أمير الجند ، وكبار أمراء المماليك وبينهم ركن الدين بيبرس . ووراء القبة والسرير صفان من حملة السلاح ، ووراءهم الحجاب ونحوهم ، وأتوا فى جملة ذلك بجماعة من أسرى الافرنج عليهم ألبسة الاسرى مبالغة فى الاعتزاز

وبعد أن استقر بهم الجلوس على هذه الصورة وقف عز الدين ايبك ووجه خطابه الى الجمع وقال : « أيها الامراء والقواد . لايخفى عليكم ما أصاب الملك المعظم طوران شاه . انه أساء السيرة وأراد التنكيل بجند هذا البلد البحريين الذين عرفتم بلاءهم فى زمن الملك الصالح رحمه الله فى حرب الافرنج وغيرهم ، فوقع القضاء عليه ، ولما خلا كرسى السلطنة ممن يسوسها لم نجد من هو أولى بها من أصحاب الحق فيها الا مولاتنا الصالحة شجرة الدر والدة خليل وصاحبة الملك الصالح لما نعلمه من ثقة مولانا المرحوم بها وهى أم ولده ، فأجمع رأى الامراء والنواب والقضاة على اختيارها ملكة تتولى شؤون الدولة بمساعدتهم . وقد تعهد أصحاب السيوف بطاعتها لاحقاق الحق وحماية بيضة الدين . ونحن الآن نحتفل بتنصيبها ، وسندعو لها على المنابر بعد مولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله . وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم فادعوا لأمير المؤمنين »

فضج الجميع بالدعاء للخليفة وهم وقوف ، ثم تقدم قاضى القضاة فدعا لشجرة الدر قائلا : « واحفظ اللهم ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح »

فقال عز الدين ايبك : « وقد عهدت الى فى تدبير المملكة باسمها ، وولت الامير ركن الدين بيبرس الداودارية الخاصة . وأمرتنى أن أثبت أصحاب المناصب الموالين لنا فى مناصبهم من أصحاب الاقلام

واصحاب السيوف » . ثم أشار الى صاحب الستر الواقف بجانب القبة فأزاح الستر ، فبان داخل القبة فاذا هى مبطنة باطلس أصفر مزركش ، وفى صدرها شجرة الدر جالسة على السرير قد أرخت النقاب وعلى رأسها العصائب السلطانية وهى صفر عليها ألقاب الملكة مطرزة بالذهب

فعاد الناس الى الدعاء لها ، ثم أرخوا الستر وعاد عز الدين الى الكلام فقال : « وعما قليل نحتفل بقراءة الرسوم الذى سيرد علينا من أمير المؤمنين المستعصم بالله يؤيد سلطنة مولاتنا حفظها الله »

وكان الناس فى أثناء الاحتفال سكوتا كأن على رؤوسهم الطير ، وقد أخذتهم الدهشة لأنهم لم يسمعوا بمثل هذه الولاية ، وفيهم الغاضب والعاتب والمعترض ولكن لم يجسر واحد منهم على الكلام لعلمهم ان هذه السلطنة انما كانت بتواطؤ المماليك البحريين أصحاب القول فى ذلك العهد

وقبل الفراغ من الاحتفال أشار عز الدين الى بعض الوقوف من الداودارية فمضى وعاد ومعه الاطباق عليها صرر النقود ، فأخذوا يوزعونها على الحضور وعلى كل صرة اسم صاحبها

ولما هم الحضور بالانصراف وقف عز الدين ايبك وقال : « أيها الامراء : ان مولاتنا ملكة المسلمين اقتضت ارادتها أن تنقل دارالسلطنة من جزيرة الروضة الى هذه القلعة ، وستكون هذه القلعة مقر أرباب المناصب بدلا من قلعة الملك الصالح فى الروضة ، لأن السبب الذى من أجله جعلها الملك المرحوم كرسيا للسلطنة قد زال »

فكان لهذا التغيير وقع حسن عند بعض السامعين ووقع سيء عند آخرين ، ولكن لم يجسر واحد على ابداء رأى أو ملاحظة . وانقضت الحفلة وانصرف كل الى مكانه ، وانتقلت شجرة الدر الى قصر خاص بالسلطنة هناك . وأخذوا فى نقل الرياش وغيره من جزيرة الروضة ، ولم تعد تلك الجزيرة كرسيا للسلطنة من ذلك الحين ، وأخذوا فى تعريتها من زخرفها ونقوشها ولاسيما لما صارت السلطنة الى عزالدين ايبك فانه أمر بهدمها ونقل ما كان فيها من الاعمدة والنوافذ والسقف والاخشاب لبناء مدرسة باسمه فى القاهرة

وكانت شوكار فى أثناء الاحتفال مع شجرة الدر فى الهودج كما تقدم . فلما رفع الستر انزوت فى مكان ترى الحضور منه ولا يرونها ، وكان نظرها لا يتحول عن ركن الدين وهو بلباسه الرسمى ، على رأسه القلنسوة الجندية ولباسه مزركش بالقصب وقد زانه شبابه . وسرها على الخصوص ما سمعت من انه صار داودارا لسيدتها لعلمها انه

أصبح أقرب اليها اذ يكثر تردده الى قصر الملكة لقضاء مهام منصبه ، فخفق قلبها فرحا وتحققت قرب السعادة لأنها ستكون زوجة لداوادار السلطنة

□

انتقلت شجرة الدر بعد انقضاء الاحتفال الى قصر السلطنة ، وقد أعدوا لها فيه غرفة فرشوها بأحسن الرياش . ودخلت الغرفة يحيط بها الجوارى والوصائف وفى مقدمتهن شوكار فأخذن فى تبديل ملابسها ، ثم أمرت الخدم بالانصراف ، فلما خلت بنفسها أخذت تفكر فيما صارت اليه مما لم تكن تحلم به فى صباها ، وتذكرت صباها وكيف كانت تنظر الى السلاطين والملوك ، وما كانت تراه بينها وبينهم من المسافات البعيدة ، وكيف أصبحت اليوم ملكة المسلمين تطأطىء لها الرؤوس وتعنو لها الرقاب . فلما تصورت ذلك انشرح صدرها وانبسطت نفسها ، لكنها ما لبثت أن فكرت فيما يعتور ذلك المنصب من المشاق ، وما فى مصر يومئذ من المشاكل والحروب مع الصليبيين ، عدا الاحزاب المختلفة بين رجال الدولة والجند ، فانقبضت نفسها . . لكنها لما تذكرت عز الدين مدبر المملكة ومن معه من الامراء الذين يأخذون بناصرها للعصبية أو العطاء ، هان الأمر عليها ، وان بقى الانقباض ظاهرا فى وجهها

وبينما هى فى ذلك اذ دخلت عليها جاريتها شوكار والفرح يتجلى فى وجهها وأكبت على يد سيدتها تقبلها وهى تقول : « الحمد لله على نعمه يا سيدتى . . أنت ملكة المسلمين . . ألم أقل لك عندما رأيتك على ذلك السرير انه لائق بك ؟ . مالى أراك منقبضة النفس ؟ . هل ساءك مجيئى الآن ؟ هل تأمرين بانصرافى ؟ »

فطوقت عنقها بيديها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهى تقول : « كيف تنصرفين يا شوكار ؟ ! . لا . لا . لست منقبضة من شىء . انى شاعرة بالسعادة التى أنا فيها والحمد لله . ولكننى أفكر فى المهام الكثيرة التى بين يدى . كنت قبل الآن أتمنى أن يتم هذا الامر لى ، فلما تم ذهبت شهوة ذلك الميل ، وتبين لى المنصب بما يحف به من المشاكل والمسئوليات » .

فأرادت شوكار مداعبتها لتشغلها عن تلك الهواجس فقالت وهى تضحك : « اذا كنت قد كرهت هذا المنصب فأنا آخذه منك وأخفف عنك مهامه »

فابتسمت شجرة الدر وقبلت شوكار ثانية وقالت : « لم أكره هذا

المنصب يا عزيزتي ، فاني لم اذق منه شيئا بعد ، لكن لا ينبغي لي أن أتغاضى عما يحيط به من أسباب العناء »

قالت : « ان هذه الأسباب لا بد منها . وهذا مولانا عز الدين مدبر المملكة يحمل عنك كل أثقالها ، وهذا ركن الدين . انه بطل » . ولما ذكرته خجلت وأطرقت حياء

فضحكت شجرة الدر من قولها ومدت يدها الى جبينها تمسحه وقالت : « ان ركن الدين بطل . واذا شئت أن ترى ذلك وتختبريه فاني سأكلفه بمهمة ذات بال لا أرى بين الأمراء من أثق به وأعول عليه في قضائها غيره . هل تأذنين في ذلك ؟ » '

فخجلت شوكار من هذا الاستئذان وقالت : « من أكون أنا ليؤخذ الاذن مني ؟ ألسنا جميعا عبيدا نصدع بالأمر ؟ »

فلما سمعت هـذا التعبير ــ وهو مما يقال للملوك ــ عظم الامر عندها ، لكنها كانت عاقلة تنظر في الامور الى حقائقهـا ، ولا يهمهـا الزخارف فقالت : « كلنا عبيد يا شوكار ، وانما سألتك لأن ركن الدين يهمك الآن . أليس كذلك ؟ »

فقالت وقد توردت وجنتاها من الخجل : « هبي أنه لي ، فأنا لم أكن لأحصل عليه لولاك »

قالت : « ليس هذا هو المهم في الأمر يا شـوكار ، ولكنني أحب قبل أن يعقد له عليك أن يأتي عملا يوجب له الفخر على أقرانه ، فاذا تزوجك بعد ذلك زاد افتخارك به »

قالت : « الأمر لك في كل حال » . لكنها في الحقيقة لم يسرها هذا الأمر ، لأن ركن الدين من الأمراء المعروفين ، واذا لم يكن بد من زيادة أسباب شهرته فليكن ذلك بعد العقد . . وقد أصبحت لفرط غبطتها بذلك النصيب تخاف أن يؤخذ منها ، لكنها لم تستطع اظهار غير الرضا . أما شجرة الدر فانها لحظت ترددها وما خامر ذهنها من هـذا الامر فتنهدت ونهضت وقالت : « اتبعيني يا شوكار »

فتبعتها وهي تفكر في غرضها من هذا النهوض ، فاذا هي قد مشت في ممر الى غرفتها الخاصة . وهي غرفة أعدوها لها بأثمن الرياش ، فدخلت واستلقت على سريرها بلا كلفة وهي تقول : « آه يا شوكار ، لقد تعبت من التفكير ، وشعرت بثقل العمل الذي أخذته على عاتقي . . أطربيني بصوتك الرخيم لعلي أروح عن النفس قليلا »

فسرها هذا الاقتراح ، وأمرت بعض الغلمان باحضار العود ، فتناولته وأخذت تضرب عليه باتقان ، وتغني أغاني تعلم أن شجرة الدر تطرب

لها . فآنست منها استحسانا كثيرا وهى تضحك لها وتعجب بهـا ، وشوكار تائهة الفكر فى ركن الدين ، وتود أن يكون حاضرا لتراه لعلها تتحقق منه شيئا . لأنها لم تملك فرصة تسمع منه فيهـا قوله انه يحبها ، واحست هى انها أحبته وخافت الا يكون قد بادلها حبا بحب ، وبان انقباض قلبها فى وجهها ، وظهر أثر ذلك فى ضربها وغنائها ، فقالت لها شجرة الدر : « ما بالك يا شوكار ؟ » فانتبهت لنفسها وقالت : « لاشىء يا سيدتى » . ثم ابتسمت لتخفى ما بها وقالت : « شكرا يا مولاتى .. انى محاطة بكل أسباب السعادة والحمد لله » . وسكتت وفى سكوتها شبه انكار

فلحظت شجرة الدر شيئا مما اعترى جاريتهـا شوكار فقالت : « لاشىء يا سيدتى » . ثم ابتسمت لتخفى مابها وقالت : « شكرا خاطرك شيئا تكتمينه . هل ساءك ما قلتـه عن ركن الدين من أمر السفر ؟ »

قالت بلهفة : « كلا يا سيدتى ، ان ما تأمرين به لايكون فيه غير أسباب الراحة والسعادة ولكن » . وأطرقت حياء

قالت : « ولكن ماذا ؟ . ان هذا الاطراق يعجبنى من الفتاة فى مثل هذه الحال ، يظهر انك تشتاقين رؤية ركن الدين قبل سفره . ولعلك تحبين أن تعرفى رأيه فيك . انى سـأدعوه الساعة يجالسنا بحجة عزمى على تكليفه بتلك المهمة » . وصفقت فجاء بعض الغلمان فأمرته أن يدعو الداوادار ركن الدين ، وعادت الى مشاغلة شوكار فقالت لها : « لا يمضى كثير حتى يأتى ركن الدين .. غنى شيئا من عندك »

فأخذت تغنى ، وقد فرحت بقرب قدوم ركن الدين ، لكنها أحست بخفقان قلبها فتشاغلت بالضرب والغناء

وبعد قليل جاء الغلام يقول : « ان الامير ركن الدين بالبـاب » . فقالت : « يدخل » . وأشارت الى شوكار أن تسكت

فدخل والقى التحية ، فابتسمت له ، وقد القت النقاب بعض الشىء على رأسها ، وفعلت شوكار مثل فعلها . وقالت شجرة الدر : « مرحبا بالبطل ركن الدين .. تفضل » . واشارت الى كرسى بين يديها ، فجلس عليه وهو يتأدب فى نظراته ويفكر فى سبب تلك الدعوة ، فقالت شجرة الدر : « أتعلم يا ركن الدين لماذا دعوتك ؟ » . قال : « لا يا سيدتى . وانما أعلم أنى سيف من أسياف مولاتى ترمى بى حيثما شاءت » . فقالت : « بارك الله فيك . لكن هل تفعل ما تفعله اكراما لى وحدى ؟ »

فلما سمع قولها علم أنها تداعبه وتشـير الى علاقتـه المستقبلة بشوكار ، فسره انها بادرته بالحديث فقال : « نعم يا سيدتى ، لأنك

انت صاحبة الامر والنهى من كل وجه ». والتفت الى شوكار وابتسم فخجلت شوكار وبان الخجل فى عينيها وأطرقت ، فقالت شجرة الدر : « ارى شوكار قد خجلت ، ويعجبنى الحياء منها ، لكننى أحب أن تسمعنا لحنا آخر يشاركنا ركن الدين فى سماعه . ما رأيك ؟ »

فقالت : « انى رهينة أمرك يا سيدتى » . قالت : « أسمعينا أو اسمعيه ، لعله يسمعنا ما يطرب من غير لحن أو نغم »

فتناولت شوكار العود وأخذت تضرب عليه وتغنى حتى أخذت بمجامع قلب ركن الدين ، فطرب طربا كثيرا وهاجت عواطفه ، وكان قد سمع عن صوت شوكار ولم يسمعه. أما وقد سمعه فازداد اعجابا به وتعلقا بزواجها ، وعلم مقدار النعمة التى وهبته اياها شجرة الدر لما وعدته بتلك الغادة المطربة

وكانت شوكار تضرب وتغنى وعيناها تراقبان حركات ركن الدين ، فرأته قد هاجت أشجانه وبان الطرب والهيام فى وجهه ، ولولا تهيبه من وجود الملكة لقال أشياء كثيرة . ولحظت شجرة الدر أيضا ذلك وسرها ما لحظته ، لأنها كانت تريد أن تقبض على قلب ركن الدين لتستخدمه فيما تريد من الأمور ، اذ أصبحت ــ بعد أن صارت ملكة ــ تخاف من الدسائس والمناظرين من الداخل والخارج . وقد توسمت فى ركن الدين همة عالية وبسالة فأرادت أن تملك قلبه ليكون طوع ارادتها فيما قد تعتزم فعله ، لأنها كانت سيئة الظن فيمن حولها حتى عز الدين ايبك صديقها ، كانت ترى انه غير أمين لها وانه انما يظهر الطاعة مؤقتا

فلما رأت هيام ركن الدين بشوكار قالت له : « هل اعجبك صوتها يا ركن الدين ؟ »

فتحرك احتفاء بذلك الاستفهام وقال : « تسألينني عن صوتها ؟ الا يكفى أنه يعجب ملكة المسلمين ؟ ومن لا يطرب لهذا الصوت الرخيم ؟ »

قالت : وهى تضحك : « أرجو الا يكون الصوت وحده الذى اطربك » . فالتفت خلسة الى شوكار وسكت

فقالت شجرة الدر : « اراك تستبشرها فى ذلك ، هل تشك فى أنها تعجب بك ؟ »

قال : « اذا كانت ترى فى شيئا حسنا فانما تراه بناء على رضا مولاتى الملكة عنى »

قالت : « لا أنكر انى وسيلة التعارف بينكما ، لكنها تسمع عن البطل

ركن الدين من قبل ، ويكفى ما تسمعه منى عن بسالتك . ويعجبنى منها أنها لا يعجبها غير رجال الحرب المستبسلين فى الدفاع عن الدولة، ولذلك سألتك حين دخولك هل تعلم لماذا دعوتك فأجبت جوابا وقع من نفسى موقعا حسنا ، ولا شك أنه وقع مثل هـذا الموقع عنـد شوكار . وقد لحظت ذلك فى عينيها ، وبدلا من أن أتم حديثى معك طلبت اليها أن تسمعك صوتها وقد فعلت .. وانى فى غاية السرور من تقارب قلبيكما . فلنعد الى ما كنا فيه . قل لى هل تعلم لماذا دعوتك ، ونحن فيما نحن فيه من أمر الافرنج فى دمياط وحولها ؟ »

قال : « انك تريدين أن أكفيك أمرهم ، وهذا هين »

قالت : « سيعهد اليك الامير عز الدين غدا فى ذلك ، ولكننى أحببت أن أطمئنك أن هذا العمل يرضى شوكار ، وانهـا تحب الشـجعان البواسل . ومن الجهة الاخرى لحظت من شوكار انها » . وضحكت وهى تنظر اليها ثم قالت : « لحظت أنها تحب أن تتحقق رأى ركن الدين فيها »

فغلب الحياء على ركن الدين وقال : « هل لركن الدين رأى بعد أمر مولاتنا الملكة ؟ »

قالت : « هى لا تريد أن يكون حبك لها طوعا لأمر الملكة »

قال : « ان أمر الملكة كان فاتحة الكلام ، ولـكننى أحبها الآن طوعا لأمر قلبى . ويكفينى أن يكون عندها نصف ما عندى » . قال ذلك ونظر الى شوكار فأطرقت خجلا ، وتكلمت عيناها بما يعجز اللسان عن الافصاح به

□

لما وثقت شجرة الدر من ترابط قلبى ركن الدين وشوكار ، التفتت اليه قائلة : « والآن يا ركن الدين كن رجلا مثل عهدى فيك . ان نجاحك فى هذه المهمة ضامن لوصـولك الى الرتب الرفيعة : سر بحراسة الله ، ولكن قبل ذهابك صافح شوكار وضع يدك فى يدها . انى أسمح لكما بذلك »

فتقدم ركن الدين ومد يده ومدت شوكار يدها وتصافحا ، وهى أول مرة تلامست فيها يداهما ، فكأنهما تفاهما وتعاقدا . ثم انحنى ركن الدين امام شجرة الدر وودعها وخرج ، فأحست شوكار كأن قلبها قد خلع من صدرها وسار معه

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « ألم أقل لك انه يتفانى فى حبـك ،

وسيزداد حبك له عندما ترينه عاد ظافرا من ساحة الحرب . انه سيناضل ويحارب باسمك .. فأهنئك يا عزيزتي بهذا البطل »

فأطرقت وقلبها يخفق طربا ، ثم اذنت لها بالانصراف لتتفرغ لمهام الدولة . وما كادت تخرج من عندها حتى جاءها الحاجب ينبئها بقدوم عزالدين نائب السلطنة فقالت للحاجب : « قل له ينتظرني في الايوان »

وكان عز الدين قد جاء الى الايوان لملاقاة حبيبته على حدة ليهنئها بما نالته ، وهو يتوقع أن تكثر من الثناء عليه عند المقابلة على انفراد لأنه كان السبب في نيلها ذلك المنصب الذى لولاه لم تكن لتناله فلما لم يجدها هناك .. قصد اليها في غرفتها ، ولكنه رأى ركن الدين خارجا من عندها ، وعلى وجهه امارات الهيام ، ودهش ركن الدين عند مشاهدته وحياه وقد ظهرت البغتة في كلامه . أما عز الدين فان الشك تسرب الى فكره ، وشبت الغيرة في قلبه فلم يزد على رد التحية ، وعزم على استطلاع سبب وجود ركن الدين هناك حالما يلاقي شجرة الدر في غرفتها

فلما عاد اليه الحاجب بأن ينتظر شجرة الدر في الايوان زادت وحشته وعظمت غيرته وخيل اليه ان شجرة الدر غلبت الكبرياء على قلبها حتى أصبحت تستنكف من ملاقاة صديقها وسبب نعمتها في غرفتها. لكنه أخذ يغالب شكوكه وتجلد وذهب الى الايوان في انتظارها. واتفق انها تباطأت في الوصول ريثما بدلت ثيابها ، ثم جاءت وهي تجر ذيل ثوبها الملكي والوصيفات بين يديها . فلما دخلت وقف لها ورحب بها فحيته وأشارت اليه أن يجلس وصرفت الخدم

فلما رآها تهش له تغير ما في نفسه وأغضى عما سبق الى ذهنه وقال : « جئت لأهنىء مولاتي بمنصبها ، وأرجو أن تتأيد دولتها »

فابتسمت ابتسامة الشكر وقالت : « اني لا انسي فضلك في ذلك يا عز الدين ، ولا بد لي من الاتكال عليك في فض المشاكل التي تنتاب الدولة »

قال : « اني رهين الاشارة يا سيدتي »

قالت : « أنت تعلم ما يحيط بنا من الخصوم ما يهددنا من الأعداء ولا سيما الافرنج فانهم لا ينامون عن مناوأتنا »

قال : « لا يشغلك شاغل من أمر هؤلاء فاني مدبر أمرهم »

قالت : « بارك الله فيك .. غير اني رأيت ركن الدين يليق بهذا العمل . وقد سمعتك تثني على بسالته . وقد اتفق اني رأيته اليوم وذكرت أمر الافرنج بين يديه فرأيت منه ارتياحا الى الخروج اليهم غير اني أحببت أن يكون ذلك برأيك »

فلم يعجبه قولها انها رأته اليوم، وكيف تراه ان لم يكن ذلك على موعد بينهما ؟ . وكيف يكون ذلك في غرفتها لا في الايوان ؟ . لكنه تجاهل وقال : « ان ركن الدين أهل لثقتك . لا بأس من أن يعهد اليه في ذلك بأمر منك رأسا »

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت ورقة ملفوفة وقالت : « اليك ما كتبته له في ذلك »

فتناول الورقة وفضها فاذا هي أمر صادر الى ركن الدين هـذا نصه :

« من ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل ، والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح رحمه الله الى القائد الباسل الامير ركن الدين بيبرس البندقداري . نظرا لثقتنا الكبرى ببسالتك وعلو همتك ، ولما ظهر من بلائك في دفع الافرنج عن بلادنا ، ولما كان هؤلاء اللاعين لا يزالون يناوئوننا في جهات دمياط ، عهدنا اليك بعد مشورة مدبر مملكتنا الامير عز الدين أيبك أن تخرج اليهم برجالك الذين تختارهم وتكفينا أمرهم . وعليك السلام ورحمة الله وبركاته

« والدة خليل »

فلما قرأ الأمر أعجبه قولها انها فعلت ذلك بمشورته ، فطوى الكتاب وبعث به الى ركن الدين ، وعاد الى محادثتها في شؤون الدولة ، وهي تبذل جهدها في مجاملته ليطمئن قلبه لها ، ولا يزال الشك يخامره — والمحب كثير الشكوك — لكنه كان يطرد تلك الشكوك من خاطره ، فلما انصرف من عندها وخلا الى نفسه عادت اليه الشكوك

أما ركن الدين فانه لما جاءه كتاب شجرة الدر بادر الى تنفيذه ، وقد اتسعت آماله فيما تطمح اليه نفسه من الارتقاء في مناصب الدولة ، وهو يرى نفسه أهلا لأكبر المناصب . فانه كان كبير المطامع عالي الهمة ، والدولة في اضطراب ، وقد خطر له أن الدولة التي تستطيع امرأة ان تصير ملكة فيها لا يعجز فيها عن نيل ذلك مثله ، ولكنه يعلم أن مطلبه عسير وعز الدين أمامه ، وهو صاحب النفوذ الأقوى عند الجند وعند شجرة الدر نفسها . على ان ما آنسه من ملاطفة في ذلك اليوم بعث في نفسه بعض الشجاعة ، فكتم مطامعه هذه عن الجميع لعلمه بما يعتور ذلك من الخطر . ومع ذلك فان حبه شوكار هون عليه كل عسير وصار من أقوى الدوافع له على طلب العلا

أما شوكار فانها أصبحت بعد سفر ركن الدين الى دمياط شديدة الميل الى سماع أخبار الحرب واستطلاع ما جرى ، وهي تصبر نفسها ،

وكلما طال انتظارها ازدادت شوقا ولهفة . وأما هو فكان يغتنم قدوم بعض خاصته للسؤال عنها وتتبع أحوالها

ومضى على ذلك ثلاثة أشهر لم يأت الى القاهرة خلالها الا مرتين ، فاجتمع فيهما بشوكار على علم شجرة الدر وسمع غناءها . وفى المرة الثانية تواعدا على العقد بعد رجوعه ، فمكثت تنتظر ذلك بفارغ الصبر كأن قلبها دلها على سوء سيصيبها

□

مشى عز الدين بعد خروجه من الايوان الى المنزل الخاص به فى القلعة ، ودخل غرفة فيه تطل على القاهرة ، وقد تعمد الخلوة ليفكر فى تلك الظنون التى غزت قلبه ، وهو لا يزال فى أول هذا الدور الجديد ، وجلس على مقعد بجوار النافذة ، فوقع بصره على القاهرة وما وراءها من الفسطاط الى النيل وفيه جزيرة الروضة ، فتذكر الملك الصالح ، وأيامه هناك مع شجرة الدر ، فمر فى مخيلته تاريخ علاقته بها ، فلم يجد ما يوجب شكا فعاد الى حسن الظن

وبينا هو فى ذلك اذ جاءه غلام ينبئه بمجيء امرأة منقبة تريد مقابلته ، فسأل الغلام من هى تلك المرأة فقال : « لم أستطع تمييزها لأنها منقبة وقد غطت وجهها »

فنهض وهو يفكر فيمن عساها أن تكون ، وسار الى غرفة خاصة بمقابلة القادمين ، فوجد تلك المرأة جالسة على المقعد وقد التفت بملاءة ثمينة ، ويدل مجمل حالها على انها لم تأت لطلب صدقة ، فدخل وحياها فردت التحية وهى تتحفز للنهوض ، فأشار اليها أن تقعد فقعدت ، وقعد هو بين يديها وقال لها : « من أنت وماذا تريدين ؟ »

فأزاحت النقاب عن وجهها ولم تجب ، فاذا هى سلافة قيمة قصور الملك الصالح ، وكان معجبا بجمالها ، وله معها مواقف كانت هى الظافرة فيها نظرا لما كان لها من المنزلة عند الملك الصالح ، وكان يحترمها من أجل ذلك ، ولم يكن يتوقع أن يراها آتية اليه على هذه الصورة . فحالما كشفت وجهها بادر الى الترحيب بها فقالت : « لم آت اليك لضيافة ، ولكننى جئت ألتمس منك شيئا أنت صاحب الامر فيه »

فقال : « وما هو ؟ » . قالت : « علمت اليوم أن امور الدولة صارت الى صديقتك شجرة الدر ، وأنا كما تعلم قيمة قصور الملك الصالح ، والملك الصالح مات ، وقصوره نهبت ، وأثاثها نقل الى هذه القلعة ، وصارت الحكومة الى احدى جواريه . لا تؤاخذنى على هذا التعبير .

انها جارية ولكنها صديقة عز الدين أيبك وهو الذى رفعها الى مقـــام الملك . أنت رفعتها الى ذلك المقام لأنها صديقتك . ولك الخيار فيما فعلت ، هنأها الله بهذا المنصب . وانما جئت الآن أطلب منك أن تطلق سراحي من الخدمة ، ولم يبق لى عمل فى هذه القصور ، اذ لم يبق فيها دور للحريم ، بعد أن صارت ملكتنا من الحريم ، فاصرفني . أم أنت لا تقدر أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك بدون أن تشاور ملكة المسلمين؟ »

وكان لكلام سلافة وقع شديد فى نفس عز الدين وهو فى تلك الحال من التردد والشك ، وكان يجل قدرها ويحب التقرب منها ولكن لم تكن تسنح له فرصة فى حياة مولاها . ولما جاءته فى تلك الحال وقع فى حيرة ، وتنبهت فيه عوامل كثيرة أهمها احتقار نفسه لأنه خضع لامرأة لم ترض امرأة مثلها أن تخضع لها ، وتنبه فى خاطره حب كان كامنا فهاجه لقاؤه لسلافة . ولم يسعه السكوت مع ذلك عن الدفاع عن شجرة الدر حفظا لكرامته فقال : « ان شجرة الدر لم تصل الى هذا المنصب الا لأنها أم ولد السلطان كما تعلمين »

قالت : « صدقت ، بارك الله فيكم . لم تبايعوها الا لأنها أم ولد السلطان . ما شاء الله ! وأين ذلك الولد ؟ لقد مات . واذا كان الغرض المحافظة على نسب السلاطين الأيوبيين فى هـــذه السلطنة أفلم يكن الأولى أن تولوا عليكم أيوبيا يكون الامير عز الدين وصيا عليـــه ؟ ان الامير عز الدين الآن مدبر المملكة ولكن هل الامر بيده ؟ أنا أعرف جنس النساء ، انهن لا يحفظن الوداد . لا أقول هذا عن شجرة الدر وحدها ، لكن هكذا طبيعتنا نحن النساء . ويؤيد ذلك ماجاء عنهن فى كتب الدين ، وعلاوة على ذلك فان هذه السلطنة لا تثبت ان لم يأت كتاب أمير المؤمنين العباسى راضيا عن هذا الاختيار »

فقال : « وهل تظنين أمير المؤمنين يعترض على هذا التعيين ؟ » .
قالت : « لا شك عندى فى ذلك »

قال : « أظنك مخطئة يا سلافة ، لأن شجرة الدر حكيمة عاقلة ، وقد اختارها الأمراء والقواد ، فلا اظن أمير المؤمنين يخالفهـــم » .
قالت : « أؤكد لك أن أهل بغداد سيغضبون لهذا العمل وليس الخليفة فقط . وسوف ترى .. انى أعرف هذه الامور من قبل .. مالنـــا ولذلك انما أطلب منك الآن أن تصرفنى وتطلق سراحى ولكن دون مشورة أحد »

قال : « والى أين تذهبين اذا أطلقت سراحك ؟ » . قالت : « أذهب فى هذه الدنيا » . وغصت بريقها وتساقطت دمعتـــان على خديهـــا فمسحتهما وأظهرت أنها خجلت من الضعف الذى ظهر عليها وسكتت

فأثر منظرها فى قلبه وقال : « بدلا من ذهابك فى هذه الدنيا ، امكثى عندنا » . قالت « أين أمكث ؟ قد ذهبت القصور والنساء ، وحيثما مكثت سأكون أسيرة سجينة ، أو رهينة رضا ملكة المسلمين أو غضبها . وهـذا لا صبر لى عليـه مثل صبركم أيهـا الرجال العظام والقواد البواسل ، فانى امرأة ضعيفة » .

فأحس بالتهكم الذى يتخلل أقوالها ووجدها مصيبة فيما تراه ، وأعجب بجسارتها حتى تقول ذلك له ، فقال لها : « يا سلافة .. كفى تأنيبا وتعنيفا . ما حدث قد حدث ، وأنا أعرف قدرك ، ولا احب أن تخرجى على هذه الصورة ، فامكثى عندى و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « أمكث عنـدك ؟ ! مسكين ! . وما الذى يصيبك لو علمت شجرة الدر بوجودى هنا ؟ »

فوجد الحق معها ، لكنه كبر عليه أن يعترف بهـذه الحقيقة فقال : « مالها ولمن عندى . أنا لا أتعرض لما عندها ؟ »

قالت : « وما هو الفرق بين الملوك وسواهم ؟ . هـل يجـوز لنا ما يجوز للملوك ؟ هل يخيل اليك أنك لو رأيت رجلا خارجا من غرفة شجرة الدر صديقتك الحميمة — وأنت الذى وضعتها فى هذا المنصب — يحق لك أن تسأل عن سبب وجوده هناك ؟ . أما هى فلها أن تعد أنفاسك وتحاسبك على كل خطوة »

فتذكر رؤيته ركن الدين فى ذلك الصباح خارجا من عندها وما خامره بسبب ذلك من الشكوك . فأطرق هنيهة يفكر ، لكنه خاف أن يدل ذلك على ضعف فيه ، وهو لا يريد أن يظهر ذلك خصوصا بين يدى سلافة بعد ما أسمعته اياه من اللمز والتعـريض فقال : « أنت تعتقدين اذن أن وصول شجرة الدر الى هذا المنصب ابعد ما بينها وبينى ، فحق لها أن تتصرف كما تشاء . فما الذى يمنعنى من أن أفعل أنا ما أريده ولا ألتفت الى ما يرضيها أو يغضبها ؟ »

فقالت : « لا .. لا أشير عليك بذلك . انه يكون سببـا لتنغيص العيش . ولا احب أن يكون ذلك بسببى »

قال : « هل تظنين وجودك عندى يغضبهـا ؟ . ومع ذلك لا أرى حاجة الى اطلاعها على وجودك عندى »

فهزت رأسها وقالت : « انها جرأة عظيمة منك ياسيدى ، اذ أحببت أن أكون تحت ظلك . ولكنى لا أرى أن أقيم معك فى منزلك ، بل أقيم فى مكان آخر . وأنا فى كل حال صديقتـك ، وسأبقى على ودادك ولو صرت ملكة المسلمين .. على انى لا أضمن ذلك . لأن الانسان عرضة للتغيير » . وضحكت

فقال : « ما الذى يجول بخاطرك وتخافين أن يتغير ؟ » . قالت : « يجول بخاطرى ان النساء لايصلحن للحكومة ، وان السلطنة لاتليق الا بك ، فانت قائد الجنـد ، وأنت حاربت الافرنج وقهرتهم ، وأنت دبرت كل شيء . هذا ما أراه الآن ولا أغير فكرى فيه » . فكان لهذا الاطراء وقع جميل فى قلبه

والانسان تخدعه ميوله حتى تريه الأسود أبيض والخرافة حقيقة ، ومن فطرته أن يعتقد صدق مادحه واخلاصه ويميل اليه بقلبه ، وقد عرف هذه الطبيعة اصحاب التـدبير الذين يحتاجون الى مصانعة الناس فى التجارة أو غيرها فاتخذوا مدح عملائهم واطراء مناقبهم وسيلة للتقرب اليهم واكتساب ثقتهم ، واتخذ هذه الخلة أيضا طلاب رضا النساء ، وجعلوا اطراء جمالهن وسجاياهن وسيلة لاكتساب قلوبهن ولذلك قال أمير الشعراء :

خدعوها بقولهم حسناء والغـوانى يغرهن الثنـاء

والحقيقة ان الثنـاء لايغر الغوانى فقط ، بل هو يغر كل انسان ، وينلر أن ينجو عاقل من الوقوع فيه

فلما سمع عز الدين قول سلافة اعتقد صدقها وانها مصيبة فيه ، وتوهم ألا غرض لها غير تقرير الحقيقة ، وتمكن اعتقاده فى اخلاصها وصدق مودتها ، وكان ذلك باعثا على التباعد بينه وبين شجرة الدر بدون أن يشعر . وافترقا على أن تقيم سلافة فى قصر خاص بها وتكون تحت رعايته

وبعد ذهابها أخذ يفكر فيما قالته فوجدها على صواب ، اذ كان يجب أن يتولى السلطنة أحد غلمان بنى أيوب ، على أن يكون هو مدبرا للمملكة ولا يكون هناك باب للاعتراض ، وذلك أفضل من أن تتولى الدولة امرأة



خلع شجرة الدر

أصبح أهل القاهرة يتهامسون عن رسول قادم من عند أمير المؤمنين العباسي وقد نصب فسطاطه خارج القاهرة ، وأخذوا يتكهنون فيما عسى أن يكون كنه رسالته ، اذ يندر أن تأتي رسالة من الخليفة العباسى الا اذا كان هناك أمر مهم من عزل أو تولية

وكان الرسول حين أشرف على القاهرة قد بعث أحد رجاله ينبىء القواد والأمراء بقدومه ليرسلوا من يستقبله كما هى العادة احتراما للرسالة التى يحملها من خليفة الرسول . ولم يمض كثير حتى ضجت المدينة وغصت الشوارع بالمارة والوقوف ، ولا سيما فى الشوارع الممتدة من باب النصر الى القلعة حيث يمر الرسول. واستعد الأمراء والقواد فى القلعة للاجتماع وسماع الرسالة عند تلاوتها ، وأكثرهم يظن أنها تتعلق بسلطنة شجرة الدر ، والأرجح عندهم أنها تثبيت لها فى المنصب كما تعودوا فيمن ولوهم من السلاطين. وتقاطر الأمراء والقواد الى الديوان ، وفى مقدمتهم عز الدين أيبك وغيره من الأمراء البحرية ، إلا ركن الدين لأنه كان غائبا فى دمياط . أما شجرة الدر فقد كانت على سريرها فى صدر الايوان ، وعليها ثوبها الملكى الذى لبسته يوم الاحتفال بتوليتها منذ ثلاثة اشهر ومعها شوكار ، وكانت هذه حزينة لغياب ركن الدين فانها كانت تود حضوره

أما سلافة فكانت أعلم الناس بفحوى تلك الرسالة ، اذ جاءها رسول خاص من قيمة قصر الخليفة المستعصم بالله كان مرافقا لرسول الخليفة ، وقد انبأها ان الرسالة تضمنت خلع شجرة الدر عن سلطنة مصر ، فكاد قلبها يطير فرحا ، وأحبت ابلاغ ذلك الى عز الدين ، وكان يتردد عليها فى أثناء هذه المدة ، وقد تحابا وبلغ خبرهما الى شجرة الدر فاستاءت لكنها كظمت غيظها . فلما علمت سلافة بقدوم رسالة الخليفة بعثت الى عز الدين فجاءها ، فقالت له : « بلغني انه جاءكم رسول يحمل كتابا من أمير المؤمنين ، ما هو فحواه يا ترى ؟ » . قال : « لا أعلم » . قالت : « وما ظنك أن يكون فحواه ؟ » . قال : « قلت لك انى لا أعلم ، فهل أنت تعلمين ؟ »

فضحكت وقالت : « نعم أعلم ، وقد قلت لك عن فحواه منذ ثلاثة أشهر . ألا تذكر ؟ » . فأطرق وهو يفكر ، فتذكر حديثها الاول معه يوم جاءته الى القلعة ، وذكرت له يومئذ ان الخليفة لايسلم بسلطنة شجرة الدر فقال : « أظنك تعنين حديثنا عن شجرة الدر ؟ » . قالت بتهكم : « نعم عن ملكة المسلمين ! »

قال : « اذكر انك تنبأت ان الخليفة لن يوافق على توليتها ، فهل جاء الرسول بهذه المهمة ؟ » . قالت « نعم جاء بهذه المهمة . وفحوى رسالته خلع هذه المرأة عن الملك »

فأدهشته هذه المفاجأة لأنه لم يكن ينتظرها ، واستغرب اطلاع سلافةعلى ذلك الخبر قبل كل انسان ، والرسول لم يدخل القلعة بعد ، والكتاب ما زال فى حقيبته ، فقال لها : « كيف عرفت ذلك ؟ »

فضحكت وقالت : « عرفته وتنبأت به قبل حدوثه ، لعلمى أن تلك التولية لا ترضى أمير المؤمنين . والآن كن حازما ، واعلم أن الرأى الذى ذكرته لك منذ ثلاثة أشهر هو الرأى الصواب . هل تذكره ؟ »

فظهرت الدهشة على عز الدين ، فشعر بضعفه بين يدى تلك المرأة ، وفكر فيما تطلبه منه ، فتذكر انها أشارت عليه يومئذ أن يولى أحد أبناء الأيوبيين ويكون هو مدبر المملكة والوصى على العرش ، ثم يغتنم الفرصة ويستقل بالسلطنة بعد أن تستقر قدمه فيها فقال : « نعم أذكره . لكن ما هو السبيل الى اتمامه ، ومن هو الغلام الأيوبى الذى يمكننا تنصيبه ؟ »

قالت : متى بلغتم الى هذا الامر فانا أدلك على من يصلح لذلك »

قال : « قولى الآن فربما لاتسنح الفرصة باعادة النظر »

قالت : « صدقت . أتعرف موسى بن صلاح الدين بن مسعود بن الكامل ؟ » . قال : « نعم أعرفه لكنه غلام لم يجاوز الثامنة من عمره »

قالت : « لو كان فى الخامسة لكان أصلح لما نريده . هذا الغلام هو أولى الأيوبيين بهذه السلطنة ، ومتى كنت أنت الوصى عليه كان كل شىء اليك »

قال : « ولكن من يضمن لى الوصاية عليه ؟ »

قالت : « أنا أضمنها لك بشرط الا تظهر ضعفا ، وأن تكون انت المقترح لسلطنة موسى هذا ، واتمام ذلك على »

قال : « وهل تحضرين الاحتفال معنا ؟ » . قالت : « احضر مع النساء من وراء الستر » . فودعها وخرج من عندها وقد ملكت عقله بعد أن ملكت قلبه . ولما وصل الى القلعة وجد الأمراء فى انتظاره

وكانت شجرة الدر أكثرهم قلقا على غيابه ، فقد علمت بغيابه وهى وراء الستر ، وكأن قلبها دلها على تنافر بينهما . ومكثت تنتظر وصول الرسول وتلاوة الكتاب وهى لا تعلم ما هو مخبوء لها

□

كانت الجماهير تموج فى ساحة القلعة منذ صباح ذلك اليوم ، وجاء الخبر بوصول الرسول ، فتقدم الحاجب لاستقباله حتى دخل الايوان ، ووقف الأمراء على الجانبين ، وشجرة الدر فوق سريرها وراء الستر ومعها شوكار . وقد لحظت هذه اضطراب سيدتها وخوفها فأخذت تخفف عنها وتطمئنها وتداعبها وهى تتجلد وتصغى لما يدور من الحديث فى الخارج ، ثم سمعت عز الدين يقول : « أيها الأمراء . هذا رسول مولانا الخليفة أمير المؤمنين المستعصم بالله حفظه الله ، ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا ، فاسمعوا له واضمروا الطاعة لما يحويه ، لأنه من خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم » . فصاح الجميع : « نحن مطيعون للرسول وخليفته »

فتقدم حامل الكتاب ، ووقف على منصة وفضه ، وأخذ يقرأ والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، ويكاد أحدهم يقطع نفسه لئلا يكدر عليه سمعه وهذا نص الكتاب :

« من أبى أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله أمير المؤمنين الى أمراء الجند والوزراء فى مصر . السلام عليكم . وبعد فقد بلغنا انكم وليتم أمركم شجرة الدر ، جارية الملك الصالح ، وقلدتموها أمور الدولة ، وجعلتموها سلطانة عليكم . فاذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فأخبرونا لنرسل اليكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) »

ولم يفرغ القارىء من تلاوة الكتاب حتى ضج الناس وعلت الضوضاء ، ولا تسل عن شجرة الدر وما أصابها لما سمعت ذلك . لكنها كانت عاقلة حازمة ، فلما سمعت أمر الخليفة وعلمت انه لا مندوحة لها عن العمل به تجلدت وأومأت الى الحاجب أن يزيح الستر المنصوب بينها وبين المجلس ، فأزاحه والتفت الناس نحو السرير وتهيبوا ، ولبثوا ينتظرون مايبدو من شجرة الدر بعد تلاوة الكتاب ، فاذا هى تقول : « يا معشر الأمراء . قد سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين ، وطاعته فرض على كل مسلم . قد صدق — حفظه الله — فان النساء لا يصلحن للسلطنة ،

وأنا لم اقبل هذا المنصب الا عملا برأيكم أيها الأمراء والقواد ورغبة فى استقرار الاحوال بعد اضطرابها . أما الآن وقد استقرت الأمور وسمعنا رأى مولانا الخليفة ، فانى أخلع نفسى وأطلب منكم أن تختاروا من ترونه ليتولى هذا الأمر ، وأنا أول من يخضع له »

فاستحسن محبوها هذا التنازل منها ، لأنه دل على كبر نفسها وسعة عقلها ، ولم تستحسنه سلافة ، لأنها كانت تحب أن تتردد فينزلوها كرها . على أنها فرحت بخلعها . ولما فرغت شجرة الدر من قولها خرج صوت من وراء حجاب يقول : « لا تقبل علينا سلطانا ليس من سلالة آل أيوب »

ولم يعرف الأمراء من أين خرج الصوت ، لكنه عبر عن شعور كثيرين فأمنوا عليه وصادف هوى من نفوسهم . فقد كان أكثر المصريين عند تولية شجرة الدر غير راضين عن توليتها ، ويطلبون تولية رجل من آل أيوب ، لكنهم أذعنوا خوفا من الجند . فلما خلعت وسمعوا صوتا يقترح ما يشعرون به أجابوا بالموافقة ولو لم يعرفوا المقترح . وعلا الضجيج وكان الصوت الغالب اختيار سلطان من آل أيوب . فتوجهت الأنظار نحو كبير الأمناء هناك ، وهو عز الدين أيبك ، كأنهم يستشيرونه فقال : « ان مولاتنا شجرة الدر قد برهنت بتنازلها عن الملك على أنها مخلصة لمولانا أمير المؤمنين وانها حريصة على حقوق المسلمين ، ونحن لم نولها هذا المنصب الا لأنها والدة المرحوم خليل من سلالة الايوبيين . أما الآن فما علينا الا اختيار أحد أمراء تلك السلالة . وأعلم أن منهم مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود لكنه صغير السن »

فقاطعه حامل الكتاب قائلا : « لا يضره صغره فانك وصيه وقائد جنده ومدبر أموره ، فما رأيكم أيها الأمراء ؟ »

فصاحوا جميعا : « هذا هو الصواب . لا نرى أصوب منه »

فاستغرب عز الدين ذلك من صاحب الكتاب وهو قادم من بغداد ، وكيف عرفه ورشحه لهذا المنصب . فلما سمع مصادقة الجمهور وقف سباكتا ، فقال حامل الكتاب : « بما أنكم قد أقررتم تولية موسى بن صلاح الدين فلنفعل ذلك الآن ، وقد دفع الى مولانا أمير المؤمنين شارات السلطنة لالبسه اياها »

قال ذلك وأشار الى بعض رجاله فدفع اليه حقيبة كالصندوق ، فأمره ففتحها وفرش ملاءة وأخذ يستخرج ما فى الصندوق ويضعه فوقها والناس ينظرون ، فكان أول شيء استخرجه خلعة سوداء ؛

هي شارة بني العباس ، ثم عمامة سوداء ، وأخرج طوقا من ذهب للعنق وقيدا من ذهب للرجل . فلما صارت كلها على الملاءة قال : « هذه شارات السلطنة ، فآتوني بالسلطان موسى بن صلاح الدين لنلبسه اياها فقد أوصاني أمير المؤمنين ألا أخرج من مصر الا وعليها سلطان من آل أيوب »

فسارع عز الدين الى احضار موسى ، ولم تمض مدة قصيرة حتى جيء به ، وهو طفل في الثامنة من عمره ، فألبسوه تلك الشارات على قدر الامكان ، ونادوا به سلطانا على أن يكون عز الدين أيبك وصيا عليه ومدبرا لأمور الدولة بالنيابة عنه

كل ذلك وشجرة الدر على سريرها ترى وتسمع ، فلما فرغوا من تنصيب السلطان الجديد وأرخوا الستار عليها تنفست الصعداء واكبت على كتف شوكار وأخذتا في البكاء ، وشوكار تتجلد وتقول : « هلمي يا سيدتي نذهب الى غرفتك لئلا نفتضح »

فأطاعتها ، ومشتا نحو الغرفة ، ولما وصلتا الى هناك أخذت شوكار تخفف عن سيدتها وهذه تتأوه وتتنهد ، وأخيرا قالت : « لا أعلم سبب هذا التغيير ، ولكنني أحسنت بالتنازل من تلقاء نفسي . ولاتظني اني آسفة على اعتزال هذا المنصب الشاق وأنت أعلم الناس بما كنت أشكوه من ثقل أعبائه . ويكفيني أني أول امرأة تولت الملك في الاسلام ، وأنت الآن تعزيتي الوحيدة »

فلم يعجبها قولها لأنها أصبحت تفضل أن تكون تعزيةركن الدين ، فسكتت ، فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « انما أتأسف لأني لم أبق على كرسي الملك حتى ينال ركن الدين ما هو أهل له من الرتب العالية ، لكنه سينالها من سواي ، ولو كان هنا اليوم لنال شيئا ، وربما كان هو المختار للوصاية »

فانقبضت نفس شوكار عند سماع ذلك ، وتأسفت لفوات الفرصة ، لكنها عادت الى اطراء سيدتها وقالت : « أنما يهمني يا سيدتي أن تكوني سعيدة »

قالت : « اني سعيدة بك يا شوكار كما تعلمين والحمد لله على أن تخلصت من أعباء الملك . لقد ذقتها فلا أحسد أحدا عليها ولا اتمنى أن أعود اليها »

قالت شوكار : « صدقت يا سيدتي ، لأني رأيتك منذ توليت السلطنة قلقة الخاطر ، وكنت قبلها منشرحة الصدر ، فلنعد الى ذلك . متى يعود ركن الدين يا ترى ؟ »



« وجيء بموسى بن صلاح الدين بن مسعود ، وهو طفل
في الثامنة من عمره ، فالبسوه قلادة السلطنة »

قالت : « سيعود قريبا . انه حالما يسمع بهذا التغيير يأتى ، ومتى آتى نلت ما وعدتك به » فأطرقت وسكتت

□

تولى الأمر موسى بن صلاح الدين ، ولقبوه بالملك الأشرف ، وناب عنه فى تدبير الأمور عز الدين . وقد أحس هذا ان ما ناله فى هذا اليوم كان الفضل فيه لسلافة . فلما انصرف القوم كان أول شيء عمله أنه ذهب الى منزل سلافة ، فرآها جالسة جلوس الملك الظافر وهى تضحك لنجاح مهمتها ، فلما دخل ألقى التحية فقالت : « كيف رأيت أيها الامير . . ألم تكن سلافة عاقلة تفهم سرائر الامور ؟ »

قال : « صدقت والله انك جئت بالمعجزات . ألا تخبريننى كيف استطعت الاطلاع على هذه الامور قبل وقوعها ؟ »

قالت : « أما وقد علمت صدق مودتى لك فلا أخفى عليك انى أنا السبب فيما رأيته من التغيير والتبديل بسبب صداقتى لقيمة قصر الخليفة المستعصم بالله ، فانى كتبت اليها كتابا ترتب عليه ما رأيت ، ولكنها اشترطت على أمرا ضمنت لها تنفيذه ولم أحدثك عنه من قبل لعلمى أنك لا ترى مانعا من امضائه »

قال : « وما هو ؟ » . قالت : « أتعدنى أنك فاعله ؟ »

ففكر فيما عسى أن يكون طلبها ، وخاف أن يكون فيه ما يسوءه ، لكنه لم يسعه الا الطاعة فقال : « انى فاعل ما تريدين »

قالت : « هذا كتاب قيمة القصر تقول فيه ان مولانا أمير المؤمنين بلغه ان فتاة رخيمة الصوت تتمتع شجرة الدر بغنائها ، وقد طلب أن ترسل اليه حالا ، لأن أمير المؤمنين مغرم بالغناء ، وقد ضمنت لرسول الخليفة أن أرسل معه جارية شجرة الدر هدية للخليفة »

قال : « لعلك تعنين المغنية شوكار ؟ » . قالت : « نعم ، اياها أعنى ، فماذا ترى ؟ »

قال : « هذا هين على . وأظنه يسر الجارية لأنها ستنتقل من خدمة ملكة مخلوعة الى قصر خليفة عظيم »

فأعجبها قوله : « ملكة مخلوعة » . وابتسمت وقالت : « ولا يخفى عليك ان ارضاء الخليفة لابد لك منه الآن ، وانك ستحتاج الى رضاه عنك اذا أحسنت التدبير وصرت سلطانا مستقلا . أظنك فهمت مرادى »

فأومأ برأسه انه فهم كل شيء ، وأسرع الى النهوض وأشار اليها مودعا وهو يقول : « ائذني لي في الانصراف للقيام بهذه المهمة »

قالت : « سر يحرسك الله . ولا تنس أن الرسول سيسافر غدا ، ويجب أن تكون معه شوكار »

وسار عز الدين الى القلعة متنكرا ، وكان في أثناء الطريق يفكر في سلافة واقتدارها ، وقد شعر بفضلها عليه ، ورأى انه لم يكن أمينا في حب شجرة الدر ، ولكنه اغتفر لنفسه ذلك بما كان قد داخله من الشك في أمرها مع ركن الدين بالأمس ، وكان يحب أن يؤجل مقابلة شجرة الدر الى الغد ريثما يهدأ روعها لكن الحاح سلافة بعثه على سرعة مقابلتها

فلما دخل القلعة سار توا الى منزل شجرة الدر ، وكانت جالسة في غرفتها مع شوكار ، وقد أخذت هذه تعزف على العود وتغنيها لتخفيف مابها . ولما أقبل عز الدين على باب الدار سمع صوت العود فأشار الى الحاجب أن يخبر شجرة الدر بقدومه

ودخل الحاجب وانبأها بذلك ، ولكن عز الدين لم ينتظر جوابها بالاذن ، بل دخل توا بما له من الصداقة ، فلما أقبل على الغرفة رأى شجرة الدر بثياب المنزل ، وقد عصبت راسها بعصابة مزركشة ارادت بها تخفيف صداع ألم براسها على اثر ما كابدته في ذلك اليوم ، فلما رأته داخلا تثاقلت في النهوض وهي تتألم من الصداع ، ولم يكن الصداع وحده سبب تثاقلها ، لكنها كانت قد شعرت بتغير قلبه وتحول محبته ، ولم يفتها أمر سلافة وتردده اليها قبل خلعها ، وتأكدت تغيره في ذلك اليوم لأنها كانت تراقب حركاته ، وعلمت انه ذهب اليها عقب انفضاض المجلس في حين كان ينبغي له أن يبادر الى لقائها هي لكي يؤانسها ويخفف عنها . وهذا ماكانت تتوقعه لو كان باقيا على عهده معها . فلما رأته داخلا انقبضت نفسها واختلج قلبها في صدرها عتبا وغيظا

أما هو فأسرع اليها وهي تتحفز للوقوف وقال : « اجلسي ياسيدتي لاحاجة الى وقوفك ، اني اراك مريضة ، ماذا أصابك ؟ »

فعادت الى مقعدها وهي تصلح العصابة وتلتف بالمطرف وتنكمش كأن البرد يتمشى في عروقها ، وظلت ساكتة ، فقعد عز الدين على كرسي بين يديها وقال : « أظنك مصابة بالصداع الذي كان يتردد عليك أحيانا »

فقالت : « انه صداع شديد لم أصب بمثله من قبل ، لا أراك الله مثله يا عز الدين وحماك من غوائله »

فلم يعجبه قولها ، وأدرك أنها تعنى شيئا تضمره فقال : « لاينجو أحد من الصداع يا شجرة الدر . وليس هو مما يؤبه له ، ولا يلبث أن يزول »

قالت : « انه يختلف عما تعودته قبلا ، وتغيير العادة صعب . أليس كذلك ؟ » . وظهر العتب فى عينيها

فأدرك مرادها لكنه تجاهل وقال : « ان الانسان لايتعود الاوجاع فاذا عاودته رآها فى كل مرة جديدة كأنه لم يذقها من قبل . ولو علمت انك مصابة بالصداع لأسرعت اليك قبل هذه الساعة »

قالت : « لاتشغل بالك بهذه الملكة المخلوعة ، وأنت الآن فى شاغل بأمور الدولة وغيرها »

قال : « وهل تظنين أمور الدولة تشغلنى عن شجرة الدر ، وقد كان يجب أن أبادر الى تهنئتك بالنجاة من اثقال هذه المهام . واعجبنى منك ما أظهرته فى هذا الصباح من رباطة الجأش وسعة الصدر ، وقد احسنت فى كل ما صدر منك فلم تتركى لأمر الخليفة بالخلع قوة او اثرا » . وتنحنح وبلع ريقه وقال : « والحق يقال ان ذلك الامر اذا كان له أثر فانما يكون أثره موجها الينا ، أو الى خاصة ، لأننا الجأناك الى قبول السلطنة ، ولم يدر فى خلدنا أن يكون ذلك مخالفا لارادة أمير المؤمنين » . فلم يعجبها منه ذلك المن عليها بأنه هو الذى جعلها ملكة فقالت : « انتم أخطأتم بالاقتراح وأنا أخطأت بالقبول . على أن نزولى عن عرش الملك لم يترك أثرا كبيرا فى نفسى بقدر ما ترك . . » . وسكتت وهى تنظر اليه نظر العتاب

فعلم انها تشير الى تغيره ، فبادرها وقال بلهفة : « أخاف أن يكون قد داخلك شك فى صداقتى و . . . »

فقطعت كلامه قائلة : « لا . لا . لم يداخلنى شىء . ولكننى تعلمت ان الانسان لاينبغى أن تغره ظواهر الامور دائما . والذى أراه الآن أن نترك العتاب ونروح خواطرنا بلحن نسمعه من شوكار» . والتفتت الى شوكار ، وكانت قد وضعت العود بجانبها ، فتناولته وأصغت لما تأمرها به سيدتها فاذا هى تقول لها : « أنت ياشوكار تعزيتى الوحيدة الآن . ولا أخاف تغيرك . غننى لحنا محزنا » . قالت ذلك وتلألأ الدمع فى عينيها

فتأثر عز الدين من منظرها ، خصوصا بعد ما رآه من تعلقها بشوكار وهو قادم ليأخذها منها . . فظهرت البغتة فى وجهه ، لكنه تشاغل بسماع الغناء ، وهو يظهر أنه يسمع والحقيقة انه وقع فى حيرة ، ولم يعد يعلم ماذا يفعل، والوقت لايساعده على تأجيل مهمته .

وقضي برهة وهو يفكر فى حيلة ينتحلها للدخول فى الموضوع وطلب شوكار منها . فلما فرغت شوكار من الغناء التفت عزالدين الى شجرة الدر وهو يبتسم وقال : « يظهر انك انقطعت عن كل شيء الى شوكار . اليس فى قصرك من يحسن الغناء سواها ؟ »

قالت : « لا اعني الغناء فقط وانما أعني انها تؤانسني ، واعتقد أنها تحبني ، ولا أخاف أن تتحول عن محبتي »

فأدرك عز الدين ما تعنيه من تغيره عليها ، لكنه صمم أن يصل الى مراده فقال : « ولكن ليس من الحكمة أن تعلقي آمالك بها الى هذا الحد ، أنا آتيك بمغنية أحسن منها متى شئت »

فقالت : « لا . لا أريد سواها »

فقال : « الافضل أن تطلبي سواها »

فقالت وكأنها أحست بما يضمره : « هل تنوى أن تسلبني هذه التعزية أيضا ؟ » . قال : « لم أكن أحسب لها هذا المركز لديك ، ولولا ذلك لما وافقت على أخذها »

فأجفلت وصاحت : « أخذها ؟ . من يأخذها مني ؟ . لا . لا . انها جاريتي وأعزها معزة البنين . لا أسمح بها لأحد أبدا »

فتشاغل بحك عثنونه بسبابته وهو مطرق ثم قال : « صدقت ، يحق لك أن تحرصي عليها والا تسمحي بها لأحد . ولكن الانسان لايقدر أن يفعل ما يشاء دائما . ولا سيما اذا كان الطالب لايمكن رد طلبه »

فنهضت ونظرت اليه بدهشة وقالت : « من طلبها ؟ قل ياعزالدين »

قال : « لا تغضبي يا سيدتي . أن طالبها أعظم رجل فى المسلمين »

فقعدت وقالت : « أظنك تعني المستعصم بالله أمير المؤمنين ؟ .. أما كفاه خلعي عن الملك حتى يطلب جاريتي ؟ »

قال : « يسوءني اني لا أرى مندوحة عن اجابة طلبه وهو امير المؤمنين ونحن تحت رعايته وهوخليفة الرسول صلىالله عليه وسلم »

قالت : « وكيف طلبها ؟ .. ومن جاء ليأخذها ؟ »

قال : « رسول الخليفة حامل كتابه ، وقد رأيته بالامس »

فتناثر الدمع من عينيها رغم ارادتها ، والتفتت الى شوكار فرأتها مطرقة ساكتة ودموعها تتدحرج على خديها فأثر منظرها فى نفسها وهاج غضبها وقالت : « هل وافقته على ذلك ياعز الدين ؟ »

قال : « وهل فى الامكان رد طلبه ، وقد رأيت امره نافذا فيما هو أعظم من ذلك ؟ »

فوقفت وأخذت تمسح عينيها بمنديلها وهى تكاد تتميز من الغيظ ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « ولكن هذه الفتاة مخطوبة »

قال : « لا أعلم . وانما على أن أنفذ طلب أمير المؤمنين ، فاذا كانت لأحد حاجة فليطالب بها أمير المؤمنين » . قال ذلك ونهض وقد ظهر الاصرار والجد فى حركاته ثم قال : « فلتبستعد شوكار للسفر غدا صباحا ، واعلمى انها ستسافر معززة مكرمة لأنها طلبة أمير المؤمنين ولا خوف عليها »

وخرج عز الدين ، ولم يكد يبلغ الممر حتى سمع بكاء شوكار وشهيقها لكنه تغافل وأوصى الحرس هناك أن يراقبوها لئلا تفر خلسة فى أثناء الليل

وقد أحسن عز الدين بهذه الوصية لأن شجرة الدر كانت قد عزمت على أن تمهد لشوكار سبيل الفرار ، فلما رأت استحالة ذلك عظم الامر عليها ، وتمكنت البغضاء من نفسها ، وأصبح همها التخفيف عن شوكار والتهوين عليها ، وتجلدت أمامها وبينت لها ان ذلك الامر لامناص من الطاعة فيه ، ولكنها ستبذل جهدها فى انقاذها ، وأكدت لها ان ذهابها لاخوف منه

أما شوكار فكان أكبر همها أن ترى ركن الدين وما يكون احساسه بعد أن يسمع ذلك الطلب ، وما الذى يبدو من غيرته أو فتوره . ولكن لاسبيل اليه وهو بعيد ، والوقت لايساعد على استقدامه فى ذلك الليل ، فاستسلمت وتوكلت ، ولم يكن ذلك فى عرف تلك الايام شيئا عظيما لما تمكن فى نفوس الناس من امتياز الخلفاء والامراء ، وأن أولئك الجوارى مثل سائر المتاع لا ارادة لهن ولا رأى ، وعليهن الاستسلام لما يطرأ عليهن فى الانتقال من سيد الى سيد . ولولا خوف شوكار من أن تخسر ركن الدين لكان انتقالها الى بيت الخليفة مما يحسدها عليه كثيرات ، ومع ذلك لم يكن لها أن تختار

وفى صباح اليوم التالى حملها بعض الخصيان الى معسكر رسول الخليفة بعد أن ودعت مولاتها وداعا مؤثرا . لكن شجرة الدر أكدت لها أنها لن تنساها ، ولا بد من أن تقترن بركن الدين ، فسافرت الى بغداد وقلبها فى مصر

أما شجرة الدر فقد شق عليها فراق شوكار كثيرا ، لكن غضبها من عز الدين انما كان سببه الغيرة من سلافة . وحدثتها نفسها أن تلك الجارية هى سبب مصائبها . وقد نقمت على عز الدين خيانته المضاعفة ، فقد خانها فى قلبها وأحب سواها ، وخانها فى منصبها فلم يبد اعتراضا على خلعها وهو قائد الجند وصاحب القوة الفعالة ،

فاضطرت الى الاذعان لحكم الزمان ، اذ لم تر وسيلة الى غير ذلك

على انها تذكرت ركن الدين وهو آت عما قليل الى القاهرة ، فكيف تقابله وماذا تقول له ؟ . وكان هو حين بلغه ماحدث من الانقلاب فى القاهرة قد سارع اليها ، فوصل عقب سفر شوكار ، وجاء الى شجرة الدر قبل مقابلته عز الدين، فأخبرته بماجرى ولاسيما فى شأن شوكار، وأكدت له انها بذلت جهدها فى اقناع عز الدين ليبقيها فأبى ؛ وبالغت فى وصف قحته وفظاظته لكى توغر صدره عليه

وكان ركن الدين ما زال بثياب السفر ، فعظم عليه الامر ، وقام فى خاطره لأول وهلة ان عز الدين فعل ذلك نكاية فيه ليحرمه من شوكار ، لكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصا على سره ، فلم يجب بكلمة واحدة مع ان الغضب بدا فى عينيه ، وكانت شجرة الدر تلاحظ ذلك فيه فتعيد الشكوى وتتوقع أن يقول قولا يشفى غليلها ، ولايشفيه الا أن يتوعد عز الدين بالقتل ، لأن حبها له قد تحول الى كره بعد ظهور خيانته

وبعد تحديث طويل وهو ساكت ملت سكوته ، فقالت : « ما بالك يا ركن الدين ؟ لعلك سررت بذهاب شوكارمن يدك كما سررت بذهاب الدولة منى ؟ وكلاهما من فعل ذلك الخليفة الخليع ؟ ! »

فعظم عليه ذلك التعبير الجرىء عن الخليفة فقال لها : « وأى خليفة تعنين ؟ »

قالت : « أعنى المستعصم ، صاحب بغداد ، الذى استعظم أن يتولى أمر المسلمين امرأة ولم يستعظم أن يتولاه رجل ساقط الهمة ضعيف الرأى مشتغل باللهو والقيان وسماع الغناء » . قالت ذلك وقد بان الغضب فى عينيها وتاقت نفسها الى معرفة وقع هذا القول فى نفس ركن الدين ، فوجدته لم يزدد الا اطراقا وسكوتا

ولو أوتيت قراءة الافكار لعلمت ان سكوت ذلك الامير أدل على غضبه من الكلام وأنفذ لغرضه من السهام . وقد تنازعته عوامل كثيرة كل واحد منها يقيمه ويقعده ، وقامت فى نفسه أمور لو اطلعت عليها شجرة الدر لشفى غليلها وخفت نقمتها ، لأنها كانت تستحثه على المسير ذراعا وهو يريد أن يمشى ميلا أو فرسخا

فلما رأته ما زال ساكتا اشكل عليها أمره فقالت : « تكلم يا ركن الدين ، تكلم ، لقد ضاق صدرى من سكوتك . لعلك لم تصدق قولى ؟ تمهل انى سآتيك برجل يعرف هذا الخليفة حق المعرفة ، وقد جاء من بغداد أمس ، اسأله ينبئك عن أفعال ذلك الخليع . اجلس وأنا أبعث اليه الساعة »

فقعد وهو يلاعب شاربيه ولحيته بيده ويوشك أن يقتلع شعرهما بأنامله من فرط التأثر وهو لايشعر . وبعد قليل دخل البغدادى ، وحالما رآه ركن الدين عرفه وناداه قائلا : « سحبان »

فصاحت شجرة الدر : « قد أنطقك الله بعد طول السكوت ، الحمد لله . الفضل فى ذلك لسحبان ــ حفظه الله ــ قل يا سحبان ، ما الذى تعرفه عن المستعصم صاحب بغداد ؟ ولا تخف من التصريح فان ركن الدين صديقنا ، قل ما قلته لى البارحة »

□

وكان سحبان قد عاد من المهمة التى بعثته فيها سلافة وقضاها كما تريد ، فلما جاءها وقص عليها ما فعله لم يجد منها أقبالا ، ثم لحظ تردد عز الدين عليها ورأى الجفاء منه أيضا فتحول حبه لسلافة الى بغض ، ونقم عليها وعلى عز الدين . وهو ناقم على تلك الدولة برمتها لأنه شيعى من أهل بغداد ، وقد برحها فرارا من ظلم العباسيين واضطهادهم الشيعة بحيث لم يعد فى امكانه الصبر على الضيم هناك ، فجاء القاهرة منذ بضعة أعوام ، واجتمع بمن فيها من الشيعة ، فتشاكوا فيما بينهم وهم صابرون مرتقبون سنوح الفرصة لعلهم يستطيعون أن يستعيدوا الامر للعلويين كما حدث فى أيام الفاطميين . وكان سحبان ذا ثروة وتجارة واسعة ، وقد أحب سلافة فكلفته بتلك المهمة ، فلما عاد شق عليه تغيرها ، ولم يجد خيرا من أن يثير غضب شجرة الدر عليها وعلى العباسيين وعلى سلطانهم بمصر جملة ، وهو يعلم انها قريبة الاصغاء اليه لما هى فيه بسبب زوال منصبها وخيانة عز الدين لهـا . فقابلهـا بصفة تاجر ، وكانت تعرفه كما تعرفه سلافة ، وأظهر انه قادم من بغداد بسلع جديدة تليق بها ، وتطرق فى الحديث حتى هاجها على الخليفة ، وأكد لها خيانة عز الدين ، فكتمت ذلك حتى جاء ركن الدين فقصت عليه ما عرفته ، ولأجل التثبت استقدمت سحبان ، فلما رآه ركن الدين بش له ودعاه الى الجلوس ، فقالت شجرة الدر وهى تضحك : « كيف فارقت أمير المؤمنين يا سحبان ؟ »

فقال : « فارقت رجلا لاهم له الا سماع الغناء والاشتغال بالطعام والشراب والنساء »

قالت : « وكيف ترى دولته ؟ »

قال : « انى أخاف على دولته من أهلها ، ان لم أخف عليها من

المغول ، فانهم أوشكوا أن يحملوا عليها والناس خائفون . أما الخليفة فلا يهمه غير الطرب واللهو ، واذا ظل على هذه الحال فالدولة ذاهبة لا محالة »

فضحك ركن الدين وقال : « هل تذهب دولة العباسيين ؟ .. قد سمعت أصحاب الاخبار يؤكدون انها تبقى أبد الدهر ولا يمكن أن تخلو الارض منها »

قال : « لكن الواقع انها ذاهبة لا محالة »

قال : « وهل تخلو الدنيا من خلافة ؟ »

قال : « كلا يا مولاي »

قال : « فمن أين نأتي بالخليفة ؟ ومن يثبت سلاطيننا على مصر ؟ »

قال : « الا يصح التثبيت الا اذا كان من العراق ؟ ألا يصح أن يكون من مصر ؟ ألم تكن مصر هذه خلافة زاهية منذ أقل من مائة سنة ؟ ألم تكن أحسن حالا وأوسع جاها ؟ و ... »

فلم يصبر عليه ركن الدين حتى يتم كلامه فقال له : « أظنك تعني دولة الفاطميين ولكن أولئك من الشيعة »

فقال : « وما ضر انهم شيعة ؟ أليسوا مسلمين من قريش ؟ وانما الفرق أن الخلافة يكون مركزها في هذه البلاد فيزداد عمرانها وتتسع تجارتها وتعمر أساطيلها وتمتد فتوحها وتصير العراق امارة من اماراتها بدلا من أن تكون صاحبة الإمر عليها »

وكان سحبان يتكلم وركن الدين شاخص اليه مستغرق في تتبع كلامه ليستطلع حقيقة مايكنه ضميره ، وهو يعلم غرض الشيعة ، فصدق من كلامه ما يوافق غرضه ، ولم يبد ملاحظة ولا صرح بما جال في خاطره وما زاد على قوله : « لقد أفدتنا ياسحبان جزاك الله خيرا » . ونهض يريد الانصراف ، فنهض سحبان واستأذن وانصرف ، وقد أدهشه سكوت ركن الدين وتكتمه ، وقال في نفسه : « انه رجل لايؤمن جانبه »

أما شجرة الدر فلم تكن أقل دهشة من سحبان ، فلما خرج قالت : « يا ركن الدين قد آن لك أن تتكلم ، ولا أزيدك شيئا على ما سمعته عن تضعضع العباسيين في بغداد ولا عن حال السلطنة المصرية ، فان سلطانها غلام سنه ثمان سنوات ، والحكومة كلها في يد الوصي عليه عز الدين » . قالت ذلك وهي تتميز من الغيظ

قال : « أراك غاضبة على عزالدين ، لعلك غضبت لأنه سمح بارسال شوكار الى الخليفة لتكون عنده في جلة المغنيات

قالت : « نعم ، هذا هو سبب غضبى الرئيسى ، ولى على عز الدين امور أخرى تخصنى »

فقال : « وهل ذهبت شوكار راضية ؟ »

قالت : « كلا ، انها ودعتنى باكية وهى تذكر ركن الدين ، وأوصتنى أن أقول لك انها باقية على حبك لا ترضى عنك بديلا ولو كان الخليفة نفسه ، وأنا أكدت لها انك لن تتخلى عنها . ان البطل ركن الدين سيكون ركنا قويا لنا ، أعنى أنا وهى ، لأنى أصبحت الآن وحيدة ، وهذا عز الدين قد شغل بسواى وبمنصبه ونسى الصداقة . ولكن لا بأس ليكن كما يشاء والله مع الصابرين »

فقال ركن الدين : « اذن شوكار ما زالت على حبها لى ؟ »

قالت : « نعم ، ولا شك عندى انك ستتفانى فى سبيل انقاذها والانتقام لها . لكن قل لى ما رأيك فيما ذكره سحبان من حيث الخلافة الفاطمية ؟ »

قال : « لم يعجبنى قوله . ان الرجل يطلب خلافة شيعية ، وهذا لايصح ولا يليق بنا . ولكننى لم أجبه سلبا ولا ايجابا . ولا أقول شيئا الآن على كل حال بل أترك ذلك الى حينه والامور مرهونة بأوقاتها . استأذنك يا سيدتى » . قال ذلك ونهض خارجا فشيعته شجرة الدر قائلة : « فى حراسة الله »



ركن الدين

خرج ركن الدين من بين يدى شجرة الدر مخلفاً أثرا عميقا فى قلبها . رأت منه فى ذلك الموقف ما لم تره من قبل ، وعظم أمره فى نظرها ، وقد زادها تهيبا منه تكتمه ما يجول بخاطره ، فما هدد ولا توعد ولا نقم ، ولكنها كانت تقرأ ذلك كله على أساريره وفى عينيه

أما هو فسار توا الى غرفته فى القلعة ، ولم ينبه أحدا الى مجيئه ، وأجل مقابلة الامير عز الدين الى الغد . دخل غرفته وأقفل بابها وأخذ فى نزع ثيابه وهو غارق فى التفكير فيما سمعه فى ذلك اليوم من الامور الغريبة ، وهو لايزال فى مقتبل العمر قليل الاختبار . وتلك أول مرة انتبه فيها الى مطامع الرجال الكبارعلى اثر ما سمعه عن قلب السلطنة بمصر ، وما هى عليه الخلافة فى بغداد ، ولم يفته غرض سحبان من تقبيح الخلافة العباسية وتحسين الخلافة الفاطمية ، ولا غاب عنه قصد شجرة الدر من المبالغة فى سيئات المستعصم والتحريض عليه ، وأدرك ما فى نفسها من النقمة على عزالدين ، وانها اذا أرادت فوز ركن الدين فانما تريده انتقاما من الذين أساءوا اليها . مر كل ذلك فى خاطره وهو يبدل ثيابه ، ثم قعد على فراشه وهو لايزال فى التفكير ، فرسخ فى ذهنه ان شجرة الدر وسحبان انما حرضاه على طلب السيادة لاحبا فيه بل انتقاما لنفسيهما . ولم يكره ذلك ولارآه غريبا ولاعده خداعا ، لأنه كان عاقلا حكيما ينظر الى الامور من حيث حقيقتها ، فلم يكن يرجو من سحبان مساعدة ليس له من ورائها مصلحة ، لعلمه أن الناس لايأتون عملا بلا قصد ، ولا يقدمون على أمر ان لم يتوسموا من ورائه نفعا لهم . ومن زعم انه يفعل الخير مجانا لكى ينفع الآخرين فقد أخطأ وكذب . فاذا علمنا هذه الحقيقة سهل علينا أن نعامل أصدقاءنا معاملة حقة ، فلا نتوقع منهم فوق المستطاع ، ولا نستقبح منهم أن ينظروا الى مصلحتهم فيما يخدمون به مصلحتنا

كان ركن الدين على بينة من هذه الحقائق ، وأدرك غرض صاحبيه من ذلك التحريض ، فقبله شاكرا ، وعزم على الانتفاع به ، لكنه فضل كتمان مقاصده الى حين الحاجة . فلما قعد على فراشه وهو وحيد

فى تلك الغرفة طفق يحدث نفسه قائلا : « أخذوا شوكار منى . أخذها الخليفة اليه فى بغداد ليسمع غناءها ، وهى نعمة قل من ينالها من الجوارى الحسان . أرادت شجرة الدر أن تهيج غضبى على المستعصم لأنه فعل ذلك ، وهل يلام لأنه طلبها وقد رفع قدرها وزادها نعما ؟ . لايحق لى ان أنقم عليه أو أعد عمله اساءة لى لأنه لم يتعمد أخذ شوكار وهو يعلم انها خطيبتى أو امرأتى . وقد يقال ان هذا الخليفة ضعيف أو محب للهو ، يجب قتله أو خلعه لأجل ذلك ، وهذا معقول ، ولكن من يضمن أن خلفه لايكون أكثر ضعفا منه ؟ ومن يخاطر بنفسه فى خلعه أو قتله وهو لايرجو أن ينال حظا لنفسه من السيادة ؟ . وقد أضحكنى ما رأى ذلك الشيعى من احياء الدولة الفاطمية أوغيرها من العلويين بمصر . وما الفائدة لنا من احيائها ؟. متى صارت مصرخلافة لايبقى مجال لطلاب السلطنة ، أى لايبقى حاجة الى السلاطين . أما أذا بقيت الخلافة العباسية فى بغداد تثبت السلاطين فى مصر ، فان سلطان مصر يشبه أن يكون مستقلا ، غيرأن ذلك لايمنع مجاراة الرجل ومصانعته لعل فى سعيه نفعا يأتى عن غير قصد منه . واذا لم ننجح فلا خسارة من مسايرته »

ولما بلغ الى ذكر سلطنة مصرنهض من الفراش وقد هاجت مطامعه ، وتمشى فى الغرفة لحظة وهو مطرق ، ثم قال : « سلطنة مصر ؟ انها أفضل من خلافة بغداد . هل أطمع فيها أنا ؟ نعم ، ولكن لو قلت ذلك للناس لاستجهلونى . وقد أكون مبالغا فى مطامعى ولكن يجب أن أسعى منذ الآن . احذر يا ركن الدين أن تجعل أحدا يشعر بذلك »

وسمع وقع حوافر جواد مار أمام غرفته فانتبه لنفسه وتذكر سفر شوكار فقال : « هل أتغافل عن شوكار لا أطلبها ؟. انى أحبها ، وأن كان ذلك الحب جاءنى فى أول الامر تكلفا لكنه تمكن من قلبى ، ويكفى انها تحبنى وتتوقع منى انقاذها . هذا اذا ظلت هى على ودادى بعد دخولها قصر الخليفة »

□

كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، فاعتزم أن يقضى بقية يومه مستريحا ، على أن يبكر فى الصباح ليقابل عز الدين ثم السلطان الجديد لتهنئته بما ناله ، وانتظار ما يفعله . فتناول العشاء واستراح قليلا فلم يشعر بحاجة الى الرقاد لعظم ما جاش فى صدره واستولى عليه الارق

فلما أسدل الليل نقابه تزمل بعباءته وخرج يتمشى فى فناء القلعة

نحو الجبل ، والجو صاح والقمر قد تكبد السماء ، وظهرت الطبيعة بأبهى ما يكون من الجلال والهيبة ، ويحلو للمفكر فى مثل تلك الليلة أن يقف على جبل أو فى واد أو حديقة يناجي نفسه بهدوء وسكينة كأنه يعهد فى سره الى القمر أو يخاطب الطبيعة ويباحثها

وقد علمت ما كان فيه ركن الدين من الهواجس على أثر ما تزاحم فى أفكاره من الأماني والمطامع . فسار وهو ملتف بالعباءة فلم يعترضه الحرس ، وتسلق الجبل فى ضوء القمر حتى بلغ الى سطحه ، فوقف والتفت الى القاهرة وما بها من الحدائق ، ووراءها النيل ، ينعكس ضوء القمر على مائه ، ووراء ذلك الاهرام وقممها تناطح السحاب ، وحولها بساتين النخيل والجميز لايظهر منها الا أشباحها كالظلال ، فقعد على صخرة وراءها بناء خرب أصله مسجد أو قلعة ، ولبث هادئا ساكتا كأنه يتأمل مناظر الطبيعة ، وأفكاره تنتقل به من موضوع الى موضوع ، ونصب عينيه شوكار وأين هى ؟ ويعترض تفكيره فيها مطامعه فى السلطنة وهل ينالها ؟ وضوء القمر يكبر أشباح الفكر فتتعاظم الاوهام حتى تظهر كالحقيقة

وبينما هو ساكت مطرق اذ سمع حفيفا يشبه انسياب الثعبان على التراب فلم يخفه ذلك ، لكنه تنبه الى انفراده واستغراقه فى هواجسه ، فهم بالنهوض واذا هو يسمع قهقهة على مقربة منه ، فالتفت فلم ير أحدا ، فأوشك أن يتوهم ذلك الصوت من أصوات الجان ـ وكانت هذه الخرافات رائجة فى تلك الايام ـ لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام وراء تلك الخربة من الجهة الاخرى ، فسكت لاخوفا ولا تلصصا ، لكنه لم يكن يريد أن يشعر أحد بخروجه فى تلك الليلة من القلعة

وأصاخ بسمعه فاستنتج من مجمل ما سمعه ان هناك أناسا يتسامرون ، فساقه حب الاستطلاع الى التسمع ، وإن يكن ذلك مخالفا لما فطر عليه من البسالة والانفة ، لكن حب الاطلاع على المخبآت من جملة طبائع الانسان وهو لم يسع الى التجسس وانما سيق اليه مصادفة

وقد زاده رغبة فى التسمع انه سمع صوتا يشبه صوت سحبان ، وهو حديث العهد بسماعه فى ذلك اليوم . سمع ذلك الرجل يقول لمخاطبه : « ان سلافة هذه قد أدهشتني بدهائها ومكرها »

فأجابه الآخر : « أظنك تعنى قيمة قصر الملك الصالح .. هل هى من دهاة النساء ؟ »

فقال سحبان : « مهما قلت فيها لايمكن أن تحيط بوصفها ، أما أنا

فقد خبرتها بنفسي . أرأيت هذا الانقلاب الذي جرى أمس والتبديل الذي حصل في السلاطين ؟ أرأيت خلع شجرة الدر وتنصيب الملك الاشرف ؟ انها هي وحدها السبب في ذلك كله »

فقال الآخر : « هذه مبالغة منك ياسيدي . كيف يتأتى لها ذلك وهي هنا والخليفة في بغداد؟ . لعلك توهمت هذا فيها لما رأيت عزالدين ايبك يتردد عليها حتى أفسدت ما بينه وبين شجرة الدر ولكن هذا »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « أنا أقول لك عن ثقة ، ان سلافة وهي في القاهرة قلبت الحكومة وبدلت السلاطين» . فقال : « وكيف ذلك؟ » قال : « يظهر ان نفوذها هناك عظيم جدا وان كلامها مسموع في قصور الخلافة »

فقاطعه الآخر قائلا : « صدقت لأنها هي في الاصل من جواري ذلك الخليفة وقد أهديت للملك الصالح ، ولكن قد يكون في قولك مبالغة »

قال سحبان : « اني أقول لك شيئا خبرته بنفسي » . وخفت صوته وقال : « أنا أخذت كتابها بيدي الى بغداد ، فلم يكن الا مسافة الطريق حتى جاء الجواب بخلع شجرة الدر »

فضحك الرجل وقال : « ما الذي أدخلك في هذه المهمة ؟ وما هو شأنك مع هؤلاء الاتراك يا سحبان »

قال : « لايهمك أن تعرف تفصيل ذلك ، ولكني وجدت هذه المهمة قد تساعدنا في مشروعنا ، وكنت أحسب خلع شجرة الدر على هذه الصورة يفضي الى ثورة تهيىء لنا الاسباب المعلومة »

فلما سمع ركن الدين هذا الحديث رأى فيه فائدة له فاغتفر لنفسه تنصته ، ومكث لسماع بقيته ، فسمع رجلا آخر يقول : « لقد أسأت ياسيدي بأداء هذه المهمة ، فانك أخرجت الدولة من يد امرأة ضعيفة الى يد رجل شديد ، فلا يلبث أن يخلع ذلك السلطان الغلام ويقبض هو على الدولة بيد من حديد والحقيقة على ما أرى انك قمت بهذه الخدمة طمعا في رضا سلافة .. انها في الحقيقة بارعة الجمال »

قال سحبان : « صدقت ، انها لجميلة ، وربما خطر لي أن أنال رضاها ، لكن المهمة في أصلها خدمة للغرض المعلوم » .

فقال الآخر : « وهل نلت ما كنت تؤمله من رضاها ؟ »

قال : « لا أدري ، ان هذه المرأة سر من الاسرار أو هي لغز معمى لا يمكن حله ، يلوح لي انها بلا قلب ، أو هي ذات خلق خاص ، أعترف

لكم انى كدت أنال رضاها ورأيت من تقربها وتلطفها ما أكد لى حبها ؛ ثم ما لبثت أن رأيتها وقد تغيرت بعد رجوعى من بغداد إذ اختصت الامير عز الدين بحبها ، وقد ملكت قلبه ولبه حتى شعرت شجرة الدر بذلك وغضبت عليه ، لكن هذه أصبحت بعد خروج الملك من يدها لا تستطيع غير العتاب والشكوى »

فتصدى رجل للسؤال قائلا : « كل ما تقوله صحيح ، وأزيد عليه ان السبب فى اهتمام المرأة بخلع شجرة الدر وتنصيب غيرها ليس الا غيرة منها ، لأن شجرة الدر صارت ملكة ، وهى تحسب نفسها أحق منها بذلك لأنها كردية من قبيلة الملك الصالح ، ففعلت ما فعلته انتقاما ، وليس فيه شىء من الدهاء لأنها نقلت الدولة الى يد أخرى ، واذا صدقنا انها فعلت ذلك بدهائها ، فما الذى عاد عليها من هذا العمل ؟ . ثم انى لم أفهم كيف توصل الخليفة فى بغداد الى خبر شوكار المغنية حتى يطلبها ؟ »

فقال سحبان : « هى التى أوعزت اليه بأن يطلبها نكاية فى شجرة الدر لأنها مغنيتها »

فلما سمع ركن الدين اسم شوكار خفق قلبه وزاد ميلا الى السماع ، وحمد الله على تلك المصادفة التى أسمعته هذا الحديث وهو فى أشد الحاجة الى معرفته لأنه كان غائبا عن مصر فى أثناء تلك الحوادث فأنصت فسمع رجلا يقول : « وهذا لا شىء فيه من الدهاء لأن شجرة الدر يمكنها الاستعاضة عن شوكار بعشرات مثلها ، ولكن السر الحقيقى فى نجاح هذه المرأة أن لها صداقة متينة مع قيمة قصر المستعصم ، ولها عليها حقوق مختلفة ، فكتبت اليها بما رأته ، وتلك صاحبة النفوذ هناك فأنفذته . دعنا منها انها امرأة متلونة منافقة والسلام »

فضحك سحبان وقال : « صدقت انها منافقة لأنها خدعتنى ، وأظنها ستخدع سواى ، ولكن لا شك أنها صاحبة نفوذ عظيم فى قصر الخليفة . . ما لنا ولها . . هيا بنا »

فقال آخر : « لا تطاوعنى قدماى على الابتعاد عن ضوء القمر الجميل ، ولكن قد آن وقت الرقاد فلا حول ولا . . »

وسمع ركن الدين وقع خطواتهم وهم خارجون من تلك الخربة ، فانزوى ريثما ابتعدوا ، وعاد الى التفكير فيما سمعه عن سلافة وعن سر الانقلاب الذى جرى ، فانجلت له أمور كثيرة يؤمل الانتفاع بها .

عاد الى غرفته يطلب الرقاد وقد أنهكه التفكير فى هذه الامور ، فتوسد الفراش على أن ينهض فى الصباح لمقابلة الملك الاشرف وعز الدين مدبر المملكة . فلما أصبح لبس ثيابه وذهب الى الايوان

فلقى عز الدين ، فاخبره أنه وصل امس لكن التعب منعه من القيام بهذا الواجب ، فقدمه عز الدين الى الملك الاشرف ، فقص عليهما نتيجة مهمته فى دمياط وقد انتهت باخراج الافرنج من هناك بشروط موافقة

فأثنى عز الدين على همتــه وبسالته ووعده بالمكافأة ، فشكر له تلطفه ، ولم ير فيه ما كان يعلمه من غيرته منه ، أو لعله أحس بذلك بسبب ما خامره من المطامع وما سمعه من الأقوال ، وعلى كل حال فانه بالغ فى الكتمان ولبث يتوقع سنوح الفرص

□

ثم عاد الى التفكير فى شوكار وهو لا يدرى هل يبحث عنها أو ينتظر ريثما يتأكد بقاءها على حبه لأنه كان كثير الشك فى ذلك لما ستلاقيه فى قصر الخليفة من النعم . ولم يكن من ذوى العواطف القوية الذين يضحون بمصالحهم المادية فى سبيل الحب ، ولكنه كان قوى العقل كبير المطامع ، ويغلب فى أمثاله أن ينظروا الى كل شيء من الناحية التى تنيلهم مطامعهم ، ولذلك لم يصدق أن شوكار ستبقى على وده بعــد ذلك الانتقال ، على أنه كان يشعر بميل شديد اليها وعطف عظيم عليها ، وكان يعزيه أنها هنــاك فى نعيم لا خوف عليها من الاهانة ولا يمس شرفها بما يبعث على غيرته لأنها جارية مغنية فقط . قضى برهة وهو يفكر فيما يعمل : أيسافر الى بغداد للبحث عنها أم يبعث أحدا فى طلبها ؟ وشغل أيضا بمهام منصبه ، لكنه لم يستطع الصبر على الفراق ، وهو لا يعلم ما يكون من حال شوكار هناك

فأصبح ذات يوم وقلبه قلق على شوكار ، وقد رآها فى نومه على غير ما يريد . وهو غير قادر على السفر اليها ، فخطر له أن يكلف سحبان بذلك ، وأن يطمئنه ويظهر له المسايرة فى رأيه . فبعث اليه فجاءه وهو مستبشر طمعا فيما يرجوه ، فلما لقيه قال ركن الدين : « صدقت يا سحبان ، ان هؤلاء القوم لا يصلحون للخلافة وهم فى هذا الفسـاد »

قال : « ألم أقل ذلك يا سيدى ؟ »

قال : « نعم وأنا أعرفه ، وقد خبرته بالأمس مما فعلوه معى .. لا أعلم اذا كنت قد سمعت بأخذهم شوكار »

قال : « كيف لا ؟. سمعت ، نعم سمعت ، وهذا لا يفعله الخلفاء العلويون و .. »

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : « ولكن هل تعلم من هى شوكار ؟ »

قال : « نعم انها جارية شجرة الدر ومغنيتها »

قال : « وهي فوق ذلك خطيبتي .. »

فأظهر الدهشة وقال : « خطيبتك ! وأخذوها منك ؟. يا لله من هؤلاء القوم الظالمين ؟ »

قال : « لم يأخذوها وهم عالمون بذلك .. مالنا ولهم ، وانما يهمني الآن أن أعرف حال شوكار هناك ، وأنا لا أقدر على السفر ، وأنت تسافر دائما فى تجارتك ، فهل تقضي هذه المهمة لصاحبك ركن الدين ؟ »

فاستأنس سحبان بذلك التلطف وقال : « أقضيها على الرأس والعين ، وأسافر فى الغد لأجلها .. قبحهم الله .. انهم مضيعون هذا الملك عن قريب »

فقال ركن الدين : « أشكر لك سعيك يا سحبان ، والايام بيننا »

فقال : « ان خدمتك يا مولاى واجبة على .. انى مسافر غدا ولا أسألك عما تطلبه فانى أعرف كل شيء ، كن فى راحة » . قال ذلك وخرج بعد أن ودع

وعاد ركن الدين الى شؤونه وقد اطمأن باله نوعا ، وصبر نفسه ريثما تنقضي المدة اللازمة لذهاب سحبان الى بغداد ورجوعه منها ، وهى أكثر من شهر . لكن لم يمض أسبوعان على سفر سحبان حتى جاءه رسول بكتاب من بغداد وصل فى المساء فلم يصبر على تبليغ رسالته الى الصباح . وكان ركن الدين فى تلك الليلة عند شجرة الدر وقد أكثر من تردداه اليها ليسليها على ما أصابها من الوحشة بعد وقوع الفتور بينهـا وبين عز الدين ، ولم يدر أن تردداه يزيد تلك الوحشة

كان تلك الليلة عند شجرة الدر وجاء الحاجب وقال : « ان بالباب رسولا يحمل كتابا الى الامير ركن الدين ولا يريد أن يسلمه الا بيده »

فقال ركن الدين : « ليدخل » ولم يطاوعه قلبه على الصبر ، فوثب كالسهم حتى لقى الرسول وصاح فيه : « ما وراءك ؟ »

فقال : « وهل الذى يكلمني الامير ركن الدين بيبرس ؟ » . قال : « نعم ، من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ »

قال : « أنا رسول الى الامير من فتاة تريد أن يصل كتابها اليه سرا » . فخفق قلبه وقال : « هاته » . فمد الرجل يده الى جيبه وأخرج الكتاب ودفعه اليه ، فتناول ركن الدين الكتاب ودخل الى القاعة وأخذ يقرؤه ، وشجرة الدر تنظر اليه وتراقب حركاته وما يبدو فى وجهه من التغير . ولم يفرغ من قراءته حتى بلغ الغضب منه مبلغا

عظيما ، وشجرة الدر قلبها يخفق وعيناها شاخصتان اليه . فلما فرغ من تلاوة الكتاب صاحت فيه : « ماذا قرأت ؟ ماذا جرى ؟ »

فرمى الكتاب اليها ، فتناولته وقرأته فاذا فيه :

« من المسكينة شوكار الى سيدها وحبيبها ركن الدين . اختطفونى من بين ذراعى شجرة الدر وأنت غائب ، ولم تجد مولاتى حيلة لاستبقائى حتى حضورك . فبرحت القاهرة وقلبى فيها ، ولم أزل منذ برحتها وأنا أندب حياتى لا أجد لى سلوى برغم ما كان يبذله صاحب الركب من أسباب الراحة لى . وهم يستغربون البكاء من جارية طلبها أمير المؤمنين لتكون فى مجلسه ، على أنى ما لبثت أن وجدت بكائى كان فى محله لأنى حين أشرفت على بغداد تغيرت حالى اذ أسلمونى الى قوم جاءوا من قصر الخليفة وكنت أحسبهم جاءوا ليستقبلونى ، وعزمت على أن أطلب اليهم أن يعيدونى الى مصر أو أوسط أحدا للخليفة ليأمر بارجاعى بعد أن أقص عليه خبرى . لكننى لم أكد أقع فى أيديهم حتى عاملونى معاملة الاسيرة ، وساقونى الى حيث لا أدرى . هذا وقد كان فى الركب الذى حملنى من مصر الخصى عابد البصرى حامل هذا الكتاب اليك . وكنت قد استأنست به وأحسست بعطفه على فاغتنمت فرصة كتبت فيها هذا الكتاب على عجل ورجوته أن يوصله اليك . فأكرمه ما استطعت ، وأستودعك الله ، ولا أظننا نلتقى فى هذه الدنيا ، وقد ختمت هذا الكتاب بدموعى »

وكانت شجرة الدر تقرأ وركن الدين يخاطب حامل الكتاب وسأله : « ماذا تعرف من التفاصيل ؟ »

فقال : « لا أدرى ياسيدى سوى انى كنت فى خدمة الركب الذى أتى بكتاب الخليفة ، ولما عاد ومعه هذه الجارية رأيت فيها لطفا ، وكنت أنا المكلف بخدمتها . والمفهوم بيننا أنها محمولة الى أمير المؤمنين لتكون مغنية فى قصره ، وكنا نبذل جهدنا فى خدمتها وراحتها ، فلما وصلنا الى ضواحى بغداد جاءنا وفد من الجند قالوا انهم قادمون من قصر الخليفة ، وطلبوا الينا أن نسلمهم شوكار ، فلم يسعنا الا الطاعة ، لكننا لحظنا انهم ذاهبون بها الى غير قصر الخليفة ، فأشفقت عليها وأخذت فى تعزيتها وسألتها عما تريد أن أصنعه فقالت : (لا أريد شيئا سوى أن توصل هذا الكتاب الى الامير ركن الدين ، وتسلمه اليه بيده ، وقد فعلت) . . »

فقال : « وأين هى الآن ؟ وماذا تظن انهم يفعلون بها ؟ وما غرضهم من أخذها على هذه الصورة وهى لا تعرفهم ولا علاقة لها بهم ؟ »

قال : « لا أدرى يا سيدى ، وأنا أيضا مستغرب هذه المعاملة »

فأطرق ركن الدين ، وأخذ يفكر فيما عسى أن يكون سبب ذلك فلم يوفق الى رأى فقال : « والآن يا عابد اذا دفعت اليك كتابا هل توصله اليها ؟ وأين تجدها ؟ »

قال : « أبحث عنها جهـدى ، ولا أنفك حتى أجدها وأكون طوع ارادتها فيما تريده وأفديها بروحى .. انها يا مولاى تفدى بالروح للطفها وأدبها »

فأثنى ركن الدين على مروءته وقال : « تعال فى صباح الغد فأدفع اليك بالكتاب . تجدنى فى غرفتى بالقلعة ، هل تعرفها ؟ » . فأجاب باحناء الرأس أن « نعم » وانصرف

□

وقف ركن الدين مطرقا وقد أخذته الدهشة ، ثم انتبه لشجرة الدر فتحول نحوها فرآها قد فرغت من تلاوة الكتاب وتغير وجهها وظهرت أمارات الغضب فى عينيها ، فلما التفت بيبرس اليها بادرته قائلة : « تلك هى أعمال الخلفاء الذين لم يعجبهم أن تتولى السلطنة امرأة ! هذا المستعصم أمير المؤمنين . ووالله لو ان امرأة سليطة تولت هذا الملك لدبرته أحسن من تدبيره ، شغل نفسه بالغناء واللهو ، ثم يأخذ نساءنا من بين أيدينا ونحن صابرون ! »

فأدرك ركن الدين أنهـا تستثير غيرته على شـوكار للانتقـام من المستعصم فقال : « ولكن ما أصاب شوكار ليس من المستعصم »

قالت : « ممن اذن ؟ ألم يكن هو الذى بعث فى طلبها اليه . وهب أن الذين اختطفوها الآن لم يفعلوا ذلك بأمر الخليفة ، ألا يدل وقوع ذلك على ضعف الرجل وقلة هيبته حتى يجرؤ الناس على اختطاف مغنية آتية اليه فى موكب حافل ؟ على اننى أضع أكثر الحق على »

فقطع كلامها قائلا : « الحق كله على عز الدين ، هذه هى الحقيقة ، ولو شاء هو لاحتال فى استبقاء شوكار »

فقالت : « صدقت ، وهذا هو رأيى . لا أدرى ما غير هذا الامير ؟ ان مطامع الدنيا تغير الناس . طمع عز الدين فى السلطنة فضحى كل شىء فى سبيلها ، ضحى أصدقاءه وخلانه و . . . » . وغصت بريقها وسكتت

لم يكن ركن الدين يجهل ما فى خاطر شجرة الدر على حبيبها من الغيرة والنقمة ، فأراد أن يخالفها لاكتشاف ما يكنه ضميرها فقال : « لا أظنه فعل ما فعله طمعا فى الملك لأنه كان فى نفس هـذا المنصب

وأنت سلطانة . بل كان معك أقرب الى السيادة والنفوذ منه الآن ، ويظهر أنه لم ير بدا من اطاعة أمر الخليفة فيما يتعلق بشوكار »

فضحكت ضحكة اغتصابية وقد امتقع لونها من شدة التألم والغضب وقالت : « لعله أطاع بذلك غير أمر الخليفة » . وبلعت ريقها وتشاغلت بمنديلها تمسح به فمها وجبينها

فلحظ ركن الدين أنها تعنى سلافة فقال : « وهل تلومينه لأنه يبحث عن مصلحته ؟ ليس فى الدنيا احد لا . . »

فقطعت كلامه قائلة : « كلا . لا ألومه لذلك ، ولكننى ألوم غيره لأنه لا ينظر الى مصلحته أيضا ، ان هذا الامير ضحى بشوكار وركن الدين وشجرة الدر فى سبيل مطامعه ولم يبال ، ونحن ما زلنا نحافظ على عهده ونلتمس وده » . وتزحزحت من مجلسها وفى ملامح وجهها أنها لم تتم حديثها بعد

فأراد ركن الدين أن يستزيدها بيانا فقال : « أنا ناقم على هذا الامير كما تعلمين ، لكننى لا أراه يستحق هذا الغضب منك . لأن ما جرى لك ولشوكار لم يكن هو فاعله ، ولم ينل من فعله شيئا جديدا لم يكن له وأنت سلطانة »

قالت : « قد أحرجتنى يا ركن الدين ، فأستأذنك فى كشف ما فى قلبى . قد يتبادر الى ذهنك أنى كرهت عز الدين لأنه أحب تلك الجارية الكردية (سلافة) وهى التى ساعدته على ما فعل ، وكنت أحسبها فعلت ذلك حبا فيه ، ولكننى عرفت الآن أنه لم يكن يحبها ، ولكنه خدعها كما خدعنى ، فلما نال مرامه منها تخلى عنها . هل علمت بما عول عليه وأوشك أن يفعله بمشورتها ومساعدتها ؟ » . قال : « كلا » . قالت : « قد عزم عزما أكيدا على أن يستقل بالسلطنة »

قال : « أليس هو مستقلا بها الآن ؟ أليس الملك الاشرف صورة لا معنى لها » . قالت : صحيح ، ولكنه سيخلعه ويطلب من الامراء أن يبايعوه سلطانا بدله »

فهز رأسه هزة الانكار وقال : « هذا لا يكون ، وكيف يتأتى له ذلك والناس يحتجون ؟ انهم لا يخضعون لملك ليس من آل أيوب »

فقالت وهى تضحك ضحك الاستهزاء : « انك ما زلت قليل الاختبار يا ركن الدين ، لكنك لا تلبث أن تعلم أن هؤلاء القوم لا رأى لهم ولا صوت ، ينقضون اليوم ما قرروه بالأمس . والظاهر أن عز الدين تمكن من اغراء المقربين له وأنت غائب وقبلوا مبايعته ، وبلغنى أنهم اختاروا له أحد ألقاب الخلفاء الفاطميين بمصر وهو (المعز) فهل بعد

ذلك شك ؟ ولعله لو طال مكثك فى دمياط لأمضى هذا الأمر فى غيابك .. او اظنه امضاه من ذلك الحين .. الا تشعر أنه تغير معك عما كان عليه من قبل ؟ »

فثارت الغيرة فى نفس ركن الدين ، وأوشك أن يبوح بما فى خاطره، لكنه تجلد وتماسك . وقد فتح أمامه بعد هذا الحديث باب جديد ، فهو لم يكن بالأمس يتصور أنه يمكن لغير الأيوبيين أن يستقلوا بالسيادة فاذا هو يرى عز الدين استطاع ذلك ووافقه عليه الامراء . فازداد رغبة فى السلطة ، لكنه ما زال حريصا على كتمان ذلك المطمع خوف الفشل عملا بالحديث الشريف : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . لكنه غلب على ظنه بعد أن سمع من حديث القوم عن سلافة فى تلك الليلة أن عز الدين لم يفعل ذلك الا بنفوذها فأراد أن يستطلع رأى شجرة الدر فى ذلك فقال : « ألا تظنين أن لسلافة دخلا فى هذا الأمر ؟ »

قالت : « لا ريب عندى أنها ساعدته فى ذلك نظرا لنسبها الكردى وعلائقها الودية مع بعض الأمراء أصحاب النفوذ من آل أيوب وغيرهم . ولعلها ارتكبت أمورا دنيئة فى هذا السبيل ظنا منها أنها اختطفت عز الدين من شجرة الدر . ولكن خاب ظنها لأن هذا الرجل ليس لأحد منا ، وسوف ترى » . قالت ذلك وابتسمت وعيناها تلمعان

ولحظ ركن الدين فى عينيها معنى لم يكن فيهما من قبل . رأى الغيرة والنقمة والغيظ تتزاحم فيهما ، فقال : « لمن هو اذن يامولاتى؟ »

قالت : « أتريد أن أبوح لك بكل ماأعرفه عن هذا الخائن مرة واحدة ؟ سألتنى لمن هو ؟. فأجيبك انه يزعم أنه لإمرأة ثالثة » . قال : « من هى ؟ » . قالت : « امرأة لا تعرفها ، ليست فى مصر »

فاستغرب قولها وقال : « أظنك تمزحين ؟ » . قالت : « كلا ، انى اقول الصدق ، ان عز الدين يزعم أنه ساع فى خطبة بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل »

قال وقد بدا الاستغراب فى عينيه : « ان صاحب الموصل له مقام رفيع عند الخليفة ، وهل تظنينه يفوز بها ؟ »

وكان التأثر والغضب قد ملكا عليها أمرها ، فقالت وهى تشير بيدها اشارة الانكار : « لا . لا . لن يفوز بها . انه ليس لاحدى هؤلاء النسوة ، بل هو نصيب الرابعة » . وأشارت بيدها اشارة رجل بيده خنجر يطعن به آخر الى جانبه . ففهم ركن الدين انها تنوى قتله ، وتأكد ذلك مما بدا فى عينيها من الاحمرار، فضحك واظهر الاستخفاف بهذا الرأى ، ونهض يريد الانصراف وهو يقول : « لا أظن الامر يبلغ

بك الى هذا الحد ، قد انتصف الليل وآن لى الانصراف ، أستودعك الله »

فصاحت به : « ويلك يا ركن الدين ، تذهب على هذه الصورة وتتركنى على هذه الحالة ؟ ماذا جرى لك ؟ » . قال : « ماذا أصنع يا مولاتى ؟ » . قالت : « قد رأيت من أمرك عجبا . تكلمنا فى أبواب كثيرة وصرحت لك بأمور كثيرة كنت أكتمها عن كل انسان وأنت جامد كالصخر الأصم لا تقول شيئا . . اذا كنت تفعل ذلك عن دهاء فنعم الفعل ، والا فانك صلب بارد . وفى كل حال كنت أتوقع منك أن تقول كلمة عن شوكار المسكينة التى ذهبت ضحية حبك ، وهى تقاسى العذاب ، وقد تفطر قلبى من كتابها . ولو كنت خطيبها لركبت الساعة الى بغداد ولم أرجع الا وأنا منتقمة لها من ذلك الخليفة الظالم الذى لا يهمه الا التمتع بملذاته » . قالت ذلك وهى تتفرس فى عينيه

فكان لكلامها وقع السهام فى قلبه وأوشكت أن تخرجه الى التصريح بما فى ضميره ، لكنه تراجع وتمالك وتشاغل بالضحك وقال : « لله أنت من خطيب غيور شجاع . أما أنا فأظن عندى مثل ذلك . ولكننى سأنظر فيه واعمل ما يسرك وان لم أقل شيئا » . قال ذلك وبرقت عيناه ، وبان الحزم والجد فى جبينه ، فتقدمت اليه ووضعت يدها على كتفه ، وقالت : « هذا عهدى فيك ، وقد فهمت من هذه العبارة كل شىء . واعلم انى فاعلة ما يتمم عملك هنا . . أقتل المستعصم وأنا أقتل عز الدين ، وأنت السلطان صاحب الأمر والنهى »

فتجاهل ما سمعه وقال : « أتأذنين لى فى الانصراف الآن ؟ »

فأشارت اليه مودعة ، فخرج وهو ينتفض من الغضب ، وقد تضاربت الافكار فى خاطره ، ولم يعجبه تصريح شجرة الدر بقتل المستعصم لاعتقاده أن مثل هذا الامر الخطير لا ينجح الا اذا ظل مكتوما فى خاطر صاحبه

□

مشى ركن الدين وقد انتصف الليل وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما حتى أصبح لا يرى طريقه من فرط ما تجاذبه من الهواجس ، وأسرع فى خطاه رغبة فى الاختلاء بغرفته لمناجاة نفسه ، لكنه لم يكد يصل الى باب منزله فى القلعة حتى تصدى له أحد الحراس وحياه ، فرد التحية ومشى ، فتقدم اليه الحارس قائلا : « ان خادما فى انتظارمولاى هنا منذ ساعتين » . وأشار الى رجل واقف بجانبه

والتفت نحوه وقال : « من الرجل ؟ » . وظنه لأول وهلة رسول شوكار جاء يأخذ جوابه اليها ، فاذا هو سواه

فتقدم الرجل ودفع الى ركن الدين كتابا مختوما ، فتناوله وأمر خادمه أن يسرع الي غرفته ويضيء فيها المصباح ففعل

فدخل ركن الدين وحده وفض الكتاب أمام المصباح ، وقد أدهشه ما فاح من رائحة الطيب ، فترجح لديه أنه من امرأة ، فأخذ يقرأ فاذا هو من سلافة جارية الملك الصالح ، فاستغرب ذلك وقرأ فيه : « سلافة جارية الملك الصالح وقيمة قصوره ترغب فى مقابلة الامير ركن الدين بيبرس ساعة وصول كتابها هذا اليه ، وحامل الكتاب يرشده الى المكان »

فوقع فى حيرة ، وتولته الدهشة ، وأخذ يسأل نفسه ماذا عسى أن يكون غرضها من تلك المقابلة وليس بينها وبينه سوى معرفة بسيطة . وتذكر ما سمعه عنها من سحبان ، وما جرى من ذكرها بين يدى شجرة الدر ، وعلاقتها بعز الدين أيبك ، فأصبح شديد الميل الى تعرف هذه المرأة ، ولعل التعرف بها ينفعه فى مشروعه

ورآها تطلب اليه مقابلتها ساعة وصول كتابها فقال فى نفسه : « ما عسى أن يكون سبب هذه السرعة ؟ » . وبرغم ما كان فيه من التعب والقلق عزم على اجابة الدعوة حالا ، فنادى الرسول اليه فدخل فقال له : « هل المكان بعيد من هنا ؟ » . قال : « كلا يا سيدى انه قريب جدا » . قال : « وهل أنت هنا من زمن طويل ؟ » . قال : « منذ نحو ساعتين » . قال : « ولماذا انتظرت كل هذه المدة ؟ » . قال : « لأن مولاتى صاحبة الكتاب أمرتنى الا اعود الا بالجواب »

فازداد ركن الدين دهشة واستغرابا وصمم على الذهاب ، فلبس ثيابه وخرج ، والرسول يمشي بين يديه ، وقد أخذ القلق منه مأخذا عظيما . ومر بباب القلعة فعرفه الحراس ولم يعترضوا سيره

خرج الى القاهرة والطريق مظلم الا من بعض المصابيح بأبواب المنازل ، وما زال ماشيا والرسول معه حتى وصل الى باب كبير وقف الرسول عنده واستوقف الامير ريثما طرق الباب ، ففتحت طاقة فيه واطل منها عبد خصي يسأل عن الطارق فأومأ اليه الرسول فوسع له ولرفيقه ، فدخل ركن الدين الى حديقة مظلمة ، لولا شموع مضيئة لكان الظلام حالكا . على أن ذلك النور الضعيف زاد المكان وحشة لأنه جعل ظلال الاشجار تظهر متكاثفة متلبدة . فلما راى نفسه فى ذلك المكان ندم على مجيئه ، وتوهم أشياء كثيرة بعضها يوجب القلق ، ولكنه تجلد ومشى بقدم ثابتة لايبالى ما قد يتهدده ،

وهو لم يتعود الخوف ، لكنه خاف الفضيحة لعلمه بما بين صاحبة هذا المنزل وعز الدين من العلائق

وكان الرسول قد تقدمه لينبىء بوصوله ، فما كاد ركن الدين يتوسط الحديقة حتى عاد الرسول وأشار اليه أن يتبعه ، فتحول به الى قاعة منفردة قد أضيئت فيها الشموع على منائر فى وسطها ، وفرشت أرضها بالبسط والوسائد ، وأدهشه ما شاهده بين الأثاث من الآنية التى كان يراها فى قصور الملك الصالح قبل هدمها وتخريبها ، وتأكد أن عز الدين جاء سلافة بهذا الرياش ، لأنه هو الذى خرب تلك القصور واستأثر بأنقاضها ورياشها

استقبلته سلافة بباب القاعة وقد لبست أثمن ما عندها من الحلى والثياب ولم تتنقب الا قليلا ، وكان قد تنسم رائحة الطيب قبل أن يراها فلما تلاقت عيناهما زاد ندمه لمجيئه لأنه توهم شركا يخاف الوقوع فيه

أما هى فاستقبلته بالسلام والترحيب قائلة : « قد أزعجناك أيها الامير »

قال : « العفو يا سيدتى ، انى مسرور من هذه الفرصة فعسى أن أستطيع أداء خدمة أو قضاء طلب »

فمدت يدها للسلام عليه فمد يده وصافحها فوجد أناملها باردة كالثلج وفيها رعشة أثرت فيه ، لكنه تشاغل بالثناء على ترحابها ، ثم مشت به وهى قابضة على يده حتى وصلت الى مقعد فى صدر القاعة ، فأشارت اليه أن يجلس فجلس وقد اقشعر بدنه من لمسها ، فأفلتت يده وجلست بين يديه على وسادة ، وهى تنظر اليه وترحب به ، وهو ينتظر أن تفاتحه بما دعته من أجله ، فلم تزد على الترحيب والمؤانسة . فلما أبطأت عليه قال : « جئت طوعا لأمرك ، فهل من خدمة أقضيها لك ؟ »

قالت : « بل أنا فى خدمتك يا ركن الدين ، ولعلك لم تكن عالما بوجودى قبل هذه الليلة ولم أخطر ببالك . وأما أنت فلم تبرح من فكرى لحظة ، وأنا اتتبع خطواتك منذ أعوام » . قالت ذلك واحمرت وجنتاها وبرقت عيناها ، وكانت جميلة فزادها ذلك جمالا

أما ركن الدين فلم تعجبه هذه الفاتحة لأنه فى شاغل عن المغازلة ، وكان يسمع بجمال هذه المرأة ويعرف عنها بعض الشىء فى حياة الملك الصالح ، ولم يكن أمرها يهمه ، ولا سيما فى تلك الليلة وهو فى ذلك الاضطراب . فلما سمع قولها اطرق وقال : « العفو يا مولاتى ، كنت

أسمع بمنزلتك الرفيعة عند مولانا الملك الصالح ، ولـكن الاحوال لم تأذن بالتعارف »

قالت وهى تتظاهر بالخجل والحياء : « هـذا صحيح بالنظر اليك وحدك ، أما أنا فقد عرفتك جيدا ، وطالما راقبت دخولك قصرالروضة وخروجك منه ، وكثيرا ما كنت أسهر الليـل بطوله أنتظـر مرورك فى الحديقة لأراك من وراء الستائر »

فاستغرب ركن الدين هذه المشاكاة وتجاهلها وقال : « ان ذلك فضل منك يا سيدتى ، وأتأسف لأنى لم أكن أعلم به »

فقالت : « ألم تعلمه الآن ؟ أرجو الاغضاء عن جسارتى يا ركن الدين ولا تكن قاسيا »

فلما سمع هـذا التعريض أجفل وأسف لمجيئـه وقال : « العفو يا سيدتى ، لم أكن أتوقع أن أسـمع هـذا وأنا أعلم أن مولانا الامير عز الدين يتردد الى هذا المكان وهو صاحبه »

فتنهدت وقالت : « مولاك ، أو مولاى الامير ، لا يسـتحق هـذه الحظوة . دعه وشأنه ، مالنا وله ؟ »

فظن ركن الدين أنها تريد أن توقعه فى الفخ لتستخدمه فى مهمة لها كما فعلت بسحبان ، فصمم على الرفض وسرعة التخلص فقـال : « ألهذا دعوتنى يا سلافة فى هذا الليل ؟ »

فأجابته وعيناها ذابلتان وقالت : « وهل هذا أمر قليل الأهمية فى نظرك يا حبيبى ؟ »

فنهض وهو يقول : « ليس قليل الأهمية ، ولكننى فى شاغل عنـه الآن يا سيدتى » . وهم بالاستئذان فى الانصراف

فنهضت ووقفت فى طريقه وقالت : « ما الذى يشغلك عنى . لم يبق الآن ما يشغلك يا قاسى القلب ، أين القاهرة من بغداد ؟ »

فأدرك أنها تشير الى شوكار وأخذها الى بغـداد ، فنفرت نفسه منهـا وقال : « ما زلت فى شـاغل ، أرجو يا سـيدتى أن تأذنى فى انصرافى ناشدتك الله »

فأمسكت يديه بكلتا يديها وقالت : « تمهل يا ركن الدين ، لا تسرع فى الرفض وانتبه لنفسك ، واعلم أن سلافة وحدها تقدر أن تنيلك مرامك . مالك وللغناء ؟ أنت فى حاجة الى من يضع يده بيدك ، واذا ألقيت الوقود فى النار نفخ فيها وأشعلها حتى ينضج الطعام » . ونظرت فى عينيه وابتسمت . فعلم انها تشير الى تفضيل نفسها على شوكار فقال : « بالله دعينى أنصرف لأنى فى شاغل ذى بال »

قالت : « أنا أعلم بشواغلك ، أما شوكار فلا سبيل اليها أبدا و . . »

فلما سمع تصريحها فجأة اجتذب يديه من يديها وقد غضب وقال : « ما الذي حملك على ذكر هذه الفتاة الآن ، مالنا ولها ؟ »

قالت : « كيف لا أذكرها وهي سبب قلقي وعلة شقائي ؟ لكنها الآن بعيدة عنا »

فقال : « اذا كانت بعيدة الآن فانها ستكون بعد قليل قريبة باذن الله »

قالت : « من قال لك ذلك فقد خدعك . ان شوكار أصبحت في غير هذا العالم يا ركن الدين ، وقد نصحتك فانتصح »

فاقشعر بدنه عند سماع هذا الكلام وحملق فيها وقال : « أطلب اليك أن تكفي عن هذا القول وتدعيني وشأني ، دعيني أذهب بسلام » . قال ذلك وقد مال الى تصديق قولها لكثرة ما عرفه من دهائها وعلاقاتها ببغداد ونفوذها هناك ، وبخاصة لأنها لم تستقدمه اليها الا في الليلة التي جاءه فيها ذلك الكتاب من شوكار تشكو فيه الخطر ، فقام في ذهنه أن سلافة تعرف حقيقة حال شوكار ، فقعد وأشار الى سلافة أن تقعد وأظهر الجد وقال : « يا سيدتي أرجو أن تصغي لما أقوله لك ، وقد علمت من كثيرين بما لك من المنزلة العالية والكلمة النافذة في قصور أمير المؤمنين ببغداد ، فأرغب اليك أن تساعديني في أمر يهمني هناك »

فقطعت كلامه وقالت : « اني طوع ارادتك في كل ما تريد ، ولا أنكر عليك ما لي من الكلمة النافذة ، ولعلك تعلم أن ما حدث من العزل والتنصيب بمصر انما كان على يدي »

فلم يخامره شك فيما تقوله ، واعتقد أنها تقدر أن تفعل كل ما ادعته وهو طامع في السيادة ، لكنه أحس بشيء حال بينه وبين تلك المطامع ، وأصبح همه انقاذ شوكار فقال : « أشكر لك تفضلك ، ولا ريب عندي في صدق ما تقولين ، ولا أظنني أستغني عن يدك في بعض هذه الامور لكنني اطلب الآن أمرا واحدا فهل تقضينه لي ؟ »

قالت : « أقضيه على الرأس والعين »

فقال : « أريد أن أسترجع شوكار من بغداد الي هنا »

فتغيرت سحنتها وقطبت حاجبيها ونظرت اليه شزرا وصاحت : « لله أنت من أمير عاقل ! أبعد ما ذكرته لك تعود فتسألني استرجاع هذه المغنية من بغداد ، وقد قلت لك انها ليست هناك ؟ »

فقال : « أين هي ؟ في مصر ؟ » . قالت : « ولا في مصر انها غير

موجودة فى مكان . ألم يأتك خبرها ؟ »

فلما سمع سؤالها أجفل وتحقق أنها عالمة بما أصابها فصاح فيها : « لم يجئنى خبر بسوء أصابها كما تقولين »

قالت : « انها لن ترجع اليك أبدا ، ولو علمت أنها ترجع لأعدتها على أعقابها بيدى ، وهل قذف بها الى تلك الديار غيرى ؟ »

فاعتدل فى مجلسه واستغرب تصريحها وقال : « أنت أرسلتها الى هناك ؟ ما الذى كان يضرك لو بقيت هنا ؟ انها لا تزاحمك فى نعمة »

فنهضت وهى تشير بأصبعها اليه وقالت : « انهـا تزاحمنى عليك يا ركن الدين ! » . وغصت بريقها وبان الهيام فى عينيها

فظنها تتقرب اليه تزلفا لغرض تريد أن يقضيه لها فقال : « بالله يا سلافة لا تطيلى تعذيبى . اذا كنت تريدين منى خدمة أقضيها لك قضيتها حبا وكرامة ، وانما أطلب منك أن تساعدينى فى استرجاع شوكار »

فنظرت فى وجهـه نظـر المتفرس وقالت : « ويلى منك يا رجل ويا لشقائى ! أترامى عليك وأصرح لك بما فى قلبى وأنت تصم أذنيك عنى ، مع علمك أن أكبر أمرائكم يتمنى رضاى ؟ » . ثم أمسكت عن الكلام لأن الدموع أوشكت أن تغلبها وحولت وجهها عنه خجلا

فأشفق عليها وقال : « انى مقدر تنازلك حق قدره ، وأشكرك عليه شكرا جزيلا ، لكننى طلبت منك خدمة أنت قادرة عليها و . . »

فقطعت كلامه قائلة : « انى رهينة أمرك فى كل شىء الا فى هـذا . يهون على أن أجعلك سلطانا على مصر ، وأما استرجاع تلك المرأة فلا يمكن ، ألم تفهم بعد ؟ »

وكان ركن الدين صاحب مطامع ، ولم يكن شديد التعلق بشوكار ، فكان المتوقع فيما تعرضه عليه سلافة أن ينصاع لها ويستعين بها فى تحقيق مطامعه ، لكنه بعد ما سمعه منها ضد شوكار أحس بميل جديد الى هذه سيما ان ارسالها الى بغداد انما كان بسببه ، كما صرحت له الآن سلافة ، فأصبح فى حيرة ، وأطرق يفكر فيما رآه وسمعه وفيما مر به فى ذلك الليل من الغرائب ، واستعظم ماسمعه من تصريح سلافة وتحببها له ، وحدثته نفسه لحظة أن يسايرها لأنها قد تساعده فى نيل مطامعه ، لكنه تذكر كتاب شوكار الذى جاءه فى ذلك المساء وما فيه من دلائل التعلق به ، فأبت نفسه أن يساير عدوتها اللدودة

وبقى مطرقا يفكر وسلافة تنظر اليه وتراعى حركاته وتكاد تلتهمه ببصرها ، ورفع نظره اليها فرأى فى عينيها معنى لا يعبر عنه بالكلام ،

وأحس بحرج الموقف ، ولم ير بدا من تأجيل الكلام الى فرصة أخرى لأنه لفرط ما انتابه من التأثيرات المتضاربة أحس أن عقله قد أصيب بالكلال ، فأحب أن يؤجل الحديث ريثما يستريح وينظر بماذا يجيب .

فنهض وقد بانت الحيرة فى عينيه ونظر الى سلافة وابتسم لها ابتسامة شكر وقال : « أشكر لسيدتى حسن ظنها بى فانى لا أستحق شيئا من هذا الالتفات ، واستأذنها فى الانصراف » . قال ذلك وانحنى مودعا ومد يده ليصافحها

فأبعدت يدها عنه ، وخبأتها وراء ظهرها ، وتراجعت ولم تجب بفيها ، لكنها أجابت بنظرة أفصح من الخطاب أنها عاتبة آسفة لسوء حظها معه ، وأن قلبها لا يطاوعها على الفراق . فخطا خطوة أخرى نحوها وقال كالمستعطف : « بالله يا مولاتى ائذنى فى انصرافى الساعة فقد تعبت وأصبحت فى حاجة الى الرقاد ... »

قالت وهى تهز رأسها : « لله ما أسوأ حظى !. اشكو لك غرامى وأنت تشكو حاجتك الى النعاس ؟ ! » . قالت ذلك وتحولت عنه ومشت خطوة ، ثم التفتت نحوه ورمته بنظرة كالسهم أصاب صدره، وان لم يؤثر فيه كثيرا وقالت : « سر يحرسك الله ، سر الى فراشك أيها الامير، ولا تظن فشلى هذا يذهب هدراً » . ودخلت مخدعها مسرعة

وانصرف ركن الدين ، وقضى معظم الطريق وهو يردد كلامها ويفسر نظراتها ويعلل حركاتها ، وقد عظم أمرها فى عينيه ولا سيما بعد أن تذكر ما سمعه عن نفوذها فى بغداد ، وأصبح فى خوف على شوكار منها ، ولم يبق عنده شك أن شوكار انما أصابها ما أصابها فى سبيله فهو السبب فى شقائها ، وأن وجودها فى بغداد أصبح بعد هذه المقابلة أكثر خطرا . وخيل اليه أن سلافة لا تلبث أن تبذل جهدها فى ايصال الأذى اليها بسببه ، فأحس بالتبعة التى تحملها بمجافاة سلافة لأنه سيبعثها على تعمد الأذى لشوكار ، وشعر بقشعريرة وقف لها شعره

وكان قد دخل باب القلعة ودنا من غرفته ، ففتحها له الخادم وأضاء المصباح فأخذ فى خلع ثيابه ، ثم وقع نظره على كتاب شوكار فأعاد قراءته فكان تأثيره فى هذه المرة أشد من تأثيره الاول كثيرا ، وغلبه العطف على شوكار ، وايقن أنه لا يرتاح باله الا اذا نجاها من ذلك الضيق ، وهو لا يقدر أن يعهد فى هذا الأمر الى أحد ، ولا سيما بعد تهديد سلافة ، فأخذ يفكر فى السفر الى بغداد

وبينما هو فى ذلك اذ سمع اذان الفجر فتوسد الفراش التماسا للراحة ، وكان نومه مضطربا متقطعا ، ولم تبرح صورة شوكار من

خاطره لحظة . ولما نام رآها فى الحلم حزينة باكية تعاتبه لأنه شغل عنها بسلافة ، فأثر هذا الحلم فى خاطره تأثيرا شديدا . ولما أفاق من نومه وطن عزيمته على الأخذ بناصرها

وأصبح فى اليوم التالى ورسولها ببابه يطلب جوابه على كتابها ، فأدخله اليه وسأله عن سفره الى بغداد وكيف يكون ؟ وكان ركن الدين قد سافر اليها مرة وعرف أهم طرقها وأحيائها ، ثم زوده بكتابه الى شوكار وبالغ فى اكرامه وملاطفته . فسأله الرسول اذا كان عازما على السفر الى بغداد

فقال : « سأنظر فى ذلك » . وصرفه بعد أن عرف منه المكان الذى يجده فيه اذا سافر الى هناك

أما سلافة فلا تسل عن غضبها لما لقيته من تردد ركن الدين لأنها كانت تحبه من كل قلبها ، وكانت تحسب مكاشفتها اياه بحبها كافية لتجعله أسير هواها ، فاذا هو يتردد ويظهر ميله الى شوكار ، وهى لا تستطيع أن تتصور وجودها لأنها تزاحمها على حبه ، وكانت قد علقت به وهو لايعلم ، وتحينت فرصة لمفاتحته فى أمرها ولكنها رأت شجرة الدر اجتذبته لنفسها ، فكان ذلك فى جلة ما حملها على مقاومتها ، وبلغها أمر خطبته شوكار فجعلت رسالتها الى بغداد تتضمن التخلص من الاثنتين معا ، فأنزلت شجرة الدر عن العرش ، وأبعدت شوكار الى بغداد . وتقربت الى عز الدين لتفسد ما بينه وبين شجرة الدر عدوتها ومناظرتها وأفلحت فى ذلك ، ولم يبق لاتمام سعادتها الا أن تسترضى ركن الدين ليكون لها

وكانت الاخبار تأتيها من بغداد متواصلة ، فوصلها فى صباح ذلك اليوم خبر ما أصاب شوكار فى بغداد ، فتسلحت به بحيث يقطع ركن الدين كل أمل فى بقائها فيتحول اليها ، وعزمت على بذل جهدها فى أسعاده وتقديمه ، ووطنت نفسها على الاكتفاء به ، فلما رأت منه ما رأته غضبت وانقلب حبها الى حقد ، وعزمت على مناوأته ان لم يرجع الى صوابه ويسترضيها !

فلنترك القوم فى مشاغلهم بمصر وننتقل الى بغداد

فى بغداد

بلغت بغداد أقصى عمرانها فى أيام المأمون ، حتى امتدت أبنيتها وبساتينها الى نحو ١٦٠٠٠ فدان . وقد كانت مدنا متلاصقة

وهى واقعة فى الجانب الغربى لنهر دجلة ولا تزال المدينة التى بناها المنصور هناك باقية بشكلها المستدير

أما فى زمن روايتنا ، فى القرن السابع للهجرة ، فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها الى الجانب الشرقى حيث قصور الخلافة . وأمحت مدينة المنصور ، وتدهورت حالتها الاجتماعية بعد أن كانت فى القرون الاولى من بنائها أم المدائن ومهبط التجارة ومجتمع العلماء والشعراء وموئل طلاب الثروة والجمال ، على انها بعد أن ضعف شأن الخلافة فيها تسربت اليها الدسائس وقامت الفتن بين أهلها ، وأهمها الشقاق بين أهل السنة والشيعة ، فلم تكن تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة فى شأنه . وكانت هذه سنية فكان الضغط يقع غالبا على الشيعة ، وكانوا يقيمون فى الكرخ والكاظمية وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم فى تدبير شؤونها

وكان هذا الشقاق سببا فى سقوط بغداد ودخولها فى حوزة التتر على يد هولاكو ، وذلك طبيعى فى تاريخ الدول . واذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية التى تنتقل بها السيادة من دولة الى دولة . وجدت معظمها يرجع الى انقسام أبناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنات الدينية أو الاغراض السياسية حتى يستولى القنوط على الفئة الضعيفة اذا غلبت على أمرها فتستنجد بالغرباء ليأخذوا بناصرها . ثم لا يزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة اليهم . وتكاد لا تجد انقلابا سياسيا فى تلك العصور يخرج سببه عن نحو ما تقدم

وكان على دجلة جسران موصلان بين شرقى المدينة وغربيها ، وكل

منهما مبنى من أخشاب مفروشة على سفن مستديرة الشكل، وأهمها منصوب بين حي قصر عيسى والرصافة ، ينتقل عليه الناس والدواب

وكان على ضفاف دجلة في البر الشرقي قصور الخلفاء وأهم أبنية بغداد ، وأشهرها قصر التاج والقصر الحسني ، والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله والد المستعصم بالله الذى تدور فى زمانه حوادث هذه القصة ، والمدرسة النظامية ، وقصر الريحانية ، وقصر الفردوس . وأقربها من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له كان يقيم فيه مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم ، وكان من أهل الكفاءة والدهاء ، ولكنه كان نصوحا مخلصا يرى ما فى الدولة من الاضطراب ويبذل جهده فى النصح للخليفة وتنبيهه الى ما يعود بالصلاح عليه وعلى الدولة . وكان المستعصم ضعيف الراى لكنه حسن الظن بوزيره فكان يصغى لنصائحه فى أكثر الاحيان

غير ان ذلك لم يكن ضامنا للخير منقذا من الخطر ، لأن الرأس اذا كان مختلا اضطربت سائر الاعضاء . ويغلب فى مثل هذه الحال أن ينقاد الى المتملقين وذوى الاغراض من أهل الدولة أو العصبية ، فيغتنموا فرصة ضعفه ويعيثوا فى الارض فسادا لارواء مطامعهم ، وهو لا يسمع فيهم لوما ولا يصغى الى انتقاد

تلك كانت حال المستعصم فى ذلك الحين ، حتى أصبح ألعوبة بين أيدى أعوانه ورؤساء قصوره ، لأنه كان منغمسا فى الترف شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الاغانى ، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة . وكان ندماؤه وأعوانه منهمكين معه فى الملاذ لا يرجون له صلاحا

وزاد الطين بلة ان هولاكو التترى حفيد جنكيزخان كان قد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان أو مغول الفرس ، فلما استقر له الامر فى فارس طمع فى بغداد وأخذ يستعد للحملة عليها ، فاتفق انه وهو يحارب الاسماعيلية فى فارس ويحاصر قلاعهم كتب الى المستعصم يستنجده ، وأراد هذا أن ينجده فمنعه أمراؤه من ذلك مخافة أن يكون قصد هولاكو الخديعة لتخلو بغداد من الرجال فيملكها بسهولة . ثم فتح هولاكو تلك القلاع وبعث الى المستعصم يعاتبه فأشار عليه الوزير ابن العلقمي أن يسترضيه بالهدايا والاموال فأطاعه وأخذ فى تجهيز هدية من الجواهر والمماليك والجوارى ، فاعترض الداودار (قائد الجند) وطعن فى نية الوزير وقال : « انه يروم تسليم الدولة الى التتر » . فكف الخليفة وأرسل هدية يسيرة . فغضب هولاكو وبعث الى الخليفة انه لا يرضيه الا اذا أتى هو بنفسه للاعتذار أو أن ينيب عنه الوزير أو الداودار ، فأرسل اليه أناسا لم يقبل هولاكو نيابتهم واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد

ولم يدرك المستعصم حقيقة غرضه ، ووقع ابن العلقمي في حيرة من امره فكان يكثر التفكير في مصير هذه الحال ، ويرى الخطر محدقا بالدولة فينصح ويحذر بلاجدوى . وكانت رسل هولاكو تأتيه سرا تحمل اليه كتب التحريض على الخروج اليه أو مطاوعته في تسليم بغداد ويعده الوعود الكثيرة . وهو يتردد ويصبر لعل الخليفة يصغي لنصحه ، وكان اذا لقي المستعصم وخاطبه في ذلك وعده أن يعمل برأيه ثم لايلبث بعد أن يفارقه حتى يرجع عن وعوده بما يدسه بعض الاعوان من الدسائس على ابن العلقمي ويتهمونه بالخيانة لأنه شيعي

وكان كبار الشيعة من الجهة الثانيـة يحومون حول ابن العلقمي يشكون اليه ما يقاسونه من الاضطهاد والعسف من ابن الخليفة ، حتى أصبحوا لايأمنون على أموالهم ولا على أعراضـهم ، وهم يقيمون في الجانب الغربي من بغداد وأكثرهم في الكرخ والكاظمية ، وابن العلقمي يخفف عنهم ويعدهم خيرا ، لـكنه كان يتجنب الاجتماع بهم جهارا خوفا من وقوع الشبهة عليه ، فلم يكن يأذن لأحد منهم أن يزوره الا خلسة ، لأن جواسيس المستعصم مبثوثون حوله يعدون عليه أنفاسه

□

أصبح ابن العلقمي ذات يوم وقد عظم الأمر على نفسه ، ونفر من العمل وهو لايرى فيه مصلحة له ولا للدولة ، فاعتكف في منزله ، وكان في قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرصافة والكرخ جميعا ، كان قد بناها لهذا الغرض ، فصعد اليها وأمر الخدم ألا يزعجوه كأنه مريض لايقدر أن يقابل أحدا

صعد الى الشرفة وقد التف بعباءة خفيفة واعتم بعمامة صغيرة ، وكانت الشرفة كالمصطبة أو المنظرة عليها الوسائد والطنافس وبعض أدوات التسلية لمن شاء من زائريه ، وبينها رقعة من شطرنج موضوعة على وسادة فجلس بجانبها . وكانت هذه اللعبة كثيرة الشيوع في بغداد تلك لأصحاب العقول المفكرة ، ولاسيما الذين يهتمون بالسياسة ويحتاجون الى الحيل العقلية ، وهو يومئذ في تردد واضطراب ، فأخذ ينظر في تلك الرقعة ويتسلى بنقل أحجارها على سبيل التجربة فلم تجد نفسه راحة في ذلك .

فانتقل الى دكة في صدر المنظرة تطل على بغداد ، وكان الجو صافيا فالقى نظره على تلك المدينة التاريخية يخترقها نهر دجلة المبارك ، وعلى ضفتيه العمائر من القصور والمدارس والمستشفيات والمساجد والحمامات والبساتين والترع والجسور والطرق والدروب والاسواق

مما يشغل الخاطر، واستحضرت ذاكرته تاريخ بناء هذه المدينة وسبب بنائها منذ خمسمائة سنة ونيف ، ومن توالوا عليها من الخلفاء ، وما تقلب عليهم من الاحوال ، وما بلغت اليه فى أيام الرشيد من أسباب الحضارة ، يوم كانت عاصمة الاسلام فى أقطار الارض ، تجبى اليها الاموال من معظم العالم المعمور ، من تركستان الى المحيط الاطلانطى ، ويتوافد اليها ملوك الارض يخطبون ود صاحبها ويتزلفون اليه

ثم صدمته فجأة نكبة البرامكة وما كان من ذلهم بعد عزهم وهم اصحاب الفضل الاول فى تلك الحضارة ، وما عقب ذلك من الفتنة بين الامين والمأمون ومن قتل فى سبيلها من الانفس . . الى آخر ماحدث من تقلبات السياسة حتى صارت الدولة العباسية الى التقهقر

وبينما هو يفكر فى كل هذا اذ سمع لغطا فى داره كأنه لجاج وجدال، فأصغى فسمع رجلا يطلب أن يقابله والخدم يقولون له : « أن مولانا الوزير فى شاغل عن المقابلة »

فاستأنس بذلك الصوت وظن أنه يعرف صاحبه ، فجذب حبلا بجانبه متصلا بالطبقة السفلى من القصر فدق جرسا هناك — وهى اشارة الاستدعاء عندهم — فجاءه غلام من غلمانه ، فسأله سبب الضوضاء فقال : « ان رجلا غريبا يطلب أن يرى مولانا ، ولم يصغ الى قولنا »

فقال : « قد سمعت صوته وأظنني عرفته ، لابأس من ادخاله »

فعاد الغلام بعدقليل ووراءه رجل عليه ثياب الفرس ووجهه فارسي، فحالما رآه مؤيد الدين عرفه فرحب به وقال : « مرحبا بسحبان »

فأكب سحبان على يد الوزير يهم بتقبيلها فمنعه الوزير من ذلك وصافحه وأجلسه بجانبه وأمر الخادم بالانصراف وقال : « منذ متى جئت ؟ » . قال : « جئت بغداد مساء أمس ياسيدي » . قال : « من أين أتيت ؟ » . قال : « من القاهرة » . قال : « أذكر انى رأيتك هنا من عهد غير بعيد »

قال : « نعم يا مولاى كنت هنا وسافرت ثم عدت ، حين نفدت بضاعتى لأشترى سواها ، وتعب السفر لايهمنى كثيرا »

فابتسم مؤيد الدين وقال : « انقطعت للتجارة يا سحبان ؟ »

فضحك ضحكة اغتصابية وقال : « وهل ترى فائدة من سواها أيها الوزير ؟ »

فأدرك ابن العلقمي انه يشير الى الوزارة التى هى عمله فقال : « صدقت ، لا فائدة من سواها ، ولا خير فى أعمال الحكومة ، حتى

الوزارة فان صاحبها متعب القلب بلا فائدة ، مضت أيام الوزارة الحقيقية و . . . » . وسكت كأنه خاف التصريح بما فى خاطره ، فقال سحبان : « الوزارة أرقى مناصب الدولة ، والوزير هو صاحب الحل والعقد ، لكن يشترط أن . . . » . وبلع ريقه وسكت وهو يخرج منديله ليتشاغل به

فقال مؤيد الدين : « ماذا يشترط يا صاحبى ؟ هل تحسب وزير اليوم كما كان فى صدر هذه الدولة ؟ » . فقطع سحبان كلامه قائلا : « بل ينبغى أن يكون اليوم أقدر منه فى تلك الأيام لضعف الخلفاء »

فهز مؤيد الدين رأسه وقال : « ولكن هؤلاء الضعفاء لايسمعون نصيحة ، لأنهم يصغون الى خدمهم وخصيانهم »

قال : « أليس عندك علاج لهذا الضعف ياسيدى ؟ » . قال ذلك وبان الجد فى عينيه . فقال مؤيد الدين : « وأى علاج تعنى ؟ » . قال : « أعنى علاج هذا الضعف ، هذا الرجل عضو فاسد ، والجراح يشير بقطع العضو الفاسد لئلا يجر الفساد الى سائر البدن » . وحدق فى وجه الوزير يستطلع رأيه

فأكبر ابن العلقمى هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر المنكر العاتب . وقبل أن يقول كلمة تصدى سحبان وقال : « انك تعد قولى جسارة أو وقاحة ، سمه كما تشاء ، ولكننى أقول ما أشعر به ، ونحن مشتركان فى الأمر ، وبيدنا مفاتيح النصر لاينقصنا غير الحزم .. تشبه اذا شئت بخلفاء صدر هذه الدولة وكفى »

فالتفت مؤيد الدين الى ما حوله كأنه يحاذر أن يسمعهما أحد ، ثم نظر الى سحبان قائلا : « لا أوافقك على ما تقول ، ولم أفهم ما تشير اليه »

قال : « أجلك عن أن يفوتك مرادى ، ولكنك ترى من السياسة أن تتجاهل . انى أشير الى ما فعله الرشيد بجعفر ، ألم يقتله ويقتل البرامكة لأنهم شيعة ، ولأنه خاف أن يكون منهم سوء على سلطانه ، وقد أساء بقتلهم الى دولته والى نفسه . أما أنت فاذا انتقمت للشيعة بهذا الحزم فانك تنجى هذه البلاد من الخراب »

فاستعظم مؤيد الدين هذا التصريح وقال : « دعنا من هذا الكلام يا صاحبى اذ لافائدة منه ، وأرى انك متألم من أمير المؤمنين أو بعض أهله فأردت . . . »

فقطع سحبان كلامه قائلا فى تأثر ظاهر : « كلا . لا أقول ما أقوله عن غضب أو نقمة ، وليس بينى وبين هؤلاء علاقة شخصية ، لكننى غضبت لقومى وملتى ، غضبت للنفوس التى تقتل والأعراض التى

تمزق لا لشيء سوى حبها للامام على وسائر أهل البيت »

ولم يكن مؤيد الدين أقل منه غضبا ونقمة لكنه كان حذرا متأنيا فقال: « خفف من حدتك يا سحبان ، ودعنا الآن من هذا الحديث ، ان الامور مرهونة بأوقاتها »

قال: « لا أرى وقتا أنسب من هذا ، ان هذا الأمر اذا كان مرهونا بوقت فهذا هو وقته .. اسألني وأنا أجيبك »

قال: « لا أجهل ما يجول فى خاطرك ، لكننى لا أرى هذا وقته »

قال: « لا اظنك فهمت مرادى تماما ، عندى مشروع آخر غير الذى تعرفه ، غير هولاكو .. »

فلما سمع الوزير هذا الاسم أجفل لأنه ما برح نصب عينيه منذ أشهر ، وهو سبب تردده ، فقال: « ما هو ؟ »

قال: « أشكر لك اصغاءك يا سيدى ، الامر الذى عندى يوصلنا الى المطلوب رأسا ، أعنى أننا نحيى الدولة العلوية فى بلد ظل مقر العلويين نحو مائتى سنة »

فقال: « أظنك تعنى مصر ، أين نحن منها ؟ وقد تسلط عليها الأتراك و .. »

قال: « أنا أعلم منك بحالها لأنى جئت من هناك أمس ، وأنا لا أسافر وأجيء للتجارة ، لكننى اريد حياة قومى ونصرة الأئمة المظلومين ، أنا فى مصر منذ أعوام ، وقد عرفت دخائلها ، وهى فى يدى كما أشاء »

فضحك ابن العلقمى وقال: « ما أوسع أحلامك وما أكثر أوهامك ! كيف خيل لك الغرور هذا ، حتى توهمت مصر فى قبضة يدك ، وهى فوق ذلك سنية المذهب ورجال دولتها كلهم من الأتراك السنيين ؟ »

قال: « أنا أعلم ذلك ياسيدى . ولكنهم منقسمون على السيادة ، وطالب السيادة الآن رجل حازم ناقم على السلطان الحاضر فى مصر لأنه ساءه بأمر له ارتباط بقلبه فهو يبذل جهده فى غرضنا ، وهو ناقم أيضا على خليفتك هذا لأنه أخذ خطيبته منه ، ولا يلبث أن يأتى للانتقام ، فاذا ساعدناه على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا على مصر أطاعنا فى اعلان الخلافة الفاطمية بمصر ، فنعود الى عزنا ونتخلص من هؤلاء الظالمين » . وابرقت أسرته كأنه نال ذلك فعلا ، فقد كان من أهل الخيال وأصحاب الأوهام الذين يستسهلون الصعب ويتوهمون وقوع المحال ، اذا تصور أحدهم أمرا يتمنى حدوثه تذرع الى تصديقه بأوهى الأسباب وأغضى عما يعترضه من العقبات او يحول دون الحصول عليه من الموانع الطبيعية ، وهذه الفئة من الوهميين كثيرة ،

وبخاصة فى بلاد المشرق . ولعل الفرق بين النجاح والفشل انما هو فى تقدير الحقيقة حق قدرها والاحتياط للحوادث قبل وقوعها

أما مؤيد الدين فانه كان من أهل التدبير والحزم ، ينظر فى العواقب ويتدبرها ولا تأخذه الأوهام ، ولولا ذلك لم يصل الى منصب الوزارة فى دولة مذهبها غير مذهبه وبين قوم يكرهون الشيعة ويفتكون بهم . فلما سمع كلام سحبان استخف برأيه ، وبخاصة لأن ابن العلقمى لم يتطوح بمطامعه الى هذا الحد لعلمه بعجز الشيعة عن النهوض ، ولكنه كان يكتفى بأن يبدل خليفة بخليفة ، فلم يشأ أن يفاتح سحبان بهذا الامر وعمد الى الاختصار فى الحديث فقال : « سننظر فى ذلك فى وقت آخر »

فأحس سحبان بما يضمره من احتقار رأيه فقال : « يظهر أنك لم تكترث لقولى ، أو لعلك استبعدته ، ولو عرفت الاسباب التى عندى لوافقتنى »

قال : « نعم يا صديقى ، رأيت مطمعك بعيدا يكاد يكون محالا »

وكان سحبان يحترم رأى مؤيد الدين فقال : « اذا كان رأيى ضعيفا فأسمعنى رأيا خيرا منه ، أم أنت ترى أن نبقى فى هذا الذل الى الموت ونحن سكوت ؟ »

قال : « كلا . لا ينبغى أن نبقى كذلك ، لكن علينا أن نفكر ونقيس ونحتاط لا أن نرمى الكلام على عواهنه ونطلب المحال »

قال : « اذن ياسيدى ماهو الممكن من ذلك ، وماهى الطريقة للنجاة ؟ »

قال : « لقد أحرجتنى واضطررتنى للكلام يا سحبان ولم أكن أحب التصريح بما فى خاطرى الآن ، فاعلم اننا نحن الشيعة لا ينبغى لنا أن نطمع فى اعادة دولتنا اليوم لأن الاسباب لا تساعدنا على ذلك ، ولكن لابد من أن يأتى يوم يتمكن فيه أبناؤنا منه . أما الآن فيكفينا تغيير هذا الخليفة الضعيف المشتغل باللهو والغناء بخليفة عاقل حازم ينصفنا . هذه هى الخطة التى يجب أن نضعها نصب أعيننا »

فأطرق سحبان وهو يعمل فكرته ، وقد استصغر نفسه واستضعف رأيه ، وكان مع قربه من التوهم سريع التقلب سهل الانقياد ، فاستصوب رأى ابن العلقمى وقال : « صدقت ياسيدى انك فى الحقيقة وزير مدبر عاقل . قل لى ما هى المعدات التى أعددتها لتنفيذ هذا المشروع ؟ »

فنهض مؤيد الدين وهو يظهر انه مل الحديث ، أو انه لايريد

التصريح بأفكاره لسحبان ، ووجه التفاتة الى جسر بغداد القائم على السفن المستديرة فاذا هو يعج عجيجا بالناس على غير المعتاد ، وقد تزاحمت عليه الأقدام ، وأكثر المشاة يركضون كالهاربين من حرب ، فلم يستطع أن يتبين الوجوه ، لكنه توسم فى الامر شيئا مهما ، والتفت نحو سحبان فرآه أكثر منه دهشة ، وكان أحد منه بصرا فصاح : « ألا ترى يا مولاى ؟ الا ترى ؟ هؤلاء أجناد الخليفة لعلهم عائدون من حرب يجرون وراءهم الأسرى والسبايا »

فقال وقد أجفل : « وأى حرب ؟ »

قال : « لا أدرى ، ولكننى أرى جندا وهذه راياتهم أمامهم ، واذا صدق ظنى فانى أرى راية الداودار فى مقدمتها ، وقد أذكرنى ذلك بما كنت أراه من تعدى هؤلاء الأجناد على قومنا فى الكرخ والكاظمية»

فحدق مؤيد الدين فى المازة فلم يستطع أن يتحقق شيئا ، واذا هو يسمع ضوضاء فى داره أشبه بالعويل منها بالصياح ، فأطل من نافذة تشرف على فنـاء الدار فرأى جماعة من النســاء يبكين ويعولن وقد تلطخت أثوابهن بالدماء والتراب ، ومعهن شيخ أحنى ظهره الكبر وهو يتوكأ على عكاز ويبكى ، فتفطر قلبه لهذا المنظر ، ولـكنه لم يعرف القوم ، وكان سحبان واقفا بجانبه ينظر الى الدار ، ولم يكد يتفرس قليلا حتى صاح : « وا أبتاه ! »

فأجفل ابن العلقمى وقال : « من هذا ؟ لعله أبوك ؟ »

قال : « هو أبى ياسيدى ، أعهده مقيما فى الـكرخ بسلام وأمان ، ماذا جرى له ؟ » . قال ذلك واستأذن فى النزول ، فنزل ومؤيد الدين فى أثره

ولم يكد سحبان يصـل الى الدار حتى سمع أباه يقـول : « أين الوزير ، أين مؤيد الدين ؟ » . ولما وقع بصره على مؤيد الدين صاح فيه : « أنت وزيرنا ويصيبنا ما أصابنا ؟ اذا كان ذنبنا أننا نحب أهل البيت الـكرام فقد قبلنا العقاب على الرأس والعين ، والله يجزى كل نفس بما فعلت »

وكان سحبان قد وصل الى ابيه وقال له : « أبى ماذا جرى ، ماذا أصابكم ؟ . كيف خرجتم من البيوت على هذه الصورة ؟ »

فالتفت الشيخ الى ابنه ، ولما تبينه ألقى عصاه وأكب عليه وقبله وأخذ فى الشهيق والبكاء وقال : « ولدى سحبان ؟ أنت هنا ؟ متى جئت؟ آه ياليتك جئت عندنا قبل مجيئك الى هنا . لا بل أراك أحسنت بابتعادك عنا لئلا تصاب بما أصيب به أخوتك »

فاقشعر بدنه وقال : « اخوتى؟ ماذا أصابهم؟ من فعل بكم ذلك؟ » . قال : « ألا تعلم ممن تأتى مصائبنا ؟ انها تأتى من . . » . والتفت حوله وهو خائف وعيناه يغشاهما الدمع وقال : « أنت تعلم ممن . . »

فقال : « لعل هؤلاء الجنود المارين على الجسر كانوا عندكم »

فصاح : « اننا هاربون منهم ، وجئنا الى هنا نلتجىء الى مولانا مؤيد الدين » . والتفت الى الوزير وقال : « آه ياسيدى ، أنقذنا من هذا العذاب . أخرجنا من هذا البلد » . والتفت الى سحبان وقال : « انك تفر من هذه المصائب كل سنة وتنجو بنفسك وتتركنا واخوتك فى هذا الخطر . يا الهى متى نتخلص من هذا العذاب ؟ »

فأجابه سحبان وهو يرتعد من الغضب : « عن قريب ان شاء الله » . والتفت الى مؤيد الدين فرآه واقفا يسمع ويتجلد ، وقد أومأ الى النساء أن يدخلن دار الحريم ، ونظر الى الشيخ وتلطف فى خطابه وقال : « تفضل يا عماه واجلس هنا ، خفف مابك وقص على ماجرى »

قال ذلك وقعد وأقعد الشيخ بين يديه ، وسحبان واقف لا يريد أن يجلس من شدة الغضب ، فأخذ الشيخ يقص حديثه فقال : « أنت تعلم يا مولاى حالنا مع هؤلاء القوم ، وكيف يناوئوننا ويعذبوننا ونحن صابرون ننتظر الفرج . لكنهم لم يرتكبوا مثل ما ارتكبوه هذه المرة من القتل والسبى ، فانهم لم يبقوا على الاموال والأعراض » . وغص بريقه وشفتاه ترتعشان فتشاغل بالبحث عن عصاه

فتأثر مؤيد الدين من منظره ، ونظر الى سحبان فرآه يمسح عينيه ويخجل أن يراه الناس باكيا ، فتجلد وأخذ يخفف عن الشيخ فقال : « يا عماه ، هون عليك لكل شىء نهاية والله مع الصابرين . ثم ماذا جرى ؟ » . قال : « لا تسألنى يا بنى عما جرى فانه يفتت الأكباد ، يكفى ما ترونه » . وجعل يمسح عينيه ، وأنامله ترتجف ، فأجابه سحبان : « قد تعودنا هذه الشدائد منهم ولكن . . » . فقاطعه أبوه قائلا : « لا . لا . ها أنذا قد أدركت الشيخوخة فى هذا البلد مع هؤلاء القوم ، وشاهدت نكبات عديدة ليس فيها واحدة مثل هذه . كانوا يعتدون على بعض المارة أو يتهمون بعض الرجال بأمر يسوغون به لأنفسهم مصادرة ماله أو اهانته ، أما الآن فانهم دخلوا المنازل بلا حجة ولا سبب ، وداسوا مخادع النساء ، وارتكبوا الفاحشة وقتلوا الأطفال . دعنى لم أعد أستطيع الكلام ، ولا أبالى اذا مت . وانما أطلب من الله أن يبقينى حيا لأرى زوال هذه الدولة » . ثم أسرع تنفسه وأوشك أن يغمى عليه ، فرشوه بالماء ، وبادر ابنه اليه فأعانه حتى أدخله غرفة استراح فيها ، وذهب توا الى دار الحريم وكلف بعض

الخصيان أن يجمعه بأخته ، وكانت مع النساء . فجاءت وهي تبكي وتندب وقد قطعت شعرها ، فقال لها : « أخبريني يا صفية ماذا جرى لكم ؟ هل أصيب أحد منكم بسوء ؟ أين اخوتك ؟ »

فضربت كفا بكف وقالت : « لا أدرى هل هم أحياء أم أموات ؟ . ويلاه أين كنت فلم تشاهد المذابح ؟ انهم دخلوا مخدعى وأوشكوا أن يمسونى أعوذ بالله . . »

فاقشعر بدنه من هذا التعبير ، ولم ير بدا من التجلد بين يديها فقال : « الله منتقم يا أخيـة ، وسوف ينتقم من القوم الظالمين » . وتحول الى الدار فلم يجد مؤيد الدين هناك ، فسأل الخدم عنه فقالوا انه فى حجرته يلبس ثيابه ، فعلم أنه عازم على الذهاب الى قصر الخليفة فى هذا الشأن ، فسره أنه غضب وود ألا يفلح فى مهمته لعله يعمل بمشورته ويعزم على التخلص من هذه الدولة

وذهب الى أبيه فرآه قد صحا واستراح ، فجلس اليه وأخذ يخفف عنه ويسأله عن تفصيل ما جرى ، فلم يزدد الا دهشة وغضبا لما سمع . لكنه أخذ يهون على أبيه بأنه سينتقم له ، وان الله لابد أن يبيد الظالمين ، ونحو ذلك من عبارات التعزية ، وقد تعودها الشيعة فى بغداد لكثرة ما توالى عليهم من الاحن

◻

لبس مؤيد الدين قلنسوته وقباءه الأسود ، ثم ركب بغلته الى قصر التاج ليرى الخليفة ويشكو اليه ما فعله جنده مما لا يحتمل ، والغلام يركض بين يديه . فمر بالمدرسة المستنصرية والقصر الحسنى حتى وصل الى قصر التاج ، فدخل بساتينه والخدم يوسعون له . فلما وصل الى بابه الاكبر ترجل ودخل مسرعا ، والغضب باد فى محياه ، حتى انه لم يحسن رد التحية على من لقيه فى طريقه من الخاصة

فلما بلغ باب العامة مشى الحرس بين يديه ، فسأل صاحب الباب عن الخليفة فقال : « انه جالس فى منظرة المسناة ، فهل أستأذن لمولاى الوزير ؟ » . قال : « هل هو وحده هناك ؟ » . قال : « عنده بعض الخاصة والمغنين » . فشق عليه ذلك لأنه طالما فكر فيه وتكدر منه فقال له : « استأذن لى عليه ، أو قل له انى أحب لقاء أمير المؤمنين حيثما يشاء »

فذهب الغلام وعاد وهو يقول : « لا يرى أمير المؤمنين بأسا من دخولك الى المنظرة » . فلم تعجبه هذه الدعوة لأنه كان يحب أن يراه



« وأشار الخليفة المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين
ابن العلقمي قائلا : مرحباً بوزيرنا الهمام »

على حدة ، لكنه لم ير بدأ من الطاعة ، فدخل من دهليز الى دهليز ، والخصيان يوسعون له حتى أطل على المنظرة ، وهى كالعريش أو (الكشك) تشرف على دجلة ، فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش والتذهيب الجميل . وأرض المنظرة مفروشة بالبسط الثمينة عليها الرسوم البديعة ، وفوق البسط الوسائد المطرزة ، وفى وسط المنظرة مائدة عليها ألوان الفاكهة والحلوى ، والمستعصم فى صدر المكان قد اتكأ على مرتبة عالية كالسرير ، وعليه ثوب أبيض مذهب يشبه القباء، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك، وكأنه يتعمد بذلك تقليد زى الاتراك، وكان المستعصم أسمر اللون مسترسل اللحية ربعة القوام لا بالطويل ولا القصير ظاهر الحياء لين الكلام سهل الاخلاق ، الا انه ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموع فيه . وبين يدى المنظرة دجلة يجرى وفيه الزوارق المعدة لركوب الخليفة متى شاء

فاستعاذ مؤيد الدين من هذه المقابلة ، وود لو أنه لم يأت فى تلك الساعة ، لكنه لم يسعه الا القاء التحية بالاحترام اللائق ، فأشار اليه المستعصم أن يجلس على وسادة بالقرب منه وقال : « مرحبا بوزيرنا الهمام »

فتأدب فى الجواب وتقديم الاحترام ، والتفت الى الحضور فلم يجد بينهم من يحترم مجلسه أو يعتد بوجوده ، وانما هم طائفة من خاصة الخليفة العائشين فى داره ، وقيم القصر ، وأستاذ الدار ، ويعرف بالصاحب ، وله قدر كبير عند الخليفة ويدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، وقلما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار ومراقبتها والتكفل بها وتفقدها ليلا ونهارا

وما كاد الوزير يجلس حتى أشار الخليفة الى المغنى أن يعيد ما غناه، وراح يظهر طربه الشديد ، متجاهلا ما يقتضيه منصب الخلافة من الوقار، وكان أعوانه يعرفون ذلك فيه فيعده بعضهم لطفا وظرفا ، ويعده الآخرون ضعفا وتهاونا ، وهذا هو رأى مؤيد الدين فيه ، على أنهم أجمعوا على حسن طوية الخليفة ، ولعل ذلك من أسباب ضعفه التى جعلت سبيلا لأرباب الدسائس اليه

□

كان مؤيد الدين يسمع الغناء وهو مطرق يفكر فيما جاء من أجله ، وينتظر أن يسأله الخليفة عن شأنه . فلما اتم المغنى دوره التفت

المستعصم الى الوزير وقال: « هل سمعت أشجى صوتا وأرق نغما ؟. ان هذا اللحن يطربني كثيرا ، وهناك لحن آخر قريب منه لم أجد من يجيده في بغداد ، وقد بلغني عن مغنية في دار سلطان مصر تجيده فبعثت في استقدامها لكنها لم تصل الى » . قال ذلك وسكت وقد انقبض وجهه ، ثم استطرد قائلا : « وكنت معتزما أن أبعث اليك منذ أيام لأخبرك بذلك ، وأستعينك في البحث عن هذه المغنية لأني على ثقة من أنها وصلت الى بغداد ، لكن بعض اللصوص اخذوها من الركب الآتي بها من مصر ، فهل تبحث عنهم ؟ »

فأشار مؤيد الدين مطيعا وقال : « لا بد من البحث عن كل لص ومعاقبته ، اذ لا يليق أن يتجرأ أحد على جريمة في أيام مولانا امير المؤمنين أيده الله » . وأحب أن يتطرق الى ماجاء من أجله ، فتصدى له أستاذ الدار وقال : « ان تجرؤ اللصوص على خطف مغنية محمولة لمولانا أمير المؤمنين لأمر لم يسمع بمثله ، وهو يدل على ضعف سلطة الحكومة وقلة هيبتها في عيون الناس ، وكان المرجو من الوزير حفظه الله ألا يترك سبيلا الى مثل ذلك »

فوقع هذا الكلام وقوع السهم في قلب مؤيد الدين ، ولم يطق صبرا على السكوت عنه ، وعلم أن الاستاذ الخصي يريد أن يظهر لدى مولاه في مظهر الغيور على مصالح الدولة ، فاستثقل ذلك منه ، وعده جسارة خارجة عن حدود اللياقة في مجالس الخلفاء ، فالتفت اليه وقال : « صدقت يا أستاذ ، لا ينبغي أن يقع مثل ذلك ، وتبعته تلقى على الوزير اذا كان الامر راجعا اليه ، فان أرواحنا فداء أمير المؤمنين في الذب عن الدولة وبذل الجهد في طاعته ، ولكن هذه الامور وأمثالها تقع أحيانا ولا حيلة للوزير في دفعها » . ثم حول بصره الى المستعصم وقال : « وكثيرا ما يقع هذا ونتلافاه بدون أن يبلغ الى سمع مولانا أمير المؤمنين ، حتى الجند فانهم يرتكبون أمورا لا يليق بهم ارتكابها ، ولا أدرى هل يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم » . قال ذلك وتغير وجهه ، وظهر للخليفة أنه يحمل شكاية يريد ايصالها فقال له : « لا ينبغي أن يقع شيء من ذلك الا باذن منا أو من وزيرنا أو من أستاذ دارنا . وهل وقع شيء من هذا القبيل قريبا ؟ »

قال الوزير : « أرفع الى سمع مولاى أمير المؤمنين ان جماعة من اهل الكرخ أتوني الساعة وفيهم الشيوخ والنساء يبكون ويندبون ، وقالوا ان شرذمة من الجند نزلوا عليهم ، ونهبوا منازلهم وقتلوا من وقف في طريقهم وارتكبوا الفاحشة وغير ذلك »

فتصدى أستاذ الدار وقال وهو يهز رأسه هز الاستهزاء : « أهل

الكرخ ؟ أهل الكرخ تعودوا هذه الشكاية فلا يمضي عام أو شهر الا سمعناها منهم »

فاستقبح مؤيد الدين تعرضه ووقاحته واستغرب اعتراضه فقال وهو يخاطبه : « تعود أهل الكرخ الشكوى لأن الجند تعودوا أن يؤذوهم و . . . »

فقطع الاستاذ كلامه وقال : « وان لم يؤذوهم ، انهم يحبون الشكوى . هذه عادة الشيعة » . ونظر الى الحضور وضحك ضحك الاستخفاف

فأثر ذلك فى خاطر ابن العلقمى تأثيرا سيئا جدا ، وحول وجهه عن الرجل وهو يقول : « لم أكن اظن أحدا يجسر على هذا القول فى حضرة مولانا أمير المؤمنين » . وسكت

فتصدى المستعصم للكلام وقال : « لا أستحسن ما جرى بينكما ، ولا حق للاستاذ أن يتكلم بهذه اللهجة ، فاذا اشتكى أهل الكرخ أو غيرهم فعلينا أن ننظر فى شكواهم وننصفهم » . ووجه خطابه الى مؤيد الدين وقال : « ماذا جرى أيها الوزير ؟ »

فاتجه هذا نحو الخليفة وقال : « بلغنى يا مولاى أن شرذمة من الجند سطت على الكرخ فى هذا الصباح وأمعنت فى أهله قتلا ونهبا . وقد رأيت جماعة من المصابين وفيهم الشيوخ والنساء والاطفال فلم اشأ أن أفعل شيئا قبل أن استطلع رأى مولاى »

فقال الخليفة وهو يظهر الاهتمام : « ان هذا منوط بالداودار قائد الجند ، فينبغى أن نسأله عما بعثه على ذلك ، لعل له عذرا » . وصفق فجاء الحاجب فأمره أن يستقدم الداودار حالا

وعاد الخليفة فأشار الى المغنى أن يعود لغنائه ، واقترح عليه لحنا غناه وهو يعزف على العود ، فطرب الجميع ، الا ابن العلقمى فانه كان يغلى من الغضب وهو يتجلد

وبعد قليل جاء غلام وقال ان الداودار بالباب ، فأمره الخليفة ان يذهب به الى دار العامة ينتظر حضوره . ثم نهض واشار الى الحضور بالانصراف ، وأومأ الى الوزير أن يتبعه ، فسار فى أثره نحو دار العامة ، وهى قاعة الاستقبال الخاصة بالاعمال

ودخل الخليفة أولا غرفة الألبسة ، وجاء صاحب الثياب فألبسه ماتعود لبسه اذا جلس لمقابلة الناس : العمامة الكبرى والجبة وغيرهما . ثم أقبل على دار العامة من باب داخلى ، وهى مفروشة أحسن فرش بالستائر والنمارق والأرائك ، يقلدون بها ما كان من اسباب البذخ فى

صدر الدولة العباسية . فلما دخل الخليفة القاعة جلس على سريره ، وأومأ الى ابن العلقمى أن يقعد ، ثم أمر الحاجب أن يدخل الداودار . وكان ابن العلقمى قد سرى عنه ، فدخل الداودار وألقى التحية ووقف متأدبا فقال له الخليفة : « يقول وزيرنا حفظه الله أن الجند سطوا على الكرخ وقتلوا ونهبوا . هل أنت عالم بذلك؟ » . قال : « نعم يامولاى » . قال : « وتقول نعم ؟ وكيف اذنت بوقوعه ؟ »

ـ قال : « فعلته بأمر من مولاى الامير أبى بكر نجل مولانا أمير المؤمنين »

قال : « اذا قال لكم احمد (أبو بكر) أقتلوا الناس قتلتموهم بلا سبب »

ـ قال : « لم أسمح بارسال الجند الى الكرخ بلا سبب ، لكن مولاى ابا بكر قال ان جماعة من أهل الكرخ خطفوا جارية من جواريه وخبأوها عندهم ، فذهبت للبحث عنها عند صاحب الشأن فمنعونا من الدخول وجردوا علينا السلاح ، فأمرني الامير بالدفاع والتفتيش ، وقد فعلت »

فقال الخليفة : « ذهبتم للتفتيش عن جارية أخذت من بيت احمد فقتل بسببها عشرات من الناس ، فلو فعلت مثل فعلكم بسبب الجارية المغنية التى أخذت منى لحدث مثل هذا وأعظم منه . ان هذا لا يليق بنا . أين أحمد ؟ »

فأجابه الداوادار : « أظنه فى قصره يا مولاى » . فقال : « ادعه الى حالا »

فلما شاهد مؤيد الدين غضب الخليفة على ابنه استبشر بنجاته من تطاوله وتدخله فى أمور الدولة ، ونظر الى المستعصم فرآه مطرقا والغضب يتجلى فى وجهه ، لكنه لم يتبين من ذلك الغضب حزما وعزيمة ــ وتلك كانت علة الخليفة ــ لم يكن ينقصه حسن القصد وانما كان ينقصه الحزم . فظل مؤيد الدين صامتا مطرقا حتى دخل الحاجب وأنبأ بمجيء الامير أحمد فأمر الخليفة بدخوله

□

دخل أبو بكر ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، قد أخذه الغرور ، تمازج حركاته خيلاء لا تظهر الا على الأدمغة الفارغة ، ولاسيما فى أوائل الشباب فقد كان فى حوالى السنة العشرين من العمر ــ وتلك هى سن الغرور فى كل شاب اذ يتوهم صاحبها انه بلغ الكمال فى كل شيء ، اذا مشى حسب الناس ينظرون اليه اعجابا بجماله أو بسالته ، واذا قال قولا توقع أن يكون له وقع الوحى على القلوب ، فاذا آنس منهم فتورا

أو احتقارا غضب وانحى عليهم باللائمة ورماهم بالجهل أو الحسد لأنهم بخسوه حقه ، وبأنهم انما فعلوا ذلك تقليلا من فضله ، ونحو ذلك من غرور الشباب

فاذا كان ذلك شأن الشباب على اختلاف طبقاتهم فكيف بأبنـاء الملوك والخلفـاء الذين لايسمعون الا التحبيـذ والاطراء ؟ وبخاصة اذا كان فى الشاب خفة وصغار مثل أحمد هذا الذى زاده غرورا أن اباه أطلق سراحه من محبسه على غير المعتاد عند الخلفاء قبله ، فأصبح لذلك لايحسب للعواقب حسابا ، بل هو لايدرك حقائق الامور ، وانما يهمه أن تنفذ كلمته وينال مشتهاه مهما يكلفه ذلك

دخل ابو بكر وألقى التحية ، وتلفت يمينا وشمالا فوقع بصره على مؤيد الدين فنظر اليه باحتقار ، ومؤيد الدين لايبدى ملاحظة . وقعد أبو بكر قبل أن يأذن له أبوه فى القعود فقال له المستعصم : « يا أحمد أنت أمرت الداودار بالهجوم على أهل الكرخ ؟ »

فأجاب وهو يبتسم تكاية فى مؤيد الدين : « نعم يا أبى » . قال : « وكيف ذلك ؟ ولماذا ؟ » . قال : « لأن جارية من جوارى هربت من قصرى واختبأت فى منزل أحدهم ، ولاشك انهم حلوها على الفرار وخبأوها ، فبعثت من يأتى بها فشتموا رسولى وضربوه ، فأمرت الداودار أن يؤدبهم فتمردوا عليه ، فاضطر ــ للدفاع عن نفسه ــ أن يضربهم وقد فعل ، وما المانع من ذلك ؟ »

فقال المستعصم : « المانع انه لايليق أن تحدث مذبحة يقتل فيها عدة رجال من أجل جارية ، وأنت تعلم أن فى قصورنا ألوفا من الجوارى فلوطلبت منى عشر جوار بدل الجارية لكان ذلك أهون على مما أسمعه ، والجوارى كلهن سواء »

فاعتدل فى مجلسه وهو يصلح منطقته بدلال وانفة وقال : « اذا كانت الجوارى سواء ، وفى قصورنا ألوف منهن ، فما الذى حمل أمير المؤمنين على ان يبعث فى طلب جارية من سلطان مصر »

وكان مؤيد الدين يلاحظ ما يتقلب على وجه المستعصم من الملامح ليرى مايكون تأثير قول ذلك الغلام فيه ، فاذا به لما سمع اعتراض ابنه غلب عليه ضعف العزيمة وعمد الى الاسترضـاء وقال : « أنا لم أطلب تلك الجارية من سلطان مصر الالتفردها بغناء أصوات لايستطيعها سواها ، وأما . . . »

فقطع أحمد كلام ابيه بكل وقاحة واستخفاف وقال : « وما أدراك أن تكون جاريتى هذه غير ممتازة بمناقب لاتوجد فى سواها ؟ وما أجدرنى أن أقتدى بوالدى وهو أمير المؤمنين ، قدوة سائر المسلمين »

فحمل المستعصم هذا القول محمل التهكم ، وخجل من أن يسمعه امام مؤيد الدين والداودار ولايردعليه فقال : « أهكذا تجيبنى يا أحمد؟ وهل يحق لكل واحد أن ينال ما يناله أمير المؤمنين ؟ ان عملك هذا لايرضينى »

فهز أحمد رأسه وقال : « يكفى أن يرضينى أنا . وهل أعمال أبى ترضى كل انسان ؟ لايطلب من المرء أن ترضى أعماله كل الناس »

وبعد أن كان المستعصم قد صرح بانكاره تهكم ابنه حمله ضعفه على المغالطة ، وتناسى تهكمه فابتسم وقال : « وبعد تلك المقتلة هل ظفرت بالجارية ؟ »

قال : « كلا . . ما زالت مختبئة ، ولابد من العود الى البحث عنها »

قال : « لاياولدى ، لاتبحث عنها هكذا ، وسأكلف أنا وزيرنا مؤيد الدين أن يتحرى عنها حتى يقف على مكانها ويعيدها اليك »

فنظر أبو بكر الى مؤيد الدين لحظة ثم حول وجهه عنه نحوالداودار وقال : « اذا لم يقف على مكانها فنحن نقدر على اخراجها من مخبئها ولو كانت فى جيب الوزير أو بين أهله » . ثم نهض وقال : « استأذن سيدى الوالد فى الانصراف الآن لأنىعلى موعد مع بعض القواد للخروج الى الصيد » . وخرج ولم ينتظر اذن والده وأومأ الى الداودار أن يتبعه فتبعه . والمستعصم ينظر الى ابنه وهو خارج وقد بان اليأس فى وجهه ، ثم حول بصره الى مؤيد الدين وتنهد وقال : «صدق القائل: (وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الارض) . . » . ودمعت عيناه

فأطرق مؤيد الدين وهو يتعجب من ذلك الضعف . ولبث فى انتظار خطاب الخليفة حتى سمعه يقول : « يا مؤيد الدين ، انك وزيرى وموضع ثقتى . . وقد رأيت ما أظهره احمد من الإستخفاف بقولى . . وأظننى اخطأت باطلاق سراح أولادى، فخالفت بذلك تقاليدأجدادى . . لو كان أحمد كما كان أبناء الخلفاء قبله لكنا فى غنى عما نحن فيه » . وتشاغل باصلاح لحيته ، فلم يشأ مؤيد الدين أن يخوض فى هذا الموضوع خوفا من تغلب عاطفة الحنو فى نفس الخليفة مما قد يحول غضبه اليه وبخاصة انه يعلم ضعفه من جهة ابنه هذا . فقال المستعصم : « نطلب من الله أن يهدى هذا الغلام الى صوابه ، أنت اب تعرف قلوب الآباء ، فأتقدم اليك أن تساعدنى فى البحث عن جارية أحمد وأن تعوض على أهل الكرخ خسائرهم ، وانى آسف لما وقع وعسى أن لايتكرر » . ثم تنحنح وهم بالنهوض وهو يقول : « لايبرح من بالك ايضا أن تبحث عن الجارية شوكار المغنية التى استقدمناها من مصر وخطفها اللصوص قرب بغداد »

فنهض مؤيد الدين وطأطأ رأسه طائعا وقال : « انى عبد أمير المؤمنين ، وفقنى الله فى خدمته ولكننى »

فقطع الخليفة كلامه قائلا : « أنا أعلم ان احمد لم يكن ينبغى له أن يقول ما قاله . . لكنه لايزال شابا قليل الاختبار ولا يلبث أن يهتدى الى الصواب » . وتحول كل منهما فى طريقه

□

خرج مؤيد الدين بن العلقمى من قصر التاج وركب بغلته عائدا الى قصره وهو غارق فى التفكير ، تتنازعه عوامل مختلفة ، لكن الخوف متغلب عليها كلها

ولما دنا من قصره رأى فى موقف الدواب بغلتين احداهما بغلة سحبان ، وقد عرفها ، والثانية لم يكن قد رآها من قبل فتقدم غلامه الى الباب وقرعه ففتح على سعته ودخل مؤيد الدين ببغلته الى مدخل الباب وترجل هناك ، فتناول الغلام زمام البغلة وساقها الى مكانها ، ومشى مؤيد الدين وكان البواب يسرع بين يديه . فقال له : « من هو صاحب البغلة الاخرى المربوطة هنا ؟ »

قال : « ان صاحبتها امرأة جاء بها سحبان من وقت قريب ، وهو فى انتظار مولانا الوزير فى الشرفة »

قال : « قل له يأتى الى غرفتى ، من هى المرأة التى معه ؟ »

قال : « لا ادرى يا سيدى ، لكنه بعد خروجك أخذ أباه وأخته الى الكرخ ثم عاد الساعة ومعه هذه المرأة وأظنها جارية »

وكان مؤيد الدين قد دخل غرفته وأهل بيته يعلمون أنه اذا دخلها لايدخل عليه أحد الا باذن خاص ، وسأله الطاهى : هل يريد الطعام فقال : « هيىء لى مائدة مختصرة أدخلها الى هنا ، وليأت سحبان للأكل معى »

ودخل فبدل ثيابه ، ولم يكد يفرغ من اللبس حتى جاء سحبان وفى وجهه امارات البشر ، وكان قد فارقه واليأس غالب عليه ، فاطمأن مؤيد الدين بعض الشيء ، وابتسم ابتساما لم يتعد شفتيه وقال : « ما وراءك يا صاحبى ؟ » . قال : « يظهر انك غضبت مما شاهدته فى قصر التاج ، ليس عند القوم ما يفرح » . وابتسم

فقال مؤيد الدين : « وهل عندك شيء يفرح ياسحبان ؟ بالله قل ان صدرى قد ضاق مما أراه وأسمعه . تقدم كل معى »

فأثنى على دعوته وتناول سكباجة وتشاغل بتقطيعها وهو ينظر الى

وجه الوزير ويقول : « لدىخبر يسرك ويوجب استغرابك ودهشتك»
ومال مؤيد الدين الى استطلاع ذلك الخبر، فتوقف عنالمضغ وقال : « ما ذلك ؟ قيل لى انك جئت ومعك امرأة . من هى ؟ » . ثم عاد الى المضغ

فضحك سحبان وبادر الى قطعة من السكباجة أدناها من فيه وهو يقول : « هى طلبة الامير أحمد وهى الجارية التى فتك بأهل الكرخ من أجلها »

فقال : « كيف ظفرت بها ؟ الحمد لله على ذلك قد خلصنا من شر هذا الغلام ، أين كانت ؟ »

قال : كانت مخبأة عند جيراننا ، وأختى عالمة بذلك ، لكنها كتمته واحتملت الخطر من أجل كتمانه كما علمت ، لأنها رأت الجارية تكره أن تعود الى احمد هذا ، فلما جرى ما جرى وعدت أمس مع أهلى قصت على أختى خبر هذه الجارية وأرتنى اياها فأتيت بها الى هنا »

قال : « حسنا فعلت لأن الخليفة ألح فى التوصية بأن نبحث عن هذه الجارية ونعيدها الى ابنه حذر طيشه ، وقد حيرنى هذا الوالد بضعفه وحنوه »

فقال سحبان : « لكن الجارية لا تريد أن تعود اليه »

قال : « هى وشأنها ، نحن ندفعها الى الخليفة ونتخلص من تبعة أمرها »

قال : « انها أشد كرها للخليفة ، ولا تريد أن يعرف بوجودها هنا»

قال : « وكيف ذلك ؟ لم أسمع أن الجوارى يرفضن التقرب من الخلفاء »

قال : « لهذه الجارية شأن خاص لا يعرفه احد فى بغداد سواى »

قال : « لله انت ! ما أكثر ما تعرفه !. . »

قال : « لا أعرف ذلك لذكاء خاص أو لكرامة أو ولاية ، ولكن الأسفارتعلم الانسان أشياءكثيرة» . قال : «وماعلاقة ذلك بالأسفار؟ » . قال : « نى رأيت هذه الجارية بمصر وعرفت حديثها ، وهو ذو شجون ، لو عرفته لتولتك الدهشة من غرائب الاتفاق »

فازداد رغبة فى الاستطلاع وقال : « قل يا سحبان ، لا صبر لى على الاطالة » . قال : « ألم تسمع شكوى الخليفة من جارية طلبها من سلطان مصر وخطفت قبل وصولها الى قصره ؟ انها هىهذه الجارية نفسها »

قال بدهشة : « هى نفسها الجارية التى فرت من ابنه الى الكرخ؟» .

قال : « نعم ياسيدى هى بعينها ، هى شوكار جارية شجرة الدر التى سمع الخليفة برخيم صوتها وجودة صنعتها على العـود فبعث الى سلطان مصر يطلبها منه . وقبل دخولها بغداد سطا عليها بعض الناس بحجة انهم قادمون من قصر الخليفة لحملها اليه وفروا بها . وتحدث أهل بغداد بذلك زمنا ثم سكتوا ، وكان الباعث على ذلك السطو أن أبا بكر لما سمع بالجارية القادمة الى أبيه رأى أنه أولى بها ، فبعث من قبله أناسا أخـذوها من القادمين بها بدعوى أنهم آتون من قصر التاج لاستقبال مغنية أمير المؤمنين ، فلما صارت فى أيديهم أخذوها الى قصر أعده هذا الشاب لمثل هذه الحاجة ، وكان أهل قصر التاج فى انتظارها . ثم علموا أنها أخذت خلسة لكنهم لم يعلموا أين هى ، وما زالوا يجهلون ذلك الى الآن »

فاستغرب مؤيد الدين وقاحة ذلك الشاب وقال : « وماذا فعلت شوكار بعد ذلك ؟ ألم تستطب مقامها عند هذا الشاب ؟ »

قال : « ان هذه الفتاة لا يطيب لها المقام فى غير مصر لأنها مخطوبة لأمير من أمراء المماليك »

قال : « مخطوبة ؟ وبعث الخليفة يأخذها من خطيبها ؟ »

قال : «لم يعلم الخليفة أنها مخطوبة وانما يعلم أنها جارية شجرةالدر الملكة السابقة وأنها تحسن الغناء فطلبها من السلطان الجديد فلم يسعه مخالفة الأمر »

قال : « من هـو خطيبهـا ؟ » . قال : « هو ركن الدين بيبرس البندقدارى » . قال : « ركن الدين بيبرس ؟ انه بطل باسل ورجل حكيم اجتمعت به مرة فى مصر ونحن شابان وتكاتبنا غير مرة ، انى أعرفه شجاعا لايصبر على الضيم ، فماذا هو فاعل ؟ »

قال : « انه يكاد يتقد غيظا ، ولا أخفى على مولاى أنه أسر الى أمر هذه الجارية وأنا فى مصر ، وقد تعجلت السفر الى بغداد فى سبيل خدمته ، لعلى أقف على خبر خطبته ، وكان قد جاءه كتاب منها تنبئه فيه باختطافها من رجال الخليفة ، ولم تكن تعرف من اختطفها ، وربما جاء هو بنفسه للبحث عنها »

فأطرق مؤيد الدين مدة وهو يفكر فى حال ذلك الخليفة وابنه ، وفى اشتغالهمـا باللهـو عن الملك وقال : « هل تظن ركن الدين يأتى الى بغداد ؟ »

قال : « لا يبعد أن يأتى ، والآن اذا أذنت فلتبق شوكار عندنا ريثما يأتى هو أو نكتب اليه عن نجاتها وننتظر رأيه فيها »

قال : « وكيف استطاعت الفرار من قصر أبى بكر وهى غريبة هنا ؟ »

قال : « ساعدها على ذلك خصى كان فى خدمتها يعرف أهل المنزل المجاور لمنزلنا فحملها اليه بحيلة ، ولما علم أبو بكر بذلك جاء الكرخ كما علمت ، لكنه لم يستطع الوقوف على خبرها ، ولما علمت اليوم بوجودها اتيت بها الى هنا لأرى رأيك فيها »

فأخذ مؤيد الدين يفكر فيما سمعه وهو حذر يقظ ، فخاف أن يكون فى بقاء تلك الفتاة عنده باعث على سوء الظن به ، لعلمه بوجود الجواسيس حوله فقال : « أنظر يا صاحبى ، ان أمر هذه الفتاة أهمنى كثيرا ، وقد فرحت بنجاتها من الأسر ، وأحب استبقاءها ، لكنى لا أرى أن تبقى فى منزلى »

فبادره سحبان قائلا : « صدقت ، وأنا لا أطلب ذلك وانما أستشيرك فى الأمر ، وأحب أن يعلم بيبرس أن نجاتها كانت على يدك ، وهو قائد عظيم ننتفع برأيه وحزمه فى الأمر الذى تكلمنا فيه ، ولابد من الوصول اليه . . أن هذا القائد وعدنى وأنا فى مصر أنه يستطيع أن يقلب هذه الحكومة ويقتل الخليفة ويقيم لنا الدولة العلوية الشريكة بمصر وعند ذلك »

فأسكته مؤيد الدين بالاشارة وهمس فى أذنه قائلا : « لا تتطرف فى افكارك يا أخى . دعنا من التخيلات الى الممكنات »

فتعجب سحبان من انكاره ذلك عليه لأنه كان يعتقد امكانه ، ويعتقد أن ركن الدين وعده به ، مع أن ركن الدين لم يبد فى هذا الشأن غير السكوت . ولكن سحبان كان كثير التعويل على الأوهام فيبنى من الحبة قبة ، بينما مؤيد الدين كان على عكس ذلك . فلما أنكر عليه قوله اضطر سحبان الى السكوت والتظاهر بالاقتناع وقال : « هب أن أملى بعيد ، الا ترى فى مجىء ركن الدين نفعا لنا ؟ »

قال : « قد يكون حضوره نافعا لنا اذا أحسنا استخدامه ، ولا محل للكلام فى ذلك الآن »

فقاطعه قائلا : « ما لى أراك لا تجد محلا للكلام ، هب أنى وافقتك على رأيك واكتفيت بابدال خليفة بخليفة الا يجوز أن نبحث فى هذا ؟ »

قال : « يجوز يا صاحبى ، وتراني فى حيرة من أمر هذا الخليفة . تارة أراه معتدلا يمكن اصلاحه ، وآونة أقطع الأمل فى اصلاحه . سنفكر فى ذلك »

قال : « افرض أن المستعصم هذا يمكن اصلاحه ، أترى الامام أحمد ابن الظاهر أهلا ليقوم مقامه ؟ »

نبغت مؤيد الدين لهذا الاقتراح لأنه طالما فكر فيه ولم يخطر له أحد سوى الامام أحمد أهلا له ، لكنه لم يكن ليبوح به لأحد ، فلما سمع اقتراح سحبان أجفل وظهرت البغتة في عينيه وزادتا لمعانا وقال : « لا بأس به ، لكنه محبوس في قصر الفردوس كما تعلم ولا سبيل اليه »

قال متى تم رأينا على أمر لا يقف الحبس في طريقنا . وانما أطلب اليك أن تصرح لي برأيك . يكفيني منك تكتما ، ان التكتم حسن لكنه اذا زاد على حده يفشل صاحبه . قل لي ألا ترى الامام أحمد أهلا ليقوم مقام المستعصم ؟ »

قال : « انه نعم الخلف ، ولكن دون الوصول اليه خرط القتاد ، وسننظر في الخطوة الاولى . وأفضل اصلاح حال المستعصم لأن ذلك يغنينا عن التغيير والتبديل »

قال : « وأنا أدعوك الى اصلاحه » . وتحفز للنهوض وقال : « أما تريد أن ترى شوكار وتأذن لها في تقبيل يدك ؟ »

قال : « لابأس من ذلك وان كنت أرى أن تسرع باخراجها من هذا المنزل »

قال : « تقبل يدك وتذهب حالا » . ونهض ومشى ثم عاد ومعه شوكار ، وكانت قد تغيرت سحنتها من فرط ما قاسته من العذاب والهموم ، فلم يفرج همها الا في ذلك اليوم لما رأت سحبان وطمأنها على ركن الدين وأنه بعثه للتفتيش عنها ، وأصبحت تتوقع سرعة الرجوع الى مصر أو وصول ركن الدين الى بغداد . فلما دخلت على مؤيد الدين أكبت على يده تقبلها ، وقد غلبها البكاء وبللت كفه بالدموع ، فاجتذب يده من يدها وقال : « لابأس عليك يا بنية لا تخافي أن أمير المؤمنين لا يظلم أحدا ، وان الله لا يتخلى عن أحد »

فأطرقت برأسها حياء وهي واقفة وقالت : « أحمد الله الذي وسط هذا الشهم في ايصالي اليك ، وأنا لا أطلب شيئا غير ارجاعي الى مصر » . وغصت بريقها

فقال مؤيد الدين : « ستعودين في خير ان شاء الله » . وتحرك من مقعده ونهض ، وأومأ سحبان الى شوكار أن تتبعه ، وودع مؤيد الدين شاكرا ومشى ، فتبعته شوكار فأسرع الى اخفائها في منزل لبعض أهله في الكاظمية

مؤيد الدين وهولاكو

اما ابن العلقمي فما كاد يخلو بنفسه حتى صعد الى الشرفة ، والشمس قد مالت الى المغيب ، وتوسد فراشا على مقعد يطل على دجلة ، وقد تاقت نفسه الى الوحدة والتفكير فيما هو فيه من مشاغل . فلما سمع أذان المغرب نهض للصلاة فى مسجد بالقرب من منزله ، وهو يتوقع أن يرى فى الصلاة راحة . وليس للمؤمنين فى ساعة القلق سبيل الى الراحة والطمأنينة خيرا من الصلاة والدعاء الى الله أن يهديهم سواءالسبيل وينقذهم من المخاطر

احس مؤيد الدين حاجته الى الراحة فأسرع الى المسجد وأخذ يصلى ، فلما فرغ رأى شيخا من الصوفية راكعا بالقرب منه وسمعه يتمتم بالصلاة فلم يهتم به ، ثم رآه يزحف نحوه ، وكدرته وقاحة ذلك الصوفى وظنه مصابا فى عقله ، فالتفت اليه شزرا وزجره بلطف ، فازدجر الرجل هنيهة وأظهر أنه يصلى . فعاد مؤيد الدين الى صلاته ودعائه ، واستغرق فى التوسل الى الله أن يهديه سبيل الرشاد

ولما فرغ نهض وتحول نحو الباب فوجد أناسا واقفين للسلام عليه فحياهم ومشى ، ولما وصل الى المنزل اذا بذلك الصوفى واقف بجانب الطريق وبيده مسبحة وهو يتمتم كأنه يدعو ، فلما دنا مؤيد الدين منه تقدم الصوفى والمسبحة فى يده وهو يبتسم وقال « انى أستطلع الغيب وأنبئك بما تفعله يا مؤيد الدين »

فلما سمع ذلك اجفل لأنه قيل له بلحن الأمر وفيه صيغة العجمة ، فعلم أن مخاطبه غير عربى وانه ليس من الفقراء المتسولين ، وانه لأمر ذى بال تعرض له فى الطريق على هذه الصورة ، فالقى على الرجل نظرة متفرس ، وتأمل لباسه ووجهه ، فرأى عليه قلنسوة الصوفية وجبة الصوفية وفى يده مسبحة الصوفية ، لكن سحنته غير سحنتهم ، ولحيته غير لحيتهم ، فأجاب قائلا : « من انت يا رجل؟»

قال : « انى بصير بخفايا القلوب قادر على تفريج الهموم اكشف

لك ماخفى عليك وأرشـــدك الى الطريق السوى ، وان لم تصدقنى فجرب » .

فأومأ اليه أن يتبعه ، وأشار الى البـواب أن يدخله الى غرفتـه الخاصة ، ودخل هو وقد شغل خاطره بهذا الدرويش ، ومال كل الميل الى الاسترشاد برأيه ، وهو يعتقد الكرامة بأصحاب الكرامات ، وتمنى أن يكون هذا منهم . وبعد قليل دخل الدرويش وقد أدخل احدى يديه بكم الاخرى وقبض بالأنامل المطلقة على مسبحة أخذ يعد حباتها ، فأشار اليه مؤيد الدين أن يقعد ، وسأله اذا كان يحتاج الى طعام فقال : « لا » . فأومأ الى الخادم أن يخرج ويغلق الباب وراءه ففعل . ثم نظر الى الدرويش وتفرس فى وجهه فلم يذكر أنه يعرفه ، ولم ير فى وجهه سحنة التصوف فقال له : « أرشدنا بعلمك ياشيخ »

قال : « أرنى يدك مفتوحة »

ففتحها وأراه باطنها فنظر فيها مليا ثم قال : « أنت تفكر فى أمر عظيم الأهمية شديد الخطر عليك وعلى أهلك وسائر عشيرتك » . فأشار مؤيد الدين برأسه أن : « نعم »

فأعاد الدرويش النظر الى كف الوزير كأنه يقرأ كتابا مخطوطا ، ثم رفع بصره الى مؤيد الدين وقال : « ان المشكلة التى انت واقع فيها يسهل التخلص منها اذا شئت »

فقال : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « ينبغى أولا أن تنظر الى مصلحة نفسك وقومك ، ولا تتقيد باعتبارات وهمية لا قيمة لهـا الا عنـد ضعفاء القلوب . فهل أنت من هؤلاء ؟ »

فاستغرب مؤيد الدين اقترابه من الحقيقة بهذه السرعة ، وأحب زيادة الايضاح فاستل يده من بين أنامل الصوفى وقال : « قل قبل كل شيء ما اسمك ؟ » . قال : « اسمى رسول الى مؤيد الدين » . ففرح لأن ظنه كان فى محله ، أى أن الرجل ليس صوفيا فقال له : «من أرسلك ؟ » . قال : « صديق نصوح يريد بك وبأهلك خيرا ، لكنك لا تعرف كيف تنتفع بالفرص التى تقع لك »

فعلم مؤيد الدين ان الرجل رسول متنكر فقال : « افصح يارسول الخير ، من أين أنت آت ؟ لا تتهيب » . فقال : « انى رسول من خاقان عظيم لا يلبث أن يأتى بلادكم ويفتحها عنوة ولا قبل لكم بدفعه »

فعلم مؤيد الدين أنه يشير الى هولاكو التترى ، لأنه جاءه منه غير كتاب من قبل يدعوه الى مشايعته على الخليفـة المستعصم ويعـده ويمنيــه ، ولكنه هو يتردد ، فتجاهــل وقال : « من تعنى ؟ » .

قال : « أعني مولاي الخاقان هولاكو ، ألا تعرفه ؟.. قد كتب اليك مرارا يدعوك الى التخلص من هذا الخليفة الضعيف عشير النساء والمغنين وأنت لا تجيب ، فأمرني أن آتيك مرشدا ناصحا . ولا يخفى عليك أن مثلي لا يدخل هذا المدخل ، ويتعرض لهذا الخطر ، الا اذا كان قد باع نفسه في سبيل الحق . فأنا أدعوك باسم مولاي أكبر السلاطين أن تكون معه على هذا الطاغية فتخلص أنت وقومك الشيعة من الظلم والعسف ، وتكون لك المنزلة الاولى عند صاحب هذا البلد حينئذ ، لا تكن ضعيفا ، ما لي أراك مطرقا كأن نفسك تحدثك باعتبارات تقدر لها قيمة لا تستحقها ، وكأنك تقول في سرك لا يليق بك أن تخلف ظن مولاك الخليفة فيك . لعله لم يخلف ظنك فيه ؟ أنا هنا منذ أيام ، وقد اطلعت على ما جرى بينك وبينه وبين ابنه ، ورأيتك تتململ وتتذمر ، وانما ينقصك الحزم فتنقذ نفسك وأهلك وعشيرتك ، والا فأنتم هالكون لا محالة »

فأكبر مؤيد الدين هذا التهديد من رسول غريب ولكنه رأى في في وجه ذلك الرسول هيبة وجرأة لاتوجدان في عامة الناس . فقال : « اهد مولاك شكري لما عرضه علي ، وقل له ان طلبه لا سبيل الى اجابته ، وقد رأيته يعرض بعجز هذه الدولة عن مقاومته ، لقد أخطأ كل الخطأ لأن جندنا لا يغلب من قلة ولا من ضعف ، ونحن على ثقة من الفوز اذا نشبت الحرب بيننا وبينه »

فضحك الرجل وقال : « أتيت اليك على اني منجم يقرأ الافكار ، وها أنذا أقرأ فكرك الآن من وراء ما تقول ، انك تقول غير ما تعتقد ؛ أنا اعرف كل ما تحاول اخفاءه من اضطراب الجند وفساده ، فأصغ لهذا النصح . واعلم أننا لا نكلفك تعبا ولا خطرا ، ولا نطلب منك أمرا عظيما . ان البلد نحن فاتحوه لا محالة ، فاذا توسطت معنا قللت من القتل والفتك ، لأننا نحب أن ينحصر الأذى في صاحبه المسبب لهذه الشرور ، ولا ذنب للرعايا ، وبخاصة الشيعة الذين قضوا الأجيال المتوالية وهم يتحملون انواع العذاب من هؤلاء الخلفاء ، ومن هذا المهذار . وقد يصعب عليك أن ترجع عما قلته الآن وزعمته في الدفاع عن مولاك المستعصم ، فأنا لا أكلفك الرجوع الساعة ، ولكنني أرشدك الى الصواب واترك لك الوقت الكافي للتفكير . وأما مولاي الخاقان هولاكو فانه فاعل ما يريده ، ولا يلبث أن يأتيكم كتابه بالانذار والتهديد ، فان لم تصغوا الى مطالبه حل عليكم وفعل ما يشاء . وثق أنه الغالب الظافر ، فاذا كنت تحب بلدك وأهلك فابعث الى مولاي الخاقان كلمة بأنك على ولائه فتنجو وتكون لك الكلمة النافذة

والصوت الأعلى ... أظنني أطلت الكلام عليك فاعذرني » . قال ذلك، ووقف ومد يده الى جيبه واستخرج لفافة في أسطوانة من القصب وقدمها له وهو يقول : « وهذه رسالة من مولاي اليك لا تفتحها الا بعد خروجي » . قال ذلك وخرج

فدهش مؤيد الدين لما شاهده من ذلك الرسول ، وظل ينظر اليه حتى رآه خارجا من باب الدار ، وقد أثر كلامه فيه تأثيرا شديداً ، وعاد الى غرفته وفض الرسالة وأخذ يقرأ فيها :

« اعلم يا مؤيد الدين أن الرسول الذي خاطبك هو الخاقان هولاكو نفسه ، وقدبذل لك النصيحة فانتصح ، ولاتطمع في تعقبه فانك لاتجد الى ذلك سبيلا . وكان في وسعي أن تبقى على اعتقادك. ولا تعرف من هو مخاطبك ، لكنني أحببت نصحك فانظر في أمرك . وابعث برسالتك الى كما قلت لك قبلا »

فأعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة وقد تولته الدهشة وأوشك أن يكذب بصره وسمعه لغرابة ما شاهده ، وأطرق هنيهة وهو يخاطب نفسه قائلا : « هولاكو نفسه خاقان التتر ، وفي خدمته مئات الالوف من الرجال لايثق بأحد منهم في مهماته فيأتي بنفسه متنكرا تحت هذا الخطر لكي يخاطبني ، وكان في امكانه أن يبعث رسولا ولكن الهمة العالية والحرص على الملك يدعوانه الى ذلك . لاريب ان هولاكو يعرف أسرارنا كما نعرفها نحن ، ويعرف عددجندنا وعلاقة قوادنا بخليفتنا . يعرف كل شيء . أين ذلك من خليفتنا المشتغل باللهو والغناء عن أمور الدولة ، ويهمه العثور على شوكار المغنية أكثر من دفع العدو عن بغداد ؟ . هذه علامات الزوال . هكذا كان حال الروم لما قام العرب لفتح بلادهم ، كان خلفاؤنا وقوادنا العظام من الصحابة وغيرهم يتولون أمورهم بأنفسهم ، لايعولون على أحد و لايشتغلون بغير الجهـاد ، وكانوا قليلين فغلبوا جيوش القياصرة والاكاسرة »

ثم أطرق وتراجع وندم على ما خطر له وقال لنفسه : « لا . لا . ان الدولة العباسية باقية أبد الدهر ، لا تزول من الارض ، وانما هي في حاجة الى الاصلاح ، الى خليفة آخر »

وكان الليل قد أسدل نقابه ، فوضع تلك الورقة تحت الوسـادة وطلب العشاء ، ثم ذهب الى الفراش مبكرا ليرتاح مما مر به في ذلك اليوم ، وتوالت عليه الخواطر المتضاربة لكن ولاءه للخليفة ظل غالبا على عقله . وكان ليله مأهولا بالاحلام ، ولم يفق في اليوم التالي الا على ضوضاء طلبة المستنصرية وهم خارجون لصلاة الضحى

وأحب البقاء في الفراش لأعمال الفكر فيما شغل خاطره . والانسان

فى الصباح قادر على التفكير ، وتفكيره أقرب الى الصواب من سائر الاوقات ، فلم يزدد الا ثباتا على الولاء للخليفة والرغبة فى اصلاحه ، فارتاح باله لأنه استقر على رأى — وليس أتعب للانسان من التردد بين رأيين ، فنهض من فراشه وأخذ فى لبس ثيابه ، ولم يبق فى ذهنه الا مسألة شوكار . وكان يود أن يسلمها الى الخليفة ويتخلص من القيل والقال لو لم يحل سحبان دون ذلك ، وعذره مقبول . فخطر له أن يبعث فى طلب سحبان ليكرر له الوصية باخفاء مكان تلك الفتاة ، لكنه توقع مجيئه من تلقاء نفسه

مضى ذلك النهار ولم يبرح مؤيد الدين منزله التماسا للراحة وقضاء بعض المهام الخاصة ، وجاء الغروب وأقبل العشاء ولم يأته سحبان فهم بالذهاب الى الفراش ، وقبل أن ينزع ثيابه تذكر الكتاب الذى دفعه اليه درويش الامس ، ورأى أن يعدمه لئلا يقع فى يد أحد فيجعله وسيلة للايقاع به ، فتذكر انه وضعه تحت الوسادة ، فافتقده هناك فلم يجده ، فأخذ يبحث عنه فى جيوبه فلم يقف له على أثر ، فخفق قلبه لئلا يكون قد سمع حديثهما أمس جاسوس وسرق الكتاب وأخذه الى الخليفة

☐

وبينما هو فى ذلك اذ سمع قارعا يقرع الباب الخارجى بعنف ، فاجفل ومكث ينتظر الخبر واذا بالبواب يدخل وهو يقول : « ان سحبان بالباب ومعه رفيق ، هل يدخلان ؟ »

فاطمأن باله وارتاح الى قدوم سحبان فى تلك الساعة لعله يخفف عنه بعض الشىء ، وأحب أن يعرف من هو رفيقه ، ولم تمض لحظة حتى أقبل سحبان وهو يبتسم وألقى التحية ، ثم تنحى وقدم رفيقه باحترام وأشار اليه أن يدخل ، فنظر مؤيد الدين الى ذلك الرفيق فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا عيناه وما يحيط بهما ، ورأى السواد غالبا على لونه كأنه عبد حبشى ملثم ، ورآه يمشى نحوه الهوينى ، وسحبان واقف باحترام ، فاستغرب مؤيد الدين ذلك فقال : « من هو رفيقك يا سحبان ؟ »

قال : « ستعرفه الساعة ياسيدى » . وتقدم حتى أقعد ذلك القادم على كرسى فى صدر الغرفة ، وأشار اليه أن يتفضل بازاحة اللثام ، ومؤيد الدين ينظر اليه من جانب المصباح ، فأزاح الرجل اللثام ، وحالما وقع نظر مؤيد الدين عليه اختلج قلبه فى صدره وصاح : « مولاى الامام احمد بن الظاهر ؟ من أين أتيت به ياسحبان ؟ » . وأكب على يده

يقبلها ، وكان الامام احمد اسمر اللون لأن أمه حبسيه

فضحك سحبان وقال : « أتيت به طوعا لأمرك »

فصاح مؤيد الدين : « ويلك ! متى طلبت اليك احضار مولانا الى هنا ؟ كيف تأتى لك ذلك وهو محبوس وعلى قصره الحراس والجواسيس؟ ان شؤونك كلها غريبة يا سحبان ! »

قال : « انك لم تطلب الى احضاره ، لأنه لم يخطر لك استطاعتى ذلك . ولكن الحديث الذى دار بيننا امس يدل على انك تحب أن تراه وتستوثق من رضاه » .

فقال : صدقت ، لم يخطر لى انك تستطيع ذلك ، وكيف أقدمت على هذا الخطر ؟ لله أنت من شجاع مقدام ! وانما ينقصك التؤدة والتبصر »

فقال : « ما ينقصنى تكمله أنت بحكمتك ودهائك ! »

وتوجه مؤيد الدين نحو الامام أحمد ، وكان يومئذ فى ابان الكهولة وقد ظهرت السكينة عليه ، وقعد بين يديه على وسادة باحترام ووقار وأخذ يرحب به . فتقدم سحبان وقال : « انى رجل متسرع ، ولا أحب المطاولة أو التسويف ، وأكره التردد ، وقد أعجبنى منك أمس ثقتك بمولانا الامام احمد ، وان رأيك فيه وافق رأيى وهذا دليل الصواب ، والآن ها هو ذا صاحب الشأن لم أكلمه فى شىء بعد ، وانما سعيت فى انقاذه من السجن »

فقال : « وكيف استطعت ذلك ، ما هذه الجراة ؟ »

قال : « استطعته بمعونة الله ، وعسى أن استطيع ما هو أهم منه ، وأرى هذا الامام العاقل العادل خليفة يتولى أمورنا بدلا من ذلك الـ . . »

فتصدى الامام أحمد للكلام قائلا : « لا تقل شيئا يا بنى ، ان الخليفة المستعصم بالله لابأس به لولا تسلط ابنه على رأيه ورغبته فى اللهو ، وهذا ما يمكن ملافاته فلا تحولوا قلوبكم عنه . . »

فقال سحبان : « نعم الرجل انت ياسيدى . . أما خليفتنا فلا أمل لنا فى اصلاحه ، ولا بد من تغييره ، ومولانا الامام احمد أولى بالخلافة منه لأنه أهل لها من كل وجه ، وهو اخو المستنصر رحمه الله ، ولايخفى عليك ما أتاه المستنصر من الاعمال الشاهدة بحسن السيرة والتقوى والرغبة فى العمران . . » .

فقاطعه الامام قائلا : « لو علمت انك جئت بى لأسمع منك ماسمعته لفضلت البقاء فى سجنى ، اننا فى طاعة أبى أحمد المستعصم ابن أخى . واذا أخطأ فعلينا نصحه وكفى »

فلم يستغرب مؤيد الدين حذر الامام وانكاره وما ظهر من تسرع سحبان ، وان كان يعتقد رغبته فى الخلافة أكثر من رغبتهما ، وانما هى التؤدة والدهاء وحسن السياسة لابد منها فى مثل هذه الحال. فالتفت الى الامام وقال : « ان صديقى سحبان يعبر بعمله عن شعور كل مسلم ، ولا سيما قومنا الشيعة العلوية ، فانهم قاسوا فى أيام ابن أخيك هذا مر العذاب مما لايمكن اخفاؤه ، وان كنت لا أرى التسرع فى الأمر الى هذا الحد وعلى هذا الشكل لأننا لم نخط خطوة واحدة فى سبيل ما نحن فيه » . والتفت الى سحبان وقال : « أخرجنا مولانا الامام من قصره فأين نضعه الآن ؟ واذا عرف الخليفة غدا انه ليس فى قصر الفردوس فلا يتهم به سوانا والجند فى يده يفتك كما يشاء »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « لا تخف انى أعود به الى قصره الليلة ، وقد دبرت ذلك بحيث لايشعر به أحد . وانما جئت به لتطلعه على غرضنا بناء على قولك انه يكفينا الآن ابدال خليفة بخليفة ، واتفق رأينا على ان مولانا الامام أحمد أولى العباسيين بذلك » . والتفت نحو الامام وقال : « وأرغب الى مولانا أن يرفع كل حجاب بيننا وبينه ويكفينا مؤونة المجاملة والحذر فانى لا أحب الا الصراحة . ونحن الآن نطلب من مولانا أن يجيبنا عن هـذا السؤال . (اذا استطعنا قلب الحكومة وأردنا تنصيب خليفة فهل يقبل الامام أحمد أن تكون الخلافة اليه ؟ وهل يعدنا خيرا ، ولاسيما من جهة الشيعة ومعاملتهم ؟) . . »

وبرغم مارآه مؤيد الدين من التسرع فى عمل سحبان ، فانه وافقه على هذا الاقتراح ورأى الصواب فيه ، وعلم ان المشروعات الكبرى تفتقر الى الاقدام والحزم مثل حاجتها الى التروى والتؤدة . فأطرق وهو ينتظر ما يقوله الامام فاذا به يقول : « ان الخلافة يا أولادي اذا أتتنى لايمكننى التخلف عنها خوفا على مصالح المسلمين . واذا أبيت فانى أرتكب خطأ أو معصية ، واذا صرت خليفة فأول واجب على اجراء العدل وانصاف المظلومين من آل بيت الرســول صلوات الله وسلامه عليه »

فقال مؤيد الدين : « بارك الله فى مولانا ، واذا وفقنا الله الى ما نبغيه فانما يكون لصالح المسلمين ، ونشكر لمولانا قبوله القيام بتلك المهمة ، انما آسف لأن صديقى سحبان كلفك مشقة الخروج الينا فضلا عن الخطر »

فتصدى سحبان قائلا : « لا مشقة هناك ولا خطر ، ويمكن بقاء الامام خارج قصره عدة أيام ولا يشعر أحد بغيابه ، لأنى وضعت فى مكانه رجلا كثير الشبه به . استطعت ذلك بما بينى وبين قيم ذلك القصر من الصداقة ، وهو راغب فى قلب هذه الخلافة أكثر من رغبتنا

لأن هذا الخليفة وابنه لم ينج احد من اذاهما . كن مطمئنا ياصاحبي ، واذا كنت خائفا من التجسس عليك فها نحن اولاء ذاهبون عنك الساعة» . وتحفزللوقوف ، وهم الامام أحمد بأن ينهض، فنهض مؤيد الدين باحترام وقال : « انمولانا الامام قدشرف منزل مملوكه ، وأطلب الى الله أن يمن علينا بصيرورة الأمر اليه ويوفقنا الى القيام بخدمته »

خرج الضيفان وخرج مؤيد الدين لوداعهما ، ولما عاد الى غرفته عاد الى التفكير فى كتاب هولاكو وكيف أضاعه ، وعاد الى التفتيش عنه فى كل مكان حتى كل دماغه وتوالت عليه الأوهام والمخاوف ، لعلمه ان عيون الجواسيس لا تنام عن استطلاع اخباره والوشاية به ، فتولاه القلق ، وذهب الى فراشه فلم يستطع الرقاد وعاد يفكر فى ذلك الكتاب وأين هو ؟ وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره فى الامام أحمد وسحبان وهولاكو وما هو فيه من القلق على قومه وعلى نفسه ، وتعاظمت مخاوفه وهو تحت الغطاء لأن الظلام يكبر الاوهام ويعظم الاشباح ، وأفاق فى الصباح وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما

وليس على الانسان اشد وطأة من التردد بين أمرين مهمين لايدرى أيهما يتبع ، ويغلب ان يكون سبب التردد تنازعا بين العقل والقلب ، فمتى غلب أحدهما انتهت الازمة واستقر الرأى وهدأ الخاطر . وكان مؤيد الدين يتنازعه عاملان : أحدهما يدعوه اليه عقله وهو أن فساد الحكومة ذاهب بالدولة الى الخراب ولايرجى صلاحها الا بابدال الخليفة ، ولا يستطاع ذلك الا بيد قوية قاهرة مثل يد هولاكو ، ويخامر هذا الحكم العقلى شعور قلبى فيه انتقام من ابن الخليفة وثأر للعلويين من أهل السنة . والثانى يدعوه اليه قلبه أو ضميره اذ يبكته على هذا العمل لأنه خيانة لمولاه الذى أقسم على طاعته

على ان ضياع كتاب هولاكو احدث عاملا آخر شديد الوطأة على قلب مؤيد الدين ، اذ ترجح لديه أن يدا أخذت ذلك الكتاب عمدا ، ولا يلبث أن يصل الى عدوه الذى يتجسس عليه فيجعله حجة ضده ويتهمه بالمؤامرة مع أعدائه . ثم تذكر فحوى الكتاب، فلم يجد فيه ما يبعث على تهمة المؤامرة ، لكنه يدل على مخابرة جارية بين عدوالبلاد ووزيرها

فلما تصور ذلك خيل له ان الخليفة اذا علم به يأمر بالقبض عليه أو يقتله ، ولا سيما اذا دخل ابنه ابو بكر فى ذلك ، فلا تبقى له حيلة فى النجاة ، فمن الحزم أن يتدبر الامر ويتلافى الشر قبل وقوعه أو

يستعد له على الاقل . وتذكر ما وعده به هولاكو من الحسنات اذا هو أطاعه وكتب اليه بالمجيء ، فخطر له أن يبعث اليه فى ذلك ، فاشمأزت نفسه من هذا الخاطر ، ثم اعترضه ما يهدده من الخطر اذا ظل ساكتا فاشتد تحيره ، فنهض من فراشه وأخذ يتشاغل بلبس ثيابه وهو غارق فى التفكير ، فغلب عليه الدفاع عن حياته وهم بالكتابة الى هولاكو ، فأمر قيم الدار أن يأتيه بغلام من عبيده ، فأتاه بشاب أصله من رقيق تركستان وقد دخل قصر الوزير من عهد غير بعيد وليس فيه نباهة . فلما وقف الغلام بين يديه تفرس فيه ، ثم أمر القيم أن يحلق له شعر رأسه ففعل . وجاء الغلام ورأسه كأنه صفحة بيضاء . وكان ذلك القيم قد ربى فى بيت مؤيد الدين وله اطلاع على مكنونات قلبه ، وهو شديد الغيرة عليه ، وقد أدرك غرضه من طلب ذلك الغلام على هذه الصورة . فلما عاد به ناداه مؤيد الدين قائلا : « ألم تفهم مرادى؟ » . قال : « نعم يا مولاى . انى رهين الاشارة » . قال : « الى بالابر والكحل وأغلق الباب وراءك »

فذهب وعاد بالابر والكحل وأغلق الباب ، وقعد على مقعد وأمر الغلام أن يجثو أمامه بحيث يصبح رأسه بين يديه . ثم تقدم مؤيد الدين وبيده ورقة قد كتب عليها كلمات قليلة ، وأومأ الى القيم أن ينقشها على رأس الغلام بالابر وبذر عليها الكحل كما يفعل الوشامون فتناول القيم الورقة وقرأ فيها : « تعال الينا بقوتك وجندك» . فأدرك انها رسالة الى هولاكو ، وكان من أشد الناس عداوة للخليفة وحاشيته لأنه شيعي وقد أصابه شيء من أذاهم ، فأخذ فى نقش الرسالة على رأس الغلام ، وهو لسذاجته كالبهيمة لايفهم شيئا . فلما فرغ القيم من ذلك نظر الى مؤيد الدين وابتسم ، فأشار اليه أن يحتفظ بذلك الغلام حتى ينبت شعره ويغطى تلك الكتابة ، فاذا ظل على اعتزامه استقدام هولاكو أرسل الغلام اليه . ويكفى أن يقال لهولاكو أن هذا الغلام قادم من مؤيد الدين فيحلق رأسه ويقرأ ماعليه ثم يقتله . فاذا رأى العدول عن ارسالها استبقى الغلام عنده وشعره يكسو رأسه ، لأنه لم يزل الى تلك الساعة مترددا ، وضميره غالب على ارادته وهو يرجو أن تصلح الشؤون بالمسالمة

وأحس مؤيد الدين فى تلك الساعة براحة ، وعاد الى شواغله وهى كثيرة ، أهمها النظر فى أمور الدولة . فركب بغلته الى قصر التاج للنظر فيما جاء به البريد أو ماحدث من الأمور العامة ، وكان يفكر طول الطريق فى الكتاب الضائع ويراقب حركات القوم هناك ليتحقق ما كان من أمره ، فلما لم ير ما يبعث على سوء الظن اطمأن باله وعاد الى منزله وقد ذهب قلقه

بين المستعصم وهولاكو

مضت على تلك الحال أيام ، وقد نسي مؤيد الدين أمر الكتاب وهولاكو ، ولم يسمع عن ابن الخليفة شيئا يسوءه . فظن خيرا وتوهم ان ذلك الشاب رجع عن غيه بعد أن أحس بحرج المركز والخطر الذى يهدد المملكة بسبب الانقسام . لكنه أصبح ذات يوم وقد جاءه رسول المستعصم يدعوه سريعا ، فركب بغلته وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب هذه الدعوة العاجلة ، وتذكر الكتاب الضائع ، فخاف أن يكون لتلك الدعوة علاقة به ، فتجلد حتى أتى قصر التاج ، ودخل على الخليفة وهو جالس فى ديوان الخاصة وعنده ابنه أبوبكر والداودار، فاستعاذ بالله من ذلك الصباح ، لكنه دخل والقى السلام، فرد المستعصم التحية ودعاه الى الجلوس ، ثم دفع اليه كتابا كان بجانبه على السرير فتناوله مؤيد الدين وقرأه واذا فيه :

« من الخاقان العظيم هولاكو سلطان السلاطين الى المستعصم بالله العباسى . اما بعد فاننا قد مللنا المماطلة ونحن صابرون . أما آن لك أن ترعوى وتعرف قدرنا ؟ بعثنا اليك نستعينك على الاسماعيلية الفتاكين القتلة ، ونحن لانخافهم على أنفسنا كما نخافهم عليك فأبيت . فدلنا ذلك على سوء رأيك ، فبعثنا نعاتبك على عملك فأجبتنا جوابا باردا لايشفى غليلا وشفعته بهدية هى أولى أن تهدى اليك كأنك تظننا فى حاجة الى المال ، ولم ترسل الينا رسولا يخفف من غضبنا ، وقد كنا نقنع منك برسول عاقل . أما الآن فلا يرضينا الا أن تأتى أنت بنفسك أو ترسل الينا وزيرك أو قائد جندك للاعتذار ، وان لم تفعل فلا تلومن الا نفسك .. والسلام »

وما فرغ من تلاوة الكتاب حتى أخذ منه الاسف مأخذا عظيما ، ونظر الى الخليفة فرآه مطرقا يفكر ، فظنه قد اعتبر ولا يلبث أن يطاوعه فى استرضاء هذا الفاتح التترى ، فاذا هو قد وقع بصره اليه وقال : « كيف رأيت أيها الوزير ؟ » . قال : « الرأى لمولاى أمير المؤمنين »

قال : « هل أعجبتك وقاحة هذا التترى ، وما جزاؤه عندك ؟ »

فلما سمع هذا التعبير استغربه ، وشعر أن الخليفة لم يقدر مركزه حق قدره ، فقال : « أستأذن مولاى فى أمر لابد لى من التصريح به . ان هذا الرجل أصبح الآن شديد البطش ، وقد علمنا من جواسيسنا انه فاز فى حروبه مع الفرس وغيرهم ، وأصبح جيشه عديدا ، وعنده العدة والمؤونة ، واذا لم نجبه جوابا حسنا حمل على بغداد ،فالذى . . »

فتعرض ابو بكر للكلام باستخفاف وقال : « يحمل على بغداد ؟ وهل ينال غير الخزى والفشل اذا حمل عليها ؟ »

فازداد مؤيد الدين أسفا ولم يجبه ، لكنه وجه كلامه الى الخليفة وقال : « فالذى أراه أن نسترضيه ريثما نتأهب »

فقال الخليفة : « بماذا نسترضيه ؟ . انه يطلب منى أن أذهب اليه بنفسى أو أرسل اليه الوزير أو الداودار ، ألم يكن الاولى أن نتلافى الأمر قبل تفاقمه ؟ »

قال الوزير وقد أعجبه اذعان الخليفة للحقيقة : « كان ينبغى ذلك ، ولم يقصر العبد فى أداء النصيحة فى المرة الماضية لما جاء كتاب هولاكو هذا ، فقد شرحت لمولاى ما نخافه من هؤلاء ، ورغبت الى أمير المؤمنين أن يبعث اليه بالهدايا الفاخرة من الجواهر والمماليك والجوارى فان القوم يرضيهم ذلك ، فاعترض الداودار يومئذ ، واتهمنى بالضعف ، وظننى أفعل ذلك ممالأة للعدو ، وأطاعه مولاى فأرسل هدية حقيرة أغضبت هولاكو فكتب ما كتب »

وكان الداودار جالسا فلما سمع ذكر اسمه تصدى للكلام قائلا : « أظن الوزير يريد منا أن نذعن لهذا الطاغية ونسترضيه بكل ماعندنا ، ولو فعلنا ذلك لم يزدد الا عتوا وطمعا »

فقال الخليفة موجها خطابه الى الداودار : « وماذا يرى قائدنا الآن ، هل يذهب اليه بنفسه كما يطلب ؟ »

قال وهو يظهر الانفة والعظمة : « نعم اذهب اليه محاربا اذا شاء مولاى »

فاستغرب ابن العلقمى غرور هذا القائد ، وهو يعلم عجزه عن ذلك ، مع فراغ الخزانة من الأموال، حتى اضطر الخليفة أن يقتصد من أعطيات الجند . وكان مؤيد الدين قد اشار عليه بذلك ليجمع مالا يرضى به التتر لعلهم يعودون بلا حرب . وكان جيش بغداد ١٠٠,٠٠٠ فارس فسرح منه ٨٠,٠٠٠ واستبقى عشرين ألفا والداودار يعلم ذلك . فهل يحارب التتر بهذا العدد ؟ . أما الخليفة فلم يكن يجهل هذه الحقيقة . فأجاب الداودار قائلا : « كيف تخرج لمحاربتهم وليس عندك الا عشرون ألفا ؟ »

قال : « صدق أمير المؤمنين ، ان هذا العدد لايكفى الآن لكننا نجند سواهم »

فقال : « هل يسهل التجنيد ؟ »

قال : « كيف لا ؟ . ان المال الذى أشار الوزير باقتصاده من أعطيات الجند يكفى للتجنيد. سامح الله الوزير، انه أخطأ بأخذه بهذا الرأى ولم نستفد منه الا نقمة الجند علينا »

فأراد الخليفة أن يدفع عن الوزير ، فتصدى أبو بكر وقال : « وما الذى يهم الوزير رضى الجند أو غضبوا ، انما يهمه ألا يغضب هولاكو »

□

فكان لهذا الكلام وقع شديد على نفس ابن العلقمى ، وتذكر كتابه الضائع فخاف أن يكون لهذا الكلام علاقة به ، فأغضى عن وقاحة ذلك الشاب الى مخاطبة الخليفة ، ثم أجاب الداودار فقال : « ان ما أشرت به من قبل لا أزال عليه حتى الآن . وما جمع لدينا من المال المقتصد لو استرضينا به هولاكو لرضى وكفانا مؤونة الحرب . أما الآن وانت قائد الجند ، فاذا كنت ترى جندنا قادرا على الحرب ، فالرأى راجع لأمير المؤمنين »

فنظر الخليفة الى ابن العلقمى وقال : « هل هذا هو رأى الوزير فيما نحن فيه »

قال : « نعم أرى أن نسترضى هولاكو بما أمكن غير الحرب »

قال الخليفة : « انه يطلب أن أذهب أنا اليه أو انت أو الداودار »

قال : « يرسل المولى من شاء منا »

فقطع أبو بكر أحمد كلامه قائلا وهو يضحك متهكما : « أظن الوزير يتمنى أن يذهب هو بهذه المهمة لزيارة صديقه الخاقان » . وقهقه ضاحكا

فاستغرب المستعصم هذا القول ، ونظر الى ابنه نظرة توبيخ على هذا المزاح ، فوقف أبو بكر وأظهر الجد وقال : « انني أقول الحق يا أبي . اسأل الوزير ألم يكن بينه وبين هولاكو صداقة ومراسلة ؟ »

فأجفل الوزير وترجح عنده أن أبا بكر مطلع على شىء مما بينه وبين هولاكو ، فأظهر اشمئزازه من ذلك الحديث والتفت نحو الخليفة معاتبا ، فالتفت الخليفة الى ابنه وقال : « لا محل لهذا الكلام يا أحمد الآن » . فمد أبو بكر يده الى جيبه وأخرج كتابا دفعه الى أبيه وقال : « وهذا الكتاب يشهد بذلك » . فتناول المستعصم الكتاب وقرأه ،

ثم نظر الى مؤيدالدين فرآه مطرقا ، فقال له : « أتعرف هذا الكتاب؟ » . فرأى من الحزم أن يتجلد فنظر الى الكتاب وقال : « أعرفه يا مولاى وقد كان معى وسرق منى »

فرماه المستعصم اليه وقال : « انه يؤيد كلام ولدنا ، ويدل أيضا على أن بينك وبين هولاكو تزاورا »

فالتقط مؤيد الدين الكتاب وقال : « نعم يا سيدى ، لكن هل يدل على أنى متفق معه على عمل ، أم هو يشكو من رفض مطالبه ؟ »

فقال ابو بكر : « ولكن على كل حال يظهر مما فى آخره ان المخابرة بينكما قديمة . الم يكن يجدر بك أن تطلع أمير المؤمنين على ذلك . ما أدرانا بما دار بينكما ؟ . والأرجح أنك متفق معه على تسليم البلاد اليه ، وانما اختلفتما فى كيفيـة تسليمها . ليس هـذا شأن الوزير المخلص لمولاه كما تدعى »

فتحير مؤيد الدين بماذا يجيب ، وهم بالكلام فرأى الخليفة يشير اليه أن يسكت ، وقد بان الغضب فى وجهه ثم قال : « صدق أبو بكر لم أكن أتوقع منك ذلك مع ثقتى بك . كان ينبغى أن تطلعنى عـلى ما يدور بينك وبين عدونا قبل الآن »

فأراد ابن العلقمى أن يدفع عن نفسه فأشار اليه المستعصم أن يسكت وقال : « طالما دافعت عنك وكذبت ما ينقلونه لى والتمست لك الأعذار . أما الآن فظهر لى أن كلامهم هو الصـواب ، ولا أفهم لسكوتك عن اتصال هولاكو بك معنى سوى أن لك فى ذلك غرضا أو مطمعا ، ولولا ذلك لأطلعتنى على ما دار بينكما »

فلم يطق مؤيد الدين صبرا على السكوت فقال : « لم ار فائدة من اطلاع مولاى على مايكدره ، وانما يطلب منى أن أحافظ على الولاء له وأدافع عن مقام الخلافة . فهل فى هذا الكتاب مايدل على خيانة ؟ فاذا كان فيه شىء من ذلك فالعبد رهين أمر مولاه »

فاعتدل المستعصم فى مجلسه وقال : « حسـنا . وهل كان فى اطلاعى على مكان تلك الجارية ضرر أيضا ؟ »

فاستغرب مؤيد الدين قوله وقال : « أى جارية يا مولاى ؟ » . قال : « جارية أبى بكر الذى ذبح أهل الكرخ بسببها » . قال : « وما شأنها فيما نحن فيه ؟ »

فقال الخليفة : « ما كنت أظنك تجهل شـأنها . الم تكن تعلم ان مقتلة الكرخ انما جرت بسببها لأن أبا بكر علم انها مختبئة هناك وانكروها عليه ؟ » . قال : « بلى ! » . قال : « وقد قلت لنا يومئذ انك لا تعرف

عنها شيئا » . قال : « نعم » . قال : « كيف تقول ذلك وهي مخبوءة في منزلك ؟ » . فأجفل مؤيد الدين عند سماع ذلك وقال : «مخبوءة في منزلي ؟ » . قال : نعم . أو منزل بعض أهلك في الكاظمية . وقد استرجعها أبو بكر أمس بهمة الداودار »

فتذكر مؤيد الدين شوكار وأن سحبان أخذها من عنده ليخبئها في الكاظمية ، ولما تذكر ذلك سرى عنه لأنه سيفوز بها على أبي بكر لعلمه انها جارية المستعصم وقد خطفها ابو بكر لنفسه ، فقال وهو يظهر الاستخفاف : « هل أمير المؤمنين واثق بما قيل له ؟ »

قال : « هذا ابو بكر ، وهذا الداودار ، وقد أتيا بها امس من الكاظمية »

قال : « هل رآها امير المؤمنين ؟ » . قال : « لا . لم أرها ولكنني لا اشك في صدقهما »

ووقف أبو بكر وهو يظهر الغضب وقال : « وهل أنا كاذب ؟ » . فقال له مؤيد الدين : « لا اعلم ولكنني أعلم اني غير كاذب . وبما انك وجهت الي تهمة الخيانة فيقتضي أن تثبت قولك بالبرهان . فاذا أثبته فاني مذعن لحكم مولاي »

فقال ابو بكر : « لا حاجة الى اثبات ذلك فانه ثابت عندنا جميعا »

وجلس وراح يتشاغل بفتل شاربيه ويظهر الازدراء ، وقد خاف أن يلح مؤيد الدين في طلب الجارية ليراها أبوه فيفتضح امره ، وندم على ذكر هذه الجارية لأبيه ، لكنه لم يكن يعلم أن مؤيد الدين مطلع على تاريخها

□

أما مؤيد الدين فازداد تمسكا بقوله ووجه كلامه الى الخليفة وقال : « هل من ضرر اذا أمر مولاي أمير المؤمنين باحضار الجارية لنراها ونطلب شهادتها ؟ »

فقال : « لا ضرر من ذلك » . والتفت الى أبي بكر وقال : « أين هي؟ »

فأظهر الاشمئزاز من ذلك الطلب وقال : « ما الداعي لاستقدام جارية الى ديوان أمير المؤمنين ؟ وما هي أهميتها ؟ »

قال مؤيد الدين : « انها ذات أهمية كبرى ، لأن الوزير متهم بالخيانة والكذب بسببها ، فالمطلوب اثبات ذلك »

فنهض أبو بكر وهو يظهر عدم المبالاة وقال : « ليس أمر هذه الجارية مهما ، وانما المهم كتاب هولاكو وقد اطلع عليه والدي وكفى » . قال ذلك وتحول وخرج بلا استئذان وأبوه ينظر اليه ، وقد سره خروجه

لئلا يفرط منه كلام يسيئه ، لكنه كان يحب بقاءه ليتحقق أمر تلك الجارية فناداه وقال : « أحب أن نتم أمر البحث فى أمر الجارية » . فقال : « لا اهمية لها . . وأنا اسامح الوزير علي خطيئته بشأنها » . فقال الوزير : « أما أنا فلا أسامح نفسي . أحب أن تأتى الجارية وتثبت الخيانة علي أو على غيرى ، وطلبى هذا حق »

فما زاد أبو بكر على أن ضحك ومشى وأبوه يتبعه بنظره

أما مؤيد الدين فالتفت الى الخليفة وقال : « يأمر مولاى باستقدام الجارية الى هنا ، وهذا الداودار يعرفها لأنه كان مع الامير أبى بكر لما أخرجاها من منزل بعض أهلى فى الكاظمية كما يقول »

فالتفت الخليفة الى الداودار كأنه يأذن له فى الكلام فقال مخاطبا الوزير : « وهل أنت فى شك من قول مولانا أبى بكر ؟ » . قال : « لا شك عندى فى قوله ولا قولك ، لكنى التمس من مولاى الخليفة أن يأمر باستقدامها » . فأشار الخليفة الى الداودار قائلا : « لا ارى بأسا من استقدامها فافعل »

ولم يكن الداودار يعرف علاقة هذه الجارية بالخليفة ولذلك لم ير بأسا من احضارها ، فنهض وهو يقول : « أنا ذاهب بأمر مولاى لاستقدام الجارية بدون أن أستأذن الامير أبا بكر » . قال الخليفة : « افعل » . فخرج الداودار وظل ابن العلقمي جالسا يفكر فيما وفق اليه من التغلب على عدوه ، والخليفة مطرق لا يتكلم . ولم يمض كثير حتى عاد الداودار لأن المنزل الذى وضعوا فيه شوكار كان قريبا من قصر التاج

دخل الداودار ووقف وقفة الظافر وقال : « ان الجارية بالباب ، هل أدخلها يامولاى ؟ » . قال : « لتدخل »

فدخلت ومؤيد الدين ينظر الى الباب بلهفة مخافة أن يكون قد جاء بجارية أخرى غير شوكار ، فلما وجد أنها هى انشرح صدره . أما شوكار فوقفت مطرقة ، فخاطبها الخليفة قائلا : « الم تكونى مخبوءة فى الكاظمية وجاء بك قائدنا هذا أمس ؟ » . قالت : « بلى يا مولاى » . قال : « ومن خبأك هناك ، اصدقينى ؟ » . قالت : « وهل يجسر أحد على الكذب فى حضرة أمير المؤمنين ، خبأنى رجل اسمه سحبان » . قال : « ألم يكن الوزير مؤيد الدين الذى خبأك ؟ » . قالت : « كلا يا مولاى ، ولم يكن يعرف انى مختبئة هناك » . قال : « ألا تعرفين وزيرنا قبل الآن ؟ »

فتحيرت فى الجواب وتلعثمت لأنها توسمت من وراء تلك الاسئلة سوءا يريده الخليفة بالوزير وهى لم تر من الوزير الا الخير ، ولا تحب

مع ذلك أن تقص خبرها على الخليفة فأرتج عليها . فوقف مؤيد الدين وقال للخليفة : « يتفضل مولانا بالسؤال عن اسمها ومن أين أتت الى بغداد وما سبب مجيئها ؟ »

فقال الخليفة : « وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ » . قال : « سيرى مولانا انه ذا علاقة كبرى بذلك ، وسيكشف له عن أمور جليلة » . فقال الخليفة : « ما اسمك ، ومن أين أتيت ، ولماذا ؟ » . ففهمت شوكار من تعرض ابن العلقمي لهذا الأمر انه يريدها أن تقول الحقيقة ، فقالت : «اسمي شوكار ، وقد جئت من مصر لأكون مغنية في قصر أمير المؤمنين»

فلما سمع الخليفة قولها أجفل وخفق قلبه اذ ترجح له أنها المغنية التي كان قد أضاعها ، فنظر الى مؤيد الدين ثم الى الداودار وقد تولته الدهشة وأعاد السؤال عليها قائلا : « أنت شوكار جارية شجرة الدر ؟»

قالت : «نعم يا مولاي اني شوكار جارية شجرة الدر ؟ » . قال : « من أخذك مني ؟ وأين كنت كل هذه المدة ؟ »

قالت : « أخذني ابنك الامير ابو بكر وأخفاني عنده »

قال : « ألم تكوني أنت الجارية التي حدثت مقتلة الكرخ من اجلها ؟»

قالت : « انا تلك الجارية يا مولاي ، وكنت قد فررت للنجاة بنفسي»

قال : « وكيف أخذك ابني وأنت محمولة الي ؟ »

قالت : « لما وصلت مع الركب الى قرب بغداد جاءنا جند قالوا انهم قادمون من قصر أمير المؤمنين ليأخذوني اليه ، فدفعني الركب اليهم فأخذوني الى قصر عرفت بعد ذلك انه للأمير احمد ابي بكر . . »

فأخذ الغضب من الخليفة مأخذا عظيما ، وندم الداودار لأنه تصدى لحمل الجارية الى هناك ، وأصبح خائفا على ابي بكر من غضب أبيه ، فوقع في حيرة ، وأعاد النظر الى تلك الجارية بدهشة . وظل مؤيد الدين ساكتا وقلبه يرقص فرحا لفوزه ، أما شوكار فقد عدت انتقالها من بيت ابي بكر الى بيت الخليفة فرجا وان كانت تفضل الانتقال الى مصر

□

وحينما تحقق الخليفة الواقع صفق ، فجاءه غلام فأومأ اليه أن يأخذ شوكار الى قصر التاج ويسلمها الى القهرمانة ويوصيها بها خيرا ، والتفت الى الداودار وقال : « قد سمعت الآن ان الذين اعانوا أحمد على هذه الجريمة من الجند . أيليق ذلك بالأجناد ؟ أليست هذه خيانة منهم ؟ »

فاعتبر الداودار هذا التوبيخ موجها اليه لأنه القائد العام ، فاضطر في سبيل الدفاع عن نفسه أن يشكو ابن الخليفة فقال : « لم يفعل الجند ذلك بأمري وانما فعلوه بأمر الأمير أحمد أبي بكر ، وهل نستطيع أن نخالف له أمرا ؟ »

قال : « كيف لا ؟ اتطيعون ابني في سبيل معصيتي ، وأنا لا أزال حيا ؟ »

وتحرك في مجلسه من شدة الغضب وأخذ يلهث وينفخ ويصر على أسنانه ، فخيل لمؤيد الدين أن أبا بكر لو كان حاضرا لأمر الخليفة بقتله، وود لو أنه يحضر، واذا بالخليفة يقول للداودار : « أين أحمد الآن ؟ » . قال : « لا أعلم يا مولاى » . قال : « الى به حالا أينما كان » . فخرج الداودار ، ونظر الخليفة الى مؤيد الدين نظر الاعتذار لأنه شك فيه وقال : « لقد أسأنا الظن بك يا وزيرنا . جوزيت خيرا ، لماذا لم تطلعني على خبر هذه الجارية من قبل ؟ »

قال : « لأني لم أعرف بها الا منذ أيام قليلة ، وقد قلت للذى قص على خبرها أن يخبئها في مكان أمين ريثما نطلع أمير المؤمنين على أمرها في فرصة مناسبة لا يدرى بها الامير أبو بكر ، لأننا لو أردنا أن نفعل ذلك بعلمه لما نجونا من الأذى وهوابن أمير المؤمنين والجند طوع ارادته»

فهز الخليفة رأسه وقال : « انا لله وانا اليه راجعون . انى أخطأت باطلاق سراح ابني هذا ، ولو كان محجورا عليه كما كان الأمراء قبله لماكان في مثل هذه الاخلاق ، ولما جر علينا هذه البلايا . لأحبسنه ولأحجرن عليه ولأعلمنه كيف يكون مطيعا . قبحه الله من ابن عاق »

وبينما هما في ذلك اذ سمعا ضوضاء بالباب عرفا منها صوت أبي بكر وهو يقول بلحن الغضب : « أما كفاه من في داره من النساء حتى يطمع فيجاريتي. دعني أدخل» . واذا بالحاجب يدخل وهو يقول : « ان مولانا أبا بكر ابن أمير المؤمنين بالباب ، هل يدخل ؟ » . فقال : « هل جاء وحده ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وكيف ذلك ، أليس الداودار معه ؟ » . قال : « لا » . ولم ينتظر أبو بكر الاذن له في الدخول ، فدخل والغضب باد في محياه ، فلما رآه أبوه داخلا استعاذ بالله وابتدره قائلا : « ما هذا يا أحمد ، أهكذا يدخلون على أمير المؤمنين ، أين التربية ووقار الخلافة ؟ »

فجلس دون أن ينتظر الاذن ، وقال : « تسألني عن التربية وأنا ابن أمير المؤمنين وقد ربيت في حجره ؟ ولعل ذلك من أسباب شقائي .. يحسدني الناس على أن الخليفة أبي ولو علموا كيف يعاملني لأشفقوا على » . قال ذلك واختنق صوته كأنه يجهش بالبكاء

فلما سمع المستعصم اجهاشه ولحظ شيئا يتلألأ في عينيه كالدمع خمدغضبه وتغلبحنانه ، وان لم يكنهناك مايدعو الىالحنان والاشفاق، وذلك لأن المحبة الأبوية لاتذعن للحقوق ولا تعترف بقواعد المنطق ولا تطلب البراهين ، وانما هي حاكم مستبد أكثر اعماله لا تنطبق على القوانين ، وكثير منها يناقض المنطق ويخالف أحكام العقل . الأب يحب ابنه ويغار عليه ويرى فيه حسنات لا يراها الآخرون . وهو لا يحبه لأنه يرجو منه نفعا ، أو لأنه يستحق المحبة لفضائل فيه أو حسنات أتاها ، وانما يحبه عفوا . يحبه لأنه ابنه ، ويزداد حبه له كلما شقي في تربيته ، ويزداد عطفه عليه اذا رآه حزينا . ان الوالدين ليس أدعى الى تحريك شفقتهما من أن يريا ابنهما باكيا وان كانا في أشد حالات الغضب كأن دموعه تقع على نار ذلك الغضب فتطفئها ويتصاعد دخانها فيغشي ما هناك من دواعي النقمة فلا يريان غير بواعث الشفقة والعطف

وكان المستعصم من أضعف الآباء قلبا وأكثرهم حنانا ، فأوشك أن ينسى أسباب غضبه على ابنه لكنه تجلد وقال : « أبمثل هذا تخاطب أباك ؟ هل يحق لك الشكوى من أبيك وقد منحك ما كان يشتهيه أبناء الخلفاء قبلك ؟ كانوا مسجونين وأنت حر طليق ولك الامر والنهي، ألم تر الداودار ؟ »

قال : « لا . لم أره . لكنهم قالوا لي انه أتى قصري وحمل جاريتي فلم أطق الصبر على ذلك فجئت لأشكو اليك عمله . فاذا أنت تمن على بالحرية التي وهبتني اياها . وأي حرية هذه وقد ضننت على بجارية مع كثرة الجواري في قصرك ولكن . . »

فقطع المستعصم كلامه قائلا: « لم أضن عليك بجارية ، لكنني عتبت عليك لأنك اختطفت جارية آتية من مصر باسمي »

فقال وهو يحول وجهه استخفافا : « آتية من مصر باسمك ؟ انك لا ترى بأسا من اقتناء مئات الجواري وتبعث في طلبهن من الأطراف . وابنك الشاب اذا أخذ جارية منهن اتهمته بالعقوق وشددت النكير عليه . لو كنت ابن أحد العامة لم يفعل أبي معي فعل أمير المؤمنين » . قال ذلك وغص بريقه وأظهر أنه ضاق صدره من الاجهاش وأنه انما يمسك نفسه عن البكاء حياء ثم قال : « ومع ذلك أنت أمير المؤمنين ولك الحق في أمور ليس لسواك الحق فيها . ونحن عبيدك وكل ما هو لنا طوع ارادتك . ولا يزال عندي بضع جوار أخر أبعث الداودار ليحملهن اليك . يا ليتك أبقيتني أسيرا ولم ترني نور الحرية . ان المولود في الظلمة لا يعرف لذة النور ولا يأسف لفراقه ، واذا كنت قد

ندمت على اطلاق سراحى فها انذا بين يديك احبسنى أو اقتلنى . والقتل خير لأنى أريحك من المتاعب » . وأظهر أنه لم يعد يستطيع التماسك عن البكاء وأخذ فى الشهيق ، وأوشك أبوه أن يشاركه فى ذلك

أما مؤيد الدين فكان جالسا يسمع ويرى وقد أدهشه ما رآه من الانقلاب فى عواطف المستعصم ، فذهب فرحه بالفوز عبثا ، واكتفى بالنجاة من الغضب ، وود الخروج من ذلك المجلس ، ولكن لا يجوز له أن يستأذن قبل أن يرى الخليفة راغبا فى صرفه على عادة الخلفاء والملوك . فأخذ يتحرك فى مجلسه ليوجه التفات الخليفة الى صرفه ، وقد يكون الخليفة أكثر رغبة منه فى ذلك

لكن حركته لفتت انتباه أبي بكر فتحول نحوه وعاد الى الكلام فقال : « أنا لا أشك فى حب أبى ، ولكن الذنب كله على هذا الوزير الذي شب على كرهنا لأنه علوى ولا يرى لنا الحق فى الخلافة » . ووجه خطابه الى أبيه وقال : « وانى لأستغرب صبر والدي على رجل يكرهنا ويسعى فى خلع خلافتنا ويخابر ألد أعدائنا سرا ، وأغرب من ذلك أنه صدق دفاعه عن نفسه » . ومد يده الى كتاب هولاكو ، وكان ما زال فى يد مؤيد الدين ، فاختطفه منه بخشونة وفتحه وقال وهو ينظر فيه : « صدق دفاعه وظنه بريئا من المواطأة مع عدونا وهو يقول له فى هذا الكتاب أنه صديقه ويشير عليه بارسال الرسالة كما قال له قبلا ، الا يدل هذا على سبق المخابرة فى شأن الخيانة ؟ . ومع ذلك فان قول ابن العلقمى العلوى مصدق وقول أحمد مكذب » . وعاد الى البكاء

فتفطر قلب ابيه لبكائه ، ورأى مؤيد الدين فى وجهه الانصياع الى رأى ابنه ، فأسقط فى يده وتحقق أن سعيه ذهب سدى ، وود لو انه يختفى من المجلس لئلا يسمع تأنيبا من الخليفة نفسه ، فاذا هذا يقول : « سأنظر فى أمر أحمد والجارية فى فرصة أخرى . أما من حيث مخابرة العدو فقد صدق أحمد يا مؤيد الدين . كيف صبرت على مخابرة ذلك العدو مدة ولم تخبرنا . انى واثق بأمانتك ولكن للثقة حدودا تقف عندها . . لا . لا . لا أزال على ثقتى بك وان خالفنى أحمد . انه قال ما قاله الآن من غضب »

فقطع احمد كلام أبيه قائلا : « لا . لا أقول عن غضب ، أنت تعرف سوء رأيى فى هذا الوزير من قبل وقد تحقق ظنى فيه اليوم »

فلم يشأ الخليفة أن تنتهي الجلسة على هذه الصورة لأنه يعتقد اقتدار وزيره ويرى نفسه فى حاجة اليه ، لكنه لم يستطع أن يغالب عواطفه الأبوية ويجادل ابنه فأحب اقفال باب الكلام ، فأبدى اشارة

الصرف فوقف مؤيد الدين واستأذن فى الانصراف وهو ساكت يفكر

خرج الوزير وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى أخطأ الطريق من الديوان الى موقف الدواب حيث كان غلامنه فى انتظاره ، ثم انتبه لنفسه فركب بغلته وسار قاصدا منزله وهو لا يكاد يرى طريقه لعظم ما جاش فى خاطره من الأسف واليأس والخوف . وتضاربت خواطره بين الانتقام والتربص حتى وصل الى المنزل فاستقبله قيم الدار على جارى العادة ، فحالما وقع نظره عليه تذكر المملوك الذى كتب الرسالة على رأسه فسأل عنه فقال : « هـو فى حجـرتى » . قال : « كيف شعره ؟ » . قال : « قد نما حتى كسا رأسه ، واذا شئت أتيتك به الساعة »

قال : « أحضره » . ومشى الى غرفته وهو يفكر وخاطره مشتغل بما مر به فى ذلك اليوم ، وكلما تصور أبا بكر واحتقاره اياه اقشعر جسمه قشعريرة الحقد والغيظ والكراهية . فقعد على سريره وهو مطرق ، واذا بالقيم قد جاء ومعه ذلك الغلام يساق كالبهيمة ، وليس فيه من علامات الانسانية الا شكله الخارجى ونطقه اذا تكلم . فلما رآه مؤيد الدين نظر الى رأسه فرأى شعره قد نما وتكاثر ولم يبق شىء ظاهر من جلده ، فتفرس فى رأسه وهو يناجى نفسه قائلا : « أن تحت هذا الشعر رسالة اذا بلغت صاحبها أقام الدنيا وأقعدها وانتقم لى من ذلك المغرور الطائش . وما على اذا أنا أرسلتها الى هولاكو ؟ ان الرجل قادم الينا لا محالة وهو فاعل ما يريده ، ولا ريب عندى بفوزه، فاذا أرسلت اليه دعوتى هذه على رأس هذا المملوك ضمنت حياتى وحياة من أحب من أهلى وأصدقائى. ولو علمت أننا قادرون على دفع هولاكو ورجاله لم أكن لأبالى بجهالة هذا الغر واستخفافه ، بل كنت أدافع عن أمتى وبلدى وأغضى عن ضعف الخليفة وطيش ابنه . ولكن انى لنا أن ندفع التتر وليس عنـدنا الا عشرون ألفا قلوبهم متفرقة ونياتهم متناقضة . اذن . . » . ووضع سبابته على ذقنه كما يفعل المتأمل ثم رفع بصره الى قيم القصر وقال : « أرسل هذا الغلام فى المهمة التى تعرفها »

فخفق قلب القيم فرحا لأنه كان كثير الرغبة فى الانتقام من الخليفة فنادى الغلام اليه فتبعه ، فلما خلا به أفهمه ان مولاه الوزير يريد منه أن يذهب إلى هولاكو خاقان التتر، ويقول له انه قادم من وزير بغداد وكفى . ومتى عاد نال المكافأة الكبرى ، ففرح الغلام ومشى كالشاة تساق الى الذبح

شوكار فى دار النساء

ذهبت شوكار مع غلام الخليفة الى دارالنساء ، برغم ارادتها ، لكنها كانت تفضل أن تكون فيه على أن تبقى عند أبى بكر . وكانت قد قضت فترة وجودها عنده وهى فى حرب دائمة معه ، لأنه يريدها لغير الفناء وهى تأبى ذلك ، ولاسيما بعد أن جاءها كتاب ركن الدين مع الخصي عابد البصرى رسولها اليه الذى كتبه وهو نافر من سعاية سلافة فى شوكار ، ولم يكن سعيها فيها الا ليزيده تمسكا بحبها ، فكتب اليها كتابا ضمنه العطف عليها والوعد بانقاذها ، فجاءها الرسول بالجواب المذكور وهى فى حوزة ابن الخليفة ، فاحتالت حتى أدخلت عابدا فى خدمته لعلها تحتاج اليه فى شىء بعد أن اختبرت أمانته ، وهو الذى أعانها فى الفرار الى الكرخ وجرى بسبب فرارها ما جرى من القتل والنهب ، وخرج معها الى الكاظمية ، ولما استرجعها ابو بكر الى منزله كان عابد لايزال فيه . ثم بعث المستعصم فى طلبها فجاءت وحدها وأمر الخليفة بارسالها الى دار النساء كما رأيت

وقبل وصولها الى الدار بلغ أهل القصر أن الجارية المغنية التى كانت مرسلة الى الخليفة واختطفها اللصوص قد وجدت وجىء بها الى قصر التاج ، وانها قادمة الآن الى دار النساء . فلا تسل عمن تجمع لمشاهدتها من الرجال والنساء . وكان فى قصور النساء هناك مئات من السرازى والجوارى على اختلاف الطبقات والاغراض ، فجاء كثير منهن الى قهرمانة القصور يستوضحن ما سمعنه عن شوكار ، وقد اختلفت الروايات فى شكل هذه الجارية وطول قامتها أو قصرها ودرجة رخامة صوتها وغير ذلك مما تصوره المخيلة فى مثل تلك الحال

وكان أكثرالنساء اهتمامابأمرها المغنيات، لأن‌شوكار قادمة لمناظرتهن فى عملهن، فاجتمعن وتحدثن فى أمرها وما وصل الى‌علمهن من‌الاقاويل عنها . وهذا طبيعى فى الناس ، وبخاصة فى ذلك العصر ، وبين نساء لا عمل لهن غير أمثال هذه الاحاديث . اذ لا يشغلهن عن ذلك كتاب ولا جريدة ولا مجلة ولا مدرسة ولا خطاب ولا اجتماع علمى ولا أدبى ، مما قد يشغل نساء هذا العصر . وانما همهن كله هذه الاحاديث

والمباراة فى التبرج لاجتذاب قلوب الرجال

وأول من لقيته شوكار هناك أستاذ الدار (رئيس الخصيان) ، أخذت اليه وهو متصدر فى غرفته فقبلت يده ووقفت باحترام تنتظر أمره ، وهو الآمر الناهى فى تلك القصور ، وذو نفوذ كبير فى الشئون السياسية ، كما كان شأن بعض اغوات يلدز فى زمن عبد الحميد . وبعد أن قدمت نفسها لأستاذ الدار واستفهم عن اسمها وعمرها ويوم وصولها وسائر الاوصاف المميزة لها أمر بتدوين ذلك فى أماكنه لئلا يختلط أمر النساء بعضهن ببعض لكثرتهن . وقد تتشابه الاسماء

ثم أخذوها الى قهرمانة الدار وهى كهلة رهلة قد تراكم اللحم على بدنها مثل تراكم المصوغات والمجوهرات حول عنقها وزنديها ، وعليها أفخر اللباس ، وهى فى تلك الدار كالملكة ، ليس فى الجوارى والسرارى من لايتزلف اليها ويخطب رضاها بالمحاسنة والمجاملة والهدايا . مشت شوكار وهى مطرقة حياء لكثرة من لقيتهم فى طريقها من الخصيان والجوارى وقوفا فى الدهاليز والابواب يتفرسون فيها ويتهامسون . فلما أقبلت على غرفة القهرمانة رأت الخصيان ببابها كالحراس بأبواب الملوك ، فدخلت تلك الغرفة وتلفتت لتتعرف الوجوه ، فعرفت القهرمانة من مجلسها المرتفع ولبسها الفاخر : فمشت نحوها حتى اذا دنت منها أكبت على يدها تقبلها ، فقبلتها القهرمانة وأمرتها بالجلوس الى جانبها ، وأخذت ترحب بها بعبارات مألوفة فى مثل تلك الحال ، لو تليت على انسان لم يألفها لظن قائلها أشد الناس مودة له وتفانيا فى مصلحته ، لـكنها على طول التكرار أصبحت لا معنى لها ، أو أن لها معنى يناقض أصل المراد بها .

فاستأنست شوكار ونظرت الى ما فى تلك الغرفة من الرياش الفاخر ، وتأملت حال أهل ذلك القصر من الرخاء والنعيم ، فأوشكت أن تؤثر المقام هناك على الاجتماع بركن الدين . ثم ناداها قلبها فأصغت الى ندائه ، ولسان حالها يقول : « ليست السعادة بالرياش والمجوهرات وانما هى فى الحب » . ثم سمعت القهرمانة تنادى بعض الخصيان وتأمره أن يهيىء لمغنية الخليفة غرفة فيها كل أسباب الراحة . والتفتت الى شوكار وقالت : « تمكثين هنا ريثما تتهيأ الغرفة كما يليق بك ، انى فى انتظار قدومك من أمد طويل ، وقد شغل بالنا خوفا عليك ، فنحمد الله على سلامتك »

فأجابتها شوكار شاكرة وقالت : « انى لا أستحق هذا الالتفات يا سيدتى ، ما أنا الا جارية حقيرة »

فأجابتها القهرمانة (أو القيمة) وهى تضحك : « أنت تظنينني

لا أعرفك قبل الآن ، ولكنى أعرفك من عهد بعيد ، وأعرف كل شىء عنك ، عرفت ذلك من صديقتى قهرمانة الملك الصالح صاحب مصر رحمه الله . أتعرفينها ؟ »

فتذكرت سلافة وما بينها وبين سيدتها شجرة الدر من المنافسة ، ولم تكن تعرف لها هذه المنزلة لدى قيمة قصور الخليفة فقالت : « أظنك تعنين سلافة . نعم أعرفها يا سيدتى ولم أكن أظنها تعرفنى »

قالت : « بالعكس ، انها تعرفك جيدا ، وهى التى لفتت انتباهى الى رخيم صوتك ، وانك تليقين بمجالسة مولانا أمير المؤمنين ، فأشرت على مولانا باستقدامك ، فطلبك من سلطان مصر كما تعلمين »

فأحست شوكار بفضل سلافة عليها ، ولكنها كانت تفضل الخروج من ذلك القصر ، غير أنها نظرت فى الامر من حيث قصدها فقالت : « الحقيقة ان حسن ظن السيدة سلافة منة كبرى يجب أن أشكرها عليها ، ولو عرفت ذلك لشكرتها وأنا فى مصر » . قالت : « ويمكنك أن تشكريها هنا » . قالت : « وهل هى هنا الآن ؟ » . قالت : « هى هنا منذ بضعة أيام »

استغربت شوكار هذه المصادفة ، وبان البشر فى محياها ، وسبق الى ذهنها حسن الظن ، وتصورت أن وجود سلافة هناك سيكون أكبر تعزية لها ريثما تستطيع التخلص ، وخيل لها ان سلافة ستكون عونا كبيرا لها فى ذلك فقالت : « لله ما أسعد حظى . أين سيدتى سلافة حتى أقبل يدها وأشكر لها صنيعها »

قالت : « سترينها بعد قليل ، وقد سألت عنك ساعة وصولها من مصر فأخبرتها عن ضياعك فتأسفت ، ولما جاءتنا البشارة الآن بوجودك أخبرتها ففرحت فرحا عظيما وهى آتية الساعة . . هذه جاريتها قادمة . . أين سيدتك يا اقحوانة ؟ »

فأجابت الجارية : « انها فى غرفتها يا مولاتنا ، وقد بعثتنى لأدعو القادمة الجديدة اليها لتتمتع برؤيتها فانها فى شوق اليها »

فضحكت القهرمانة حتى بانت بقايا أسنانها وما يتخللها من الفراغ فى أماكن الاسنان المقلوعة وقالت : « هل تريد أن ترسلها اليها لتراها قبل أن يراها أمير المؤمنين ؟ »

فقالت الجارية : « هذا ما قالته مولاتى ، والأمر لك »

قالت : « لابأس . ان ضيفتنا شوكار ذاهبة معك للقاء صديقتنا

سلافة لأنها فى شوق لرؤيتها وتقديم شكرها لها . وقولى لها ان لا تطيل المقام فلا بد من ارسالها الى الماشطة بعد قليل لاصلاح شأنها بحيث يليق بها الجلوس بين يدى مولانا الليلة لسماع صوتها الرخيم . ولا أظنه يصبر على الانتظار الى الغد . . قومى يا شوكار الى سلافة . . وأحب أن تستأنسى بنا وتثقى بى فانك كاحدى بناتى»

فنهضت شوكار ومشت فى اثر الجارية اقحوانة ، وهى تمر من ممر الى ممر ، والغرف على الجانبين . وشعرت ان فى تلك الغرف أناسا يتشوقون الى رؤيتها ، نعنى الجوارى او السرارى ، فترى الابواب بين مفتوح ومشقوق ، والرؤوس تطل لمشاهدتها ثم ترجع خلسة ، حتى وصلت الى غرفة سلافة . فتقدمتها اقحوانة واعلمت سيدتها بمجىء شوكار ، فلما أطلت شوكار على مجلس سلافة تصاعد الدم الى وجهها خجلا وفرحا ، اذ شعرت بأن هذه السيدة أرادت الاحسان اليها بارسالها الى بيت الخليفة وان كان ذلك لم يوافق حالها ؛ فلما شاهدتها سلافة مقبلة نهضت لها وتقدمت لاستقبالها ببشاشة وترحاب زادا الفتاة خجلا ، لأنها تعرف منزلة تلك السيدة فى قصر الملك الصالح بمصر وقصور المستعصم فى بغداد ؛ فأكبرت تواضعها وعطفها وأكبت على يدها تريد أن تقبلها ؛ فمنعتها من ذلك وهى تقول : « مرحبا بالعزيزة شوكار ، واشكر الله أن رأيتك فى هذا القصر ، فقد طالما تمنيت لك هذه السعادة . هل انت مسرورة يا شوكار ؟ » وأومأت اليها أن تقعد على وسادة بجانبها ، فجلست شوكار وهى تقول : « أشكر لك غيرتك وفضلك يا سيدتى . انى فى سعادة بحمد الله و . . »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « ولكن ساءنى انهم اختطفوك فى اثناء الطريق ، واليوم عرفت سبب ذلك ، فالحمد لله على سلامتك . . كم أنا مسرورة بلقياك ، ومهما يكن من حظوتك بالقدوم الى بغداد والمكوث فى دار الخليفة فان الخليفة أكبر حظا منك بالحصول على مغنية ليس فى العراق ولا مصر أرخم صوتا منها »

فأطرقت شوكار وعيناها ولسانها ينطقان بالشكر ، وقلبها ينكر ذلك الفضل ، لأنها كانت تؤثر البقاء بقرب ركن الدين ، ولو فى سجن ، على وجودها بعيدة عنه فى قصر الخليفة

ولم تكن سلافة تجهل ذلك لكنها خاطبتها بما قد تتوقعه منها ، لأن شوكار لم تكن تعلم شيئا مما دار بين حبيبها ركن الدين وهذه المرأة ، ولو علمت الغرض الذى حملها على المجىء الى بغداد لاقشعر بدنها وكرهت النظر اليها ، فان سلافة قد تركت مصر بعد حديثها مع ركن الدين الذى غادر دارها وقد اغضبها لانه لم يطعها فيما

أرادته منه ، فتركته واقفا ومشبت بعدأن رمته بنظرة كالسهم وقالت : « سر بحراسة الله . سر الى فراشك أيها الامير . ولا تظن فشلى هذا يذهب عبثا »

قالت ذلك يومئذ وقد أثار باعراضه نقمتها منه ، وانقلب حبها بغضا ولكنها رأت أن تتربص عساه أن يرجع الى صوابه ويتحول عن حب شوكار والا عمدت الى أذاه . وما زالت تبث الجواسيس لاستطلاع مقاصده حتى علمت عزمه على السفر الى بغداد ، فأسرعت اليها لتستقصى أخباره وترى ما يكون من أمره . وكانت قد سمعت بضياع شوكار ، فلما عادت ووجدتها حية أخذت تفكر فى حيلة أخرى ، وهى تعتقد أن وجود هذه الفتاة حية يقف فى سبيل غرضها . ومن أخلاق هذه المرأة اقدامها على عظائم الامور ، بلا دهاء أو تدبير سابق يضمن نجاحها ، فاذا خطر ببالها أمر أقدمت عليه

فلما سمعت شكر شوكار لها ، وعلمت حسن نيتها ، وانها لا تعلم بما دار بينها وبين ركن الدين ، استسهلت تنفيذ بغيتها ، فأظهرت انها مسرورة جدا بلقياها ، وخطر لها ان شوكار قد تفضل البقاء فى دار الخليفة على الاقتران بركن الدين ، فأحبت أن تستطلع رأيها فى ذلك فقالت لها : « يظهر أنك نسيت مصر وأهلها .. لك حق فان المقيم فى هذه القصور بجوار أمير المؤمنين لاتخطر مصر بباله » . قالت ذلك وجعلت تتفحص مايبدو منها ، فتحيرت شوكار بماذا تجيبها ، والمحب حريص على سره لايفشيه الا لمن يعتقد اخلاصه وصدق مودته ، وقد سبق الى ذهنها ان سلافة تحبها ، بدليل سعيها لها فى هذه النعمة بما لها من النفوذ فى تلك الدار ، فتصورت انها اذا شكت اليها حقيقة حالها فربما ساعدتها على التخلص من بغداد والرجوع الى مصر ، فترددت فى الجواب ، وبان التردد فى عينيها ، ولحظت سلافة ذلك فيها فقالت لها : « ما بالك لاتتكلمين ياحبيبتى ؟ قولى .. يظهر أنك تستحين منى أو لا تثقين بى »

فخجلت شوكار من هذا التوبيخ وقالت : « كلا ياسيدتى ، انى أقدر تنازلك حق قدره ، ولولا حبك لى لم تسعي لى فى هذه السعادة ، ولكن .. » . وسكتت

فقالت سلافة : « ولكن ماذا ياشوكار ؟ ألم أقل لك انك لاتثقين بى ؟ »

قالت : « العفو ياسيدتى ، لكننى أستحى أن أقول ما فى خاطرى لئلا تضحكى منى .. »

قالت : « أضحك منك ؟ لماذا » . فأطرقت وقد توردت وجنتاها وجعلت تتشاغل بطرف جديلتها تلفها على سبابتها ، ثم قالت : « ان

الاقامة فى هذه القصور تشتهيها كثيرات ، وربما حسدن عليها ، لكننى أفضل الرجوع الى مصر »

فأظهرت سلافة الاستغراب وقالت : « ترجعين الى مصر ؟ وما الذى خلفته هنـاك ، الا أن تكونى مخطوبة لأحد ؟ . حتى هـذا فانك تجدين بدلا منه فى بغداد . واذا سمع الخليفة غناءك ومهارتك فى ضرب العود فربما أصبت نصيبا لايتيسر لك مثله فى مصر »

فقالت شوكار بكل بساطة واخلاص : « ليست السعادة فى قربى من الخلفاء ولابالتزوج من أميرأوشريف ، وانما هى فى الحب المتبادل » . قالت ذلك وتورد وجهها حياء ، فحولته الى ستارة معلقة بالحائط عليها صور بعض الطيور وتشاغلت بالنظر اليها

فابتدرتها سلافة قائلة : « اذا كنت عالقة القلب ببعض الشبان فى مصر فاحذرى ولا تنخدعى . قد يكون ذلك الشاب حينما علم بسفرك تزوج غيرك . وهبى انه تزوجك فليس اسهل على الرجال من الطلاق . لاتثقى بأحد منهم ، أقول لك هذا عن اختبار »

فابتسمت شوكار ابتسـام النصر لثقتها بحبيبها وقالت : « ان الشاب الذى احبه على خلاف ما تقولين ، وأنا واثقة من ثباته على حبى . وقد يأتى الى هذا البلد لانقاذى »

فضحكت سلافة باستخفاف لتحمل شوكار على التصريح بما فى قلبها ، وهزت رأسها هز الانكار وسكتت ، فقالت شوكار : « أؤكد لك ياسيدتى أن خطيبى هو كما أقول لك ، ولو عرفته لوافقتنى على رأيى »

فأحبت سلافة أن تتبع الحديث الى آخره فقالت : « ما اسمه ؟ » . وأخذ قلبها يخفق لعلمها بالجواب قبل سماعه

فقالت شوكار : « هو الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ولا شك انك تعرفينه ، فهل ألام على حبه ؟ » . قالت ذلك وأبرقت عيناها وأكبت على يد سـلافة تقبلها وهى تقول متضرعة : « بالله يا سيدتى ساعدينى ، فليس فى الدنيا أحد يقدر أن يحقق لى هـذه الامنية سواك . . أنت جئت بى الى هذه المدينة ، وأنت وحدك تقدرين على ارجاعى الى مصر . » وشرقت بدموعها

وكانت سلافة حالما سمعت اسم ركن الدين قد هاجت عواطفها وزادت نقمتها ويئست من النجاح فى هذا السبيل ، فتظاهرت بالحنان عليها وتلطفت اليها وقالت : « نعم أعرف الامير ركن الدين ، وهو من خيرة الامراء ، واذا كنت على ثقة من حبه فانى أبذل جهدى فى مساعدتك لأنى احببتك كثيرا ولا غرض لى الا راحتك وسعادتك »

فلما سمعت شوكار كلامها اعتقدت صدقه ، فاختلج قلبهـا فى صدرها من الفرح وقالت وهى تضحك : « صحيـح ؟ ! صحيـح ما تقولين ؟ ! ترجعينني الى مصر ؟ ! شكرا لك يا سيدتى ، أسرعى فى انقاذي» . وهمت بتقبيل يدها فمنعتها وضمتها الى صدرها تحببا. ولو علمت شوكار بما يكنه ذلك الصدر نحوها لأجفلت وتراجعت ، لكنها صدقت واعتقدت قرب الفرج

أما سلافة فقالت : « يصعب انقاذك سريعا . . وأنت لم يمض عليك يوم بقصر أمير المؤمنين الذى أمر باصلاح شأنك ليسمع صوتك فى هذه الليلة . . كونى مطمئنة ، انى لا أدخر وسعا فى اجابة طلبك ، ولابد من حيلة أدبرها لك »

فأحست شوكار بارتياح كثير ، وعولت فى نجاتها على سلافة ، وشكرت الله لالتقائهما

□

والتفتت سلافة اليها بلهفة كأنها استدركت شيئا فاتها ، أو أنها وفقت الى رأى جديد وقالت : « اسمعى ياعزيزتى اذا لم يكن بد من الرجوع الى مصر فالأوفق أن نبدأ بالسعى من هذه الساعة . أما بعد أن يسمع أمير المؤمنين صوتك فسيصبح الخروج صعبا »

فتأكد لدى شوكار صدق رغبتها فى انقاذها فقالت : « وما هو الرأى يا سيدتى ؟ إنى رهينة اشارتك افعل ما تأمرين به »

قالت : « ارى أن تبتدئى من الآن فتشكى من صداع فى راسك وألم فى حلقك ، وأنا أرفع خبر ذلك الى القهرمانة وأقنعها بصحته ، ثم احتال فى نقلك الى قصر آخر أهداه الى الخليفة لأقيم فيه على مقربة من قصر التاج ، ومتى صرت هناك هان انقاذك »

فخدعت شوكار بهذا القول ، واستبشرت به ، ورأت فيه سبيلا لعودتها الى حبيبها ركن الدين ، فانحنت على قدمى سلافة تحاول أن تقبلهما وقالت : « شكرا لك يا مولاتى . . شكرا لك . . انى أشعر بالصداع من الآن . . » . فتناولت سلافة منديلا عصبت به رأسها ، وصفقت ، فجاءتها اقحوانة وهى تقول : « أن مولاتنـا القهرمانة استبطأت شوكار فبعثت فى طلبها لأن أمير المؤمنين آت بعد قليل »

فقالت : « انظرى ، انها مريضة تشكو صداعا شديدا وألما فى حلقها وقد تعبت فى معالجتها ، فالأحسن أن تعتذر القهرمانة الى أمير المؤمنين من غيابها ريثما تشفى » . فذهبت اقحوانة الى القهرمانة بالخبر ،

فاسرعت هذه لمشاهدة شوكار وهى تقول بصوت جهورى خشن : « كيف ذلك ؟ . . مولاى الخليفة يأتى بعد قليل . . وقد قضى زمنا طويلا فى انتظار هذه المغنية . . فكيف تمرض فى ساعة وصولها ؟ »

ولما وصلت الى غرفة سلافة رات شوكار مستلقية على الارض وهى تصيح من شدة الألم وقد تغير لونها ، فلم يسعها عند رؤيتها الا الاشفاق عليها ، ونظرت الى سلافة فرأتها شديدة الاهتمام بها والحنو عليها فقالت لها : « أحب أن انقل هذه المسكينة الى دار المرضى ليعودها الطبيب ثم . . »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « لا ، لا تنقليها الى مكان ، دعينى أهتم بأمرها . دعى ذلك لى . . » . قالت ذلك وهى تهتم بتغطية شوكار وتلمس جبينها وخديها ثم قالت : « دعى أمرها لى ، وأذا اقتضت الحال نقلها نقلتها الى قصرى ، لأن موقعه يساعد على سرعة شفائها »

فعادت القهرمانة وهى تهيىء الأعذار للخليفة لتخلف مغنيته بعد أن منى نفسه بها على اثر انتظاره الطويل للحصول عليها . وقبل وصولها الى غرفتها جاءها رسول الخليفة يدعوها اليه ، فذهبت مهرولة الى غرفته فوجدته يعد نفسه للذهاب الى المنظرة ، وقد أخذ يلبس ثياب المنادمة . فلما وقع بصره عليها صاح بها : « أين المغنية الجديدة ؟ لقد ظفرنا بها بعد طول الانتظار ، والحمد لله . هل جربت صوتها ؟ . هل أسمعتك اياه ؟ يقولون انها أرخم النساء صوتا وأتقنهن صنعة ، قد آن لى أن أستريح من مهام الدولة ومتاعبها ، سامح الله أبا بكر انه سبب هذه المتاعب كلها » . واسترسل المستعصم فى الكلام وهو واقف والخادم يساعده على لبس الغلالة ولف العمامة الصغيرة ، والقهرمانة واقفة تنتظر سكوته لتجيبه على اسئلته . فلما سكت قالت : « ان جاريتك شوكار مريضة الآن »

فصاح فيها : « مريضة ! لقد رأيتها اليوم فى عافية . متى مرضت؟ »

قالت : « كانت فى خير ، لكنها أصيبت منذ ساعة بصداع شديد كاد يقتلها ، وقد اهتمت بجاريتك سلافة بأمرها »

فقطب المستعصم حاجبيه ، وكان الخادم الواقف بين يديه يناوله منطقة من الحرير ليتمنطق بها ، فتناولها ورمى بها الى الارض ، وألقى نفسه على المقعد كأنه يستريح من تعب ، وتنهد وقال : « يا لله من سخرية القدر؟ لقد تشاءمت من هذه الجارية ، فانها منذ خروجها من مصر

وأمورها معرقلة ، ولما ظفرنا بها مرضت ، وأخاف أن تكون شؤما علينا فيما نحن فيه » . وأطرق لحظة ثم قال : « يا ليتها ظلت عند أبي بكر ولم نغضبه لأجلها ، وهل تظنين مرضها يطول ؟ » . قالت : «إنها تشكو صداعا وألما في حلقها ، والأمل أن تشفى في يومين أو بضعة أيام . واذا لم تشف فغيرها خير منها . . ان الجواري المغنيات كثيرات في خدمة أمير المؤمنين . . هل يأمر بتهيئة سواها ؟ »

قال : « هيئي من شئت منهن . . اني في حاجة الى الراحة بعد تعب هذا النهار . هل علمت ماذا جرى لنا اليوم مع أبي بكر ؟ »

قالت : « انه غضب لذهاب شوكار من يده ، وقد أخطأ لأنه اخذها وهو يعلم انها محمولة لمولانا أمير المؤمنين . لكنه فعل ذلك بدالة الابن على أبيه . . » . وقد استرضته بهذه العبارة . وهو انما سألها هذا السؤال ليسمع منها هذا الجواب ، لأن قلبه ما زال مشغولا من جهة ابنه ، يتنازعه في شأنه عاملان : أحدهما النقمة عليه لأنه تجاوز حدوده وتعدى على حقوق أبيه ، والثاني عطفه عليه ورغبته في ارضائه ، والعامل الاخير أشد ظهورا وأكثر تسلطا على قلبه . وهو يعلم ان تلك القهرمانة تحب أبا بكر ، أو هي تعرف حبه اياه فلا تجيب الا بما يخفف من غضبه عليه ، فسألها ذلك السؤال ولم يكن عنده ريب في اطلاعها على ماجرى في جلسة ذلك اليوم وان كانت في دار النساء . فانها كانت كثيرة التدخل في شؤون الدولة والاطلاع على ما يجرى منها ، لأن المستعصم كثيرا ماكان يذكر ذلك بين يديها على سبيل التفاخر ، فأصبحت كثيرة النفوذ عنده شأن الدول في عهد انحطاطها

فلما سمع الخليفة قولها عن أبي بكر سرى عنه وقال : « صدقت انه فعل ذلك بحسن نية ، وقد جرأه عليه الداودار . . وكان ينبغي لهذا أن يردعه ويقف في وجهه »

ولم تكن القهرمانة تحب الداودار لأنه جندي خشن لايحترمها ، فلما سمعت الخليفة ينتقده وافقته وقالت : « طبعا كان يجب على الداودار أن يردعه . . لكنه يفعل ذلك بدالته على أمير المؤمنين لأنه قائد جنده . . وتلك دالة كاذبة ، اذ يستطيع أمير المؤمنين أن يبدل بداوداره أحسن منه . . لكنه لايبدل بابنه سواه . . » . قالت ذلك وضحكت اعجابا بهذا التعبير ، واظهرت انها تهتم بالخروج لتهيئة جلسة الغناء ، فأجابها بضحكة من نوع ضحكتها وقد فهم قصدها ، وهي تعني أن يعزل الداودار وقال لها : « ابعثي الى أبي بكر ليحضر

هذا المجلس معنا . عسانا ان نعوضه ونرضيه فاشارت اشارة الطاعة وانصرفت

□

تركنا مؤيد الدين فى داره وقد بعث رسوله الى هولاكو بعد أن يئس من الاصلاح ، على انه ظل برهة بعد ارسال الغلام وهو غارق فى التفكير ، تتناوبه الخواطر المتضاربة بين ندم وارتياح ، لكن الارتياح كان غالبا عليه لأنه لم يقدم على مخابرة هولاكو الا بعد تردد طويل . قضى ذلك اليوم ولم يخرج من منزله ، ومضت أيام أخر وهو لأيريد أن يرى أحدا ولا أن يخاطب أحدا لعظم قلقه وفظاعة ما أقدم عليه ، وازداد قلقه لأن الخليفة لم يسأل عنه ، ولم يدعه اليه ، فعد ذلك تغيرا عليه ، ففضل البقاء فى منزله كالمحاصر ريثما يرى ما يحدث

وأصبح ذات يوم فاذا بطارق يطرق الباب ، فعرف من طرقه انه سحبان ، وكان قد طال غيـابه هـذه المرة حتى قلق عليه ، فلما رآه مقبلا رحب به وأشار اليه أن يقعد ، ورأى فى وجهه تغيرا فقال : « ما وراءك يا سحبان ؟ أراك متغيرا »

قال : « وأنا أراك متغيرا أيها الوزير . . ولا عجب اذا رأيت فى تغيرا ، فانا اذا بقينا على رأيك ، فنحن متغيرون جميعا . . بل نحن منتقلون الى الدار الآخرة عما قريب » . قال ذلك وتشاغل بعض شفته السفلى كأنه يفكر

فأدرك مؤيد الدين ان سحبان ينتقدصبره على المستعصم ومحافظته على ولائه الى هذا الحد فضحك وقال : « الانتقال الى الآخرة خير لنا من هذه الدنيا » . قال : « نعم ، ولكننا لاينبغى أن ننتقل قبل أن ننتقم » . قال : « لك على ذلك »

ولم يكن سحبان يتوقع سرعة الموافقة ، فاستغرب جوابه وقال : « ومتى ؟ » . قال : « بعد بضعة أيام »

فدهش سحبـان ونهض فجأة متـأثرا وقال : « ماذا تعنى ؟ ! أظنك لم تفهم مرادى » . قال : « كيف لا ؟ ألم تقصد التخلص من أولئك القوم ، ولو استنجدنا عليهم الغرباء ؟ » . قال : « بلى ! » . قال : « قد فعلت . . فاصبر لنرى النتيجة »

فتلفت سحبان حوله خوفا من أن يسمعه أحد وقال : « استنجدت هولاكو ؟ . كتبت اليه أن يأتى ؟ ! » . قال : « لقد فعلت ذلك . . وكنت انتظر مجيئك قبل الآن لأخبرك وأرى رأيك . . »

فقطع سحبان عليه كلامه وصاح : « وهل لى رأى غير ذلك ؟ ! هذه هى أمنيتى ، اذا حصلت عليها لاأبالى ان أنا مت الساعة . . وقد جئتك الآن بأمر جديد مهم لكنه لايقف فى سبيلنا » . قال : « وما هو ؟ » . قال : « الأمير أحمد الذى سميناه الامام . . أنت تعلم اننى بعد أن أتيت به الى هنا ارجعته الى حيث كان فى قصر الفردوس . وكأن القوم أدركوا قصدنا ، أو لعلهم علموا بخروجه وارتابوا فى حرس قصره ، فنقلوه الى قصر آخر » . قال : « أى قصر ؟ » . قال : « نقلوه الى قصر قرب باب كلواذى فى الجنوب ، وأقاموا عليه الحراس وشددوا التضييق عليه . . » . قال : « هو الآن فى كلواذى ؟ ولماذا فعلوا به ذلك ؟ »

قال : « فليفعلوا مايشاءون ، انه خليفتنا حيثما كان ، وهل يصعب علينا اخراجه من سجنه متى تم لنا ما نطلبه ؟ ! اذا دخل التتر بغداد وقبضوا على هذا الخليفة فستكون أنت معهم فترشدهم الى الامام أحمد فيولونه الخلافة . . آه ما أجل ذلك اليوم السعيد ! وأسعد منه أن نعيد دولتنا العلوية . . هذه هى أمنيتى الحقيقية »

فنظر مؤيد الدين اليه وهو يغبط فيه ذلك الأمل الواسع والوثوق بالنجاح لأضعف الأسباب . . ان صاحب هذا الخلق قد يخطىء ويفشل ، لكنه أقرب الى السعادة من الرجل الحذر الكثير الشكوك الذى يرى السعادة فى قبضته ويشك فى وجودها . ولذلك استغرب مؤيد الدين سرور سحبان واطمئنانه لا لشىء الا أن سمع منه انه وافق هولاكو على القدوم الى بغداد ، وفاته ما يعترض نجاحه من العقبات ، وانه قد عرض نفسه فى هذا لخطر جسيم . ثم رفع نظره الى سحبان وقال : « وفقنا الله فى سعينا على القوم الظالمين »



ركن الدين في بغداد

وبينما هما في ذلك اذ سمعا قرع الباب . وكان الباب بعيدا عن غرفة الوزير ، ولم يكن يهتم لسماع قرعه من قبل . أما الآن فانه لشدة قلقه أصبح لا تفوته حركة مما يحدث في البيت ، فتطلع نحو الباب ، واذا بغلام سحبان قد دخل وفي وجهه تغير ، فقال له سحبان : « من أين أتيت يا غلام ؟ »

قال : « أتيت من المنزل يا سيدي » . قال : « ولماذا ؟ » . قال : « لأن قادما غريبا جاء يطلبك والح على ان أوصله اليك حالا ، فجئت به لعلمي انك في دار الوزير » . قال : « من هو هذا القادم ؟ وأين هو ؟ » . قال : « لم يشأ أن يخبرني عن اسمه ، لكنه جاء معي وهو واقف في انتظار الاذن له »

فالتفت سحبان الي الوزير كأنه يستأذنه في ادخال ذلك الضيف ، فقال الوزير : « أدخله » .

فعاد الغلام ومعه رجل حسن البزة عليه لباس السفر ، وحالما وقع نظر سحبان عليه صاح : « الأمير ركن الدين ؟ ! الأمير ركن الدين ؟ ! » ونهض لملاقاته والترحيب به

ونهض مؤيد الدين وهويقول : « مرحبا بالامير ركن الدين » . فمشى ركن الدين حتى دنا من الوزير فحياه وحيى سحبان ، وجلس على كرسي قدموه له ، وأخذ الوزير يرحب به قائلا : « طالما سمعنا بالأمير ركن الدين بيبرس وأعماله في مصر ، وكنت في شوق الى رؤيته فمن الله علي بذلك »

فقال ركن الدين : « ليس في ركن الدين ما يدعو الى الاعجاب لأني لم أعمل عملا ، ولكن الأعجاب يجدر بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي القابض على أزمة الدولة العباسية يدير شؤونها »

وتصدى سحبان للكلام قائلا : « ان الامير ركن الدين بطل عظيم » . ووجه كلامه الى الوزير وقال : « ألم أقل لك عن بسالة هذا البطل وما أتاه من المدهشات في محاربة الافرنج وتخليص مصر من أيديهم ؟ فعساه أن يساعدنا في تخليص بغداد من غيرالافرنج . . » . وضحك

فلم يعجب مؤيد الدين تسرعه لكنه تغافل ، وتغافل أيضا ركن الدين لأنه مثل مؤيد الدين تكتما وحذرا ، فخجل سحبان من نفسه وأراد أن يغطي خجله فأثار موضوعا جديدا فقال لركن الدين : « متى وصلت الى بغداد أيها الامير ؟ وكيف عرفت داري ؟ »

قال : « وصلت في هذا الصباح ، وأما منزلك فقد عرفت منك في مصر أنه بالكاظمية . وأنا أعرف بغداد ، فصرفت من كان معي وأحببت أن أدخل البلد متنكرا ، فوصلت الى الكاظمية وسألت عنك فقيل لي انك عند مولانا الوزير فجئت لأراك وأراه لأني أعرفه بالسماع ، فطلبت الى خادمك أن يأخذني اليك وقد فعل »

فقال الوزير : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا »

وتذكر سحبان تعلق ركن الدين بشوكار وقلقه عليها وحديثه معه بشأنها عند سفره من مصر ، فقال له : « هل تأذن أن نتكلم عن المهمة التي أنفذتني اليها من مصر ؟ ان لمولانا الوزير اطلاعا على شيء منها ، وهو محب لك غيور على شؤونك »

فقال ركن الدين : « أظنك تعني شوكار . نعم تكلم وقد كنت أتوقع أن تكتب الي بشأنها قبل الآن »

فخجل سحبان لكنه بادر الى الاعتذار قائلا : « كان ينبغي أن أفعل ذلك ، ولم أتأخر عن اهمال ، لكنني حال وصولي الى بغداد لقيت شوكار في المكان الذي كانت مخبوءة فيه ، وأخبرتني انها كتبت اليك ، وقد عملت على انقاذها فلم أوفق الى ذلك حتى الآن ، وما الفائدة من الكتابة بلا عمل ؟ والوزير يعلم بما وقف في طريقنا من العراقيل »

فقال : « والخلاصة أين هي الآن ؟ » . قال : « هي في قصر الخليفة منذ أيام » . قال : « وأين كانت قبل ذلك ، ومن خطفها ؟ » . قال : « كانت عند أبي بكر بن المستعصم ، وأبوه لايعلم انها عنده وأخذ يبحث عنها . ثم تمكنا من اختطافها من بيت أبي بكر وأخفيناها في منزلنا ، وهممت أن أفر بها اليك فعلم بها ذلك الغلام وأخذها منا بقوة الجند . ثم علم أبوه أنها عنده فأخذها اليه ، ولذلك حديث طويل يهمك منه أن شوكار لا تزال كما عرفتها في مصر تبذل نفسها في سبيل رضاك ، ولا تفضل مكانا في الدنيا على قربك . ولاشك انها في بيت الخليفة رغم ارادتها . ولابد من أخذها .. تمهل .. انما في مشكلة شائكة ستقلب بغداد راسا على عقب . وسيصل دويها الى مصر والاندلس وكل أنحاء العالم ، وسيكون لها شأن عظيم ، وانما يستفيد منها العاقل الحازم »

فخاف الوزير بعد هذه المقدمة أن يبوح سحبان بما حدث من

المساعي وهو يحب كتمانه ، فتصدى لمخاطبة ركن الدين قائلا : « لا تعجب أيها الامير من اضطراب حالنا فخليفتنا مشغول باستجلاب المغنيات من أقاصي المملكة ، عن الاهتمام بأمور الدولة والعدو على الابواب لايلبث أن يأتينا ، وجندنا في اختلال و . . »

نقطع ركن الدين كلامه قائلا : « سمعت وأنا قرب بغداد أن هولاكو التترى زاحف بجند كثيف على هذا البلد وانه الآن على مقربة منها . ألم تستعدوا له ؟ »

فهز الوزير رأسه وقال : « كيف لا ؟ بلغنا منذ أيام ان حملة من جند هولاكو وصلت الى تكريت بقيادة باجو وعبرت دجلة الى البر الغربي ونزلت تتطلب بغداد ، وقد اختلفت آراؤنا في طرق الدفاع ، ولم يستقر الرأى الا بعد أن وصل جند التتر الى دجيل وعددهم نحو ٣٠,٠٠٠ فارس ، فأمر الخليفة بارسال عسكره لدفعهم بقيادة مجاهد الدين ايبك الداودار ، ولكن عسكرنا قليل العدد والعدة ، ولاندري ماتكون النتيجة . على اني أخاف سوء العقبى لأننا غير متفقين في رأى ، وخليفتنا ضعيف مستسلم لابنه وقائد جنده ، وكلاهما على غير خبرة ، ونخاف أن يكون الله قد أراد انقضاء هذه الدولة و . . »

فتصدى سحبان قائلا : « لا تخف ، بل توسل الى الله أن تنقضي هذه المحنة ، وهذا الأمير ركن الدين لايخفى عليه شيء من أمرنا ، وقد حادثته وأنا في مصر عن استرجاع خلافة الفاطميين »

فاستاء مؤيد الدين من اندفاع سحبان في ابداء آرائه وقال : « لاأظن الامير وافقك على ذلك . . ونحن يكفينا الآن أن نبدل خليفة بآخر كما سبق الكلام »

فاستحسن ركن الدين اعتدال ابن العلقمي في رأيه فقال : « هذا هو القول المعقول ، وهو هين ميسور لمن يبذل المال بدون حرب ، وأنا أضمن لكم ذلك متى رجعت الى مصر وتم الاتفاق بيننا على رأى نرضاه » . وهو يضمر أن يجعل أمر ابدال الخليفة مرتبطا بصيرورة سلطنة مصر اليه . أي انه يشترط على الخليفة الجديد قبل توليته أن يساعده في التسلط على مصر

وأدرك مؤيد الدين غرضه فاستحسنه وندم على رسالته الى هولاكو وتعريض الخلافة للتتر ، لكنه ما زال يعتقد أن هولاكو لايزيد على أن يخلع الخليفة المستعصم ويطلب سواه وهم يدلونه على الامام أحمد فقال : « سننظر في ذلك ونرجو أن يعود بالخير »

فعاد ركن الدين الى الحديث عن شوكار وخبرها ووجه خطابه الى سحبان وقال : « والآن ماذا تفعل شوكار ؟ قل لي . . فقد تركت

بلدى وقومى وهم فى حاجة الى وجئت الى هذه الديار من أجلها ، فهل أعود دون أن آخذها معى ؟ هذا لايمكن »

فقال سحبان : « لابد من أخذها ، وقد قلت لك ان ذلك ميسور لما نرجو حدوثه من الانقلاب ، ومع ذلك فان الخصى عابدا الذى حمل اليك رسالة شوكار وحملته جوابك اليها مقيم عندى منذ اخذوا شوكار منا ، وقد أوصيته أن يتتبع أخبارها . وكان قد جاءنى منذ يومين بخبر لم أصدقه لبعده » . فقال ركن الدين بلهفة : « وما هو ؟ » . قال : « أنبأنى ان شوكار خرجت من قصر التاج ، على أنها لو خرجت لجاءت الينا ، وقد أوصيته بالامس أن يبذل جهده ويدقق البحث ويعود بالخبر الصحيح »

فقال : « أين هو الآن ؟ » . قال : « أظنه عاد الى منزلنا فى الكاظمية أو يعود الليلة ،هل تريد الذهاب الآن للبحث عنه ؟ » . قال : « نعم ، هلم بنا ومتى فرغنا من امر شوكار عدنا الى أمر الخلافة ، أو لعل الأمرين يتمان معا » . قال ذلك ووقف واستأذن فى الانصراف ، ثم ودع الوزير وخرج ومعه سحبان

□

كان ركن الدين قد عرف بغداد فى صباه ، فلما جاءها هذه المرة وجد فيها تغيرا كثيرا . ومشى هو وسحبان فى طريقهما الى الكاظمية ، وهى على مسافة بعيدة من قصر الوزير ، فعبرا الجسر حتى صارا فى الجانب الغربى من بغداد ، حيث كانت البلدة التى بناها المنصور منذ خمسمائة سنة ونيف ولم يبق منها الا آثار قد عفتها الايام واقيم فى مكانها الاسواق . وبينما هما سائران وركن الدين يتأمل فيما يمران به من الابنية ، رأيا جماعة من العامة يركضون نحو الجسر وهم فى خوف شديد ، وعرف سحبان رجلا منهم فناداه اليه ، فجاءه وقد غطى الوحل قدميه الى ركبتيه ، فسأله سحبان عن سبب هذا الركض فقال : « التتر ياسيدى ، التتر ! »

فقال : « ماذا تعنى ؟ اين هم ؟ » . قال وهو يرتعد : « هم هنا .. هنا فى بغداد »

فصاح فيه : « فى بغداد ؟ واين جندنا ؟.. ذهبوا لمحاربتهم عند دجيل ؟ ! أين الداودار ؟ ما بالكم ؟ تكلم »

قال : « ان هؤلاء التتر من الجان لايقدر احد ان يقف فى طريقهم . كنت قرب دجيل يوم وصولهم اليه ، وما ذاع أن التتر قد اقبلوا حتى

ذعر الناس وهربوا قاصدين المدينة بأولادهم ونسائهم فى حالة يرثى لها ، حتى كان الرجل يقذف بنفسه فى الماء خوفا منهم ، وقد رأيت ملاحا لم يرض أن يعبر برجل فى سفينته من جانب الى جانب الا اذا أعطاه عدة دنانير ، ورأيت امرأة دفعت للملاح سوارها ليعبر بها الى الضفة الاخرى ، ثم قالوا لنا ان جند الخليفة جاء لمحاربة أولئك العفاريت فسكن روعنا ، لكننا ما لبثنا ان رأينا جندنا يتقهقر مدحورا أمام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتلا وأسرا . وأعانهم على ذلك ماحفروه فى الليل من خندق وصلوه بالنهر فكثرت الوحول فى طريق المنهزمين ، ولم ينج الا من رمى نفسه فى الماء وأنا منهم .. » . قال ذلك وأشار الى الوحل على قدميه وهو يلهث

وكان ركن الدين يسمع ذلك وشرر الغضب يتطاير من عينيه فقال سحبان للرجل : « والداودار ، أين هو ؟ »

قال : « رجع مع بقية الجند مدحورين مكسورين ، ولذلك انكسرت قلوبنا . نعوذ بالله من التتر ! يا لطيف ! »

فقال : « وكيف رأيت هؤلاء القوم ؟ »

قال : « رأيتهم من الأبالسة ياسيدى .. لا يمكن لجندنا أن يقف أمامهم ، واذا وقفوا أكلوهم أكلا .. أعوذ بالله ! لم أر مثل هؤلاء الناس . لا . لا لم أر مثلهم عمرى . اذهب ياسيدى من الطريق . لأنى أظنهم الآن على مقربة من بغداد ، أو لعلهم دخلوها . وبلغنى ان فريقا منهم نزل عند المارستان العضدى ، وفريقا آخر وصل الى المبقلة تجاه الرصافة ، ولم يبق بينهم وبين قصور الخلفاء الا دجلة . سر ياسيدى . لا تعرض نفسك للسهام المتساقطة فسهامهم تتساقط كالمطر .. لا . لا . لم أر مثل هؤلاء الناس قط » .. قال ذلك وجرى مسرعا

فالتفت سحبان الى ركن الدين فرآه يهتز من الغضب ، وقد احمرت عيناه وقطب حاجبيه ، وود لو أن فرسه تحته ليهجم على التتر فقال له سحبان : « ما بال سيدى الامير ؟ » .. قال : « ويلك ياسحبان ! أهكذا يكون رجال الخلفاء ؟ يهربون من وجوه التتر المتوحشين حتى يدخلوا دارهم ! كم أتمنى أن يكون فرسى تحتى أو يكون رجالى معى لأريهم كيف يكون القتال ! »

فضحك سحبان وأمسك بذراع ركن الدين وتحول به الى زقاق ضيق ومشى وهو يقول : « ان اظهار البسالة لا يفيد ، لأنها ضائعة يامولاى . ان القوم ماتت نفوسهم وذهبت دولتهم ، وكفى ما ارتكبوه من المظالم ، ولو أراد الله نصرهم لأنار بصائرهم وهداهم الطريق الصواب ، لكنهم

يتخبطون فى أعمالهم تخبط الاعمى ، ولايعلمون . دعهم ان الله أقدر منا على نصرتهم اذا شاء »

وبينما هما فى ذلك اذ رأيا سهما وقع أمامهما ذا شكل خاص لم يعهد سحبان مثله فيما يعرفه من السهام ، فالتقطه وتأمله فرأى عليه كتابة عربية فقرأها ، فاذا هى : « ان الرؤساء العلويين (الشيعة) ، وكل من لايقاتلنا ، آمنون على أنفسهم وحرمهم وأموالهم »

فدفع السهم الى ركن الدين فلما قرأه قال : « يلوح لى ان العلويين ينصرون التتر »

قال : « ان العلويين مظلومون ياسيدى . أما كفاهم ما قاسوه من الضيم والعذاب أجيالا ؟. فاذا كانت الغلبة للتتر وأنصفوهم فلا حرج عليهم ولا علينا » . وهز كتفيه هز التنصل من التبعة

فتحقق ركن الدين أن حماسته للعباسيين لا تجدى نفعا ، ولم يبق له من هم الا أن يعثر على شوكار ويخرج بها من بغداد ويرجع الى امارته ويسعى فى نيل السلطنة بمصر . ولا بد له قبل كل شىء من لقاء عابد الخصى ليسمع منه خبر شوكار

وجعل سحبان طريقهما فى أزقة مهملة لايتزاحم فيها الناس ، لئلا يصدمهم الهاربون ، حتى أقبل على المارستان العضدى ، فرأيا ضفاف دجلة وما يليهـا تعج عجيجا بالتتر وخيـولهم وخيـامهم وأعلامهم وأسراهم . فوقف سحبان على مرتفع وأومأ الى ركن الدين أن يتأمل أولئك القوم ويميز بينهم وبين البغـداديين وقال له : « أرأيت التترى وقوة بدنه وخشونة يديه ، وكيف هو مشمر عن ساقيه ، وعيناه تكادان تطيران من وجهه . . أن بين هؤلاء الناس من قضى أياما وهو ساع على قدميه لاينام الا لماما ولايأكل الا القومز (لبن الخيل) كما كان البدوى فى صدر الاسلام يكتفى بناقته يسافر عليها ويقتات بلبنها ويتفيأ ظلها ويستأنس بها . هكذا هؤلاء التتر مع أفراسهم . وقد يعدو التترى فيسبق فرسه . فأين ذلك من جند بغداد وقد ألفوا الراحة والرخاء ، كما كان الروم فى صدر الاسلام . . هل نستطيع ياسيدى أن نقاوم القضاء ؟. لكل أجل كتاب ، والله يفعل ما يشاء ، هلم بنا الى الكاظمية لنرى عابدا ونسمع خبر شوكار »

فلم يحر ركن الدين جوابا من الدهشة التى تولته مع ميله الى معرفة خبر شوكار ، فتجاوز المارستان العضـدى والحربيـة الى الكاظمية ، فاختلف منظر الأهلين فى عين ركن الدين عما رآه فى سائر الاحياء . رأى أهل الكاظمية هنا مستبشرين مطمئنين ، كأن فوز التتر فوز لهم ، أو كأن التتر دولة شيعية جاءت لنصرتهم . وهكذا

الانسان يحب من يأخذ بناصره مهما بعدت الروابط ، ويكره من يسلبه حقه ولو كان أخاه . مرا فى أزقة الكاظمية وأهلها فرحون . وحالما رأوا سحبان تقدموا للسلام عليه وتهنئته ، فرد السلام وقد استحيى من التظاهر بالفرح الى هذا الحد بين يدى ركن الدين

وبعد قليل وصلا الى بيت سحبان فدخلا وقعدا ، وسأل سحبان عن عابد فجاءه ، وحالما رأى ركن الدين تناثر الدمع من عينيه واكب على يده يقبلها ، فاستغرب ذلك منه وقال : « ما وراءك يا عابد ؟ أين شوكار ؟ ماذا جرى لها ؟ » . فتماسك الخصى وقال : « بذلت جهدى يامولاى فى سبيل سيدتى شوكار كما وعدتك ولم أفارقها لحظة الا هذه المرة ، فلن الجند أخذوها رغم أنفى . لكننى أتعقب أخبارها كأنى معها »

قال : « وأين هى الآن ؟ » . قال : « آخر ما عرفته عنها انها فى قصر التاج » . فقال ركن الدين : « هذا عرفته من أخى سحبان ، وقد أخبرنى انك ذهبت للبحث عنها أمس ، فماذا عرفت ؟ » . فأطرق عابد وقد ارتج عليه ، فصاح ركن الدين فيه : « قل . قل يا عابد ماذا جرى ؟ » . قال : « تنكرت أمس فى زى الخدم حتى دخلت قصر التاج فى جملتهم واجتمعت بكثير من أصدقائى الخصيان ، واستطلعتهم خبرها فاختلفوا فى الرواية ، وفهمت من مجمل أحاديثهم أن شوكار يوم وصولها الى قصر التاج أصابها صداع شديد ، ولم تقدر أن تغنى للخليفة ، فباتت تلك الليلة عند صديقة لها من مصر اسمها سلافة » . فلما سمع ركن الدين اسمها ارتعدت فرائصه وصاح : « سلافة ؟ سلافة هنا ؟ أين سلافة ؟ » . قال : « نعم ياسيدى ، يقولون انها كانت قيمة قصور الملك الصالح بمصر ، ولها نفوذ عظيم فى قصر التاج لصلتها بقهرمانة القصور وأستاذ الدار ، حتى الخليفة نفسه يحترمها »

فأطرق ركن الدين ، وتذكر سعى هذه الجارية فى ابعاد شوكار عنه ليخلو لها الجو معه ، وكيف كانت مقابلته الاخيرة لها ؟ وكيف هددته ؟ مر كل ذلك فى ذهنه فى لحظة ، وقلبه يخفق خوفا من أذى تلحقه بشوكار ، فنظر الى عابد وقال : « قل وبعد ذلك ماذا جرى ؟ »

قال : « واختلف الرواة فيما جرى بعد تلك الليلة ، فقال بعضهم ان سلافة أخذت شوكار الى قصر لها قرب باب كلواذى ، وقال غيرهم انها لم تأخذها ، بل ظلت مخبأة فى قصر التاج ، وقال غيرهم غير ذلك » . وتغيرت سحنته كأنه يخفى شيئا خطر له ، ثم قال : « يظن بعضهم ان شوكار اختفت ، لكنهم لايعلمون أين هى ولا كيف ضاعت ؟ » . فصاح ركن الدين : « لعل سلافة قتلتها ؟ »

قال : « لا . لا سمح الله . والمشهور عندهم ان سلافة أحب الناس اليها ، وهي التي بذلت جهدها في راحتها ، على انهم لايعرفون هل هي حية أو ميتة ، لكنهم يعرفون انها كانت تشكو صداعا وان سلافة قد احتضنتها ثم نقلتها الى قصرها للاستشفاء ، ولا يعلمون ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلها مقيمة عندها الى الآن بحيث لايراها أحد »

فهز رأسه هز الانكار ، والتفت الى سحبان كأنه يستطلع رأيه في الأمر فرآه مطرقا يفكر . وكان قد انفرد عنهما في أثناء الحديث ، وخاطب بعض العارفين من أهله عن أخبار التتر وهولاكو ، ثم عاد فقعد وسمع بقية الحديث . ولم يكن هو مطلعا على ما بين سلافة وشوكار من التحاسد ، لكنه كان يعرف جرأة سلافة وسوء نيتها ، مما اختبره بنفســـــه . فرفع بصره الى ركن الدين وقال : « ان سلافة شريرة لا تقدر العواقب فيما ترتكبه من المنكرات . أنا أعرفها جيدا ، واذا كانت قد جاءت بغداد فوجودها في قصور الخلفاء خطر على الناس ، لأنها اذا عزمت على أمر اندفعت اليه بكليتها ، ولايخدعنك انها حاسنت شوكار أو صادقتها ، فاذا رأت في الاساءة اليها نفعا لها فلن تتأخر عن أذاها »

فوافق ذلك ما في خاطر ركن الدين ، فهاج غضبه وأصبح صدره يصعد ويهبط كالأسد الهائج ، وما لبث أن نهض كأنه يهم بالمسير فأمسكه سحبان وقال : « ماذا تريد يا سيدى ؟ »

قال : « أريد ؟ أريد أن أبحث عن هذه اللعينة فاذا كانت قد ألحقت الأذى بشوكار أطرت رأسها عن بدنها »

قال : « تمهل ، ان الوصول اليها الآن صعب لأنها في قصور الخليفة وهذه القصور لا تبرح أن تفتح أبوابها لكل قادم فنفعل ما نريد بسلافة وغيرها ، وعسى أن نوفق الى وجود شوكار وهي في خير . . تعال معي لأريك شيئا جديدا سمعته الساعة وهو يخفف ما بك من القلق ويهون عليك الصبر »

وأخذ بيده وخرج به الى مسجد بالقرب من داره ، وأصعده الى مئذنة عالية تشرف على بغداد كلها ، وكان الجو صافيا ، ولفت نظر ركن الدين الى شرقي بغداد حيث قصور الخلفاء وقال : « أنظر الى الرصافة التي كنا فيها منذ ساعة وفيها قصور الخلفـاء والحدائق والمدارس وغيرها ، ووراء ذلك سورها المحدق بتلك القصـــور من الشرق ، ولهذا السور عدة أبواب وأبراج ، في جملتها برج هائل عند الزاوية الشرقية الجنوبية هو برج العجمي ، واذا امعنت النظر جيدا رأيت وراءه خياما وأعلاما . تلك خيام هولاكو وأعلامه »

فأجفل ركن الدين وقال : « خيام هولاكو ؟ هولاكو وصل بجنده الى هنا ؟ »

قال : « وصل من الشرق وحاصر بغداد من جهة برج العجمى ، وقد سمعت أن قائده باجو وجنده دخلوا بغداد من الغرب ، وهم فرقتان : احداهما معسكرة عند المارستان العضدى ، والاخرى عند المبقلة تجاه قصر التاج . فهل بعد هذا ترجو نجاحا للمستعصم ؟ ! »

فقال : « لكن القوة الحقيقية على ما اعلم فى شرقى بغداد حيث قصور الخلفاء ، والأمر أصعب على التتر مما تظن يا صاحبى . ان أسوار ذلك القسم متينة وجندها قوى »

قال : « سترى ، هلم بنا ننزل ، وفى نيتى أن اذهب الآن الى مؤيد الدين لأرى رأيه فى هذه الأحوال لأنه داهية مدبر عاقل ، وأستشيره فيما نفعل »

فنزلا ، ودعا سحبان ركن الدين الى المكوث فى منزله ، وأوصى الخدم به خيرا ، وفيهم عابد ، ثم مضى

□

لما خلا ركن الدين الى نفسه ، بعد ما شاهده فى بغداد من اضطراب أحوالها واختلال أمورها وما يهددها من الخطر جلس وهو يفكر فى مصيرها ، ورجح لديه ان التتر غالبون ، وتساءل : هل يقلبون الحكومة ويمحون الخلافة أم يبقون عليها ويبدلون خليفة بآخر . وتذكر مطامعه فى سلطنة مصر ، وهو يرجح مصيرها اليه لضعف القائمين بها هناك ، وتذكر حاجته الى مصادقة الخليفة لتثبيت سلطته ، فتمثلت له أهمية بغداد — مركز الخلافة الاسلامية — وكيف ان العالم الاسلامى على بكرة أبيه فى مشارق الارض ومغاربها لاغنى له عنها ، فلا يثبت السلطان على عرشه ان لم يأته تثبيت من خليفة بغداد لما للخلافة فى نفوس العامة من الاحترام الدينى . ثم نظر فى حال هذه المدينة وخليفتها على ضوء ما علمه فى ذلك اليوم فاستغرب سلطان الاوهام على الناس . ولكن رجال السيادة لاغنى لهم عن الاوهام ليسوقوا بها العامة الى حيث يريدون . ولما وصل فى تصوره الى هنا أطرق وقد خطر له خاطر رقص له قلبه طربا رغم بعده عن المألوف ، ولكن المرء اذا رغب فى أمر أخذ يفكر فيه حتى يرى مستحيله ممكنا — خطر له بعد ما شاهده من اضطراب أحوال بغداد ، وما يحدق بها من الخطر ، أن ينقل الخلافة منها الى مصر ، فتصير تلك الاهمية الى مصر

بدلا من بغداد وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامى ، لايستغنى عنها أمير أو سلطان ، وان استقل عنها بادارة حكومته فهو فى حاجة الى خليفتها فى تثبيته . ولو كان المفكر فى ذلك سحبان لرقص فرحا وتصور نفسه قد نقل الخلافة الى مصر وصار هو سلطانا يخطب رضاه سائر السلاطين ، لكن ركن الدين كان ضعيف الثقة فى المستقبل ، اذا بدا له أمل فى أمر يرغب فيه بحث عن كل مايمكن أن يحول دون نيله ، وهو أميل الى تصديق أسباب الفشل . فلما خطر له أمر الخلافة تصور العراقيل الكثيرة التى تحول دونه ، فعاد الى التفكير فى شوكار فهاجت أشجانه

قضى فى هذه الافكار برهة جاءه فى أثنائها عابد يدعوه الى الطعام مرة والى الصلاة مرة أخرى ، وبدل ثيابه حتى دنا الأصيل فقيل له ان سحبان عاد من عند مؤيد الدين ، وبعد قليل جاء سحبان والاضطراب باد على وجهه ، والغضب يتجلى فى عينيه ، فناداه ركن الدين وقال له : « ما وراءك ، هل رأيت الوزير ؟ » . قال : « لم أره » . قال : « ولماذا ؟ » . قال : « لأنه ليس فى منزله ، وقد برحه بعد خروجنا من عنده » . قال : «الى أين؟ » : قال : « بعثه المستعصم الى هولاكو ، والظاهر أن هذا الخليفة تحقق الخطر المحدق به ، وهو يعتقد دهاء وزيرنا وتعقله فأنفذه اليه ليسترضيه »

قال : « الى هذا الحد بلغ الضعف من خليفتكم ؟ » . فابتسم وقال : « ألم أقل لك ذلك من قبل ، وارسال وزيرنا فى هذه المهمة أحسن رأى ارتآه المستعصم ، لكن أخشى أن يكون قد جاء متأخرا ، وذلك لأن هولاكو كان قد اشترط نحو ذلك من قبل للكف عن العداء ، وأشار به الوزير على المستعصم ولكنه لم يطعه لأنه كان يسىء الظن به ويصدق ابنه أبا بكر ، وهو شاب مغرور ـــ فالظاهر أن المستعصم لما رأى جند التتر محاصرا قصوره ، وسمع دوى المجانيق ووقوع قنابلها على القصور ، ورأى عجز جنده عن القتال لجأ الى المسالمة ، وقد أحسن لأن وزيرنا حفظه الله له دالة على هولاكو فيشير عليه بما فيه خير الجانبين »

فقال ركن الدين : « لم أفهم مرادك من دالة الوزير لدى التتر ، وما هو الباعث عليها ؟ هل كانت بينهما معرفة ؟ »

قال : « لا أخفى عليك يامولاى ان بين الوزير وهولاكو مخابرة فى هذا الشأن ، أعنى ان هولاكو خابره وطلب اليه أن يكون معه ، ووعده خيرا كثيرا ، وظل مؤيد الدين يتردد ، وهو ينصح الخليفة ويخوفه ، فلما يئس من اصلاحه خابر هولاكو خوفا من انه اذا جاء وفتح بغداد

ينتقم منه ومن أهله وسائر الشيعة. أما اذا أظهر موافقته فانه يراعي جانبه ، ولم يفعل ذلك خيانة »

ففهم ركن الدين من ذلك ان مؤيد الدين خان خليفته ، ولو تنصل من ذلك ، وزعم أنها ليست خيانة — فقال في نفسه لا شك ان هذا من أكبر ادلة السقوط . ولم يبد رأيه في ذلك لكنه سأل سحبان قائلا : « وما تظن الوزير يفعل الآن اذا اجتمع بهولاكو ؟ »

قال : « أظنه يتفق معه على خلع المستعصم وتنصيب الامام احمد اخي المستنصر ، فانه أجدر بني العباس بمنصب الخلافة ، والمستعصم يخافه ، ولذلك حبسه في قصره وأقام عليه الرقباء ، فهذا الامام قد عرفناه واجتمعنا به وخاطبناه في أمر الخلافة اذا صارت اليه فوعدنا خيرا . ولا شك انه يسهل عليك سلطنة مصر ويساعدك عليها ، فانك أولى بها من سائر الأمراء »

فعلم ركن الدين أن سحبان يرغبه في مظاهرته على المستعصم وفي تنصيب الامام احمد خليفة ، لكنه يطمع فيما هو أكثر من ذلك : يطمع في نقل الخلافة الى القاهرة . غيرأنه لم يسمح لنفسه أن تتمكن منه هذه الخواطر خوفا من فشلها فاكتفى بموافقة سحبان على تنصيب الإمام احمد بدلا من المستعصم وقال : « وأين هو الآن ؟ »

قال : « كان محبوسا في قصر الفردوس بجوار قصر التاج ، ثم احدقت الشكوك به فنقلوه الى قصر عند باب كلواذي وأقاموا الحرس حوله ، وأنا عارف مكانه ، ومن أسهل الامور علي اذا تم اتفاقنا على خلع المستعصم أو قتله أن أخرج الامام أحمد من محبسه وأنادي به خليفة مكانه ، ولا أجد من يخالفني لأن الناس ملوا ضعف السياسة ، ولا سيما اذا علموا أن هذا التبديل كان بارادة الخاقان هولاكو قائد التتر . وكيف ترى يا سيدي ؟ »

قال : « أراك مصيبا ، ونعم الرأي رأيك ، وفقك الله الى اتمامه » . لكنه حالما سمع اسم باب كلواذي تذكر ما سمعه من عابد عن سلافة وأنها أخذت شوكار الى قصرها قرب هذا الباب ، وعادت اليه هواجسه وعاد يفكر في شوكار : أحية هي أم ميتة ؟ وهل سلافة لا تزال على كرهها لها فالتفت الى سحبان وسأله قائلا : « سمعتك تذكر باب كلواذي ومحبس الامام احمد عنده ، وأمس سمعت عابدا الخصي يذكر هذا الباب وان قصر سلافة عنده ، فكيف ذلك ؟ »

قال : « ان كلواذي يا سيدي حي فيه باب من أبواب سور بغداد سمي باب كلواذي ، وبقربه قصور كثيرة كما تقولون في مصر باب زويلة

وباب النصر وباب الفتوح فقد أصبحت أسماء أحياء فيها قصور عديدة »

وقضيا بقية اليوم وكلاهما يفكر في أمره ، وأكبر هم ركن الدين الوصول الى شوكار ومعرفة حالها وانقاذها أو الانتقام لها . وبات وهو يحلم بها

□

واصبح ركن الدين في اليوم التالي وقد مل الانتظار ، لكنه توسم في بقائه هناك خيرا ينفعه في مطامعه السياسية ، على أنه كلما فكر في شوكار خفق قلبه ورأى أنه أساء اليها لأن ما أصابها من الأذى انما كان بسببه . وبينما هو في ذلك اذ جاءه عابد وفي وجهه خبر فقال له : « ما وراءك ؟ »

قال بالباب رسول من سلافة معه كتاب اليك »

فلما سمع اسمها اقشعر بدنه وقال : « ليدخل »

فدخل الغلام ودفع الكتاب الى ركن الدين وتناوله فاذا فيه : « من سلافة الى الامير ركن الدين . علمت انك في بغداد وأنا فيها . . وعندى أمر يهمك أحب عرضه عليك ، فاذا شئت تفضلت بالمجيء الى قصري بباب كلواذى وهذا رسولي يهديك اليه والسلام »

فلما قرأ الكتاب دفعه الى سحبان ليرى رأيه فيه فحذره من الذهاب ، فقال ركن الدين : « لا بد من الذهاب لأرى هذه الداهية وأتحقق أمر شوكار ، وماذا عساها أن تفعل بي . عار على أن أخافها وخنجري معي . لكن أين موقع قصرها من هنا ؟ »

قال : « هو بعيد ، لابد للذهاب اليه من المسير مسافة طويلة ثم عبور دجلة فوق الجسر الذى جئنا منه . اذا شئت المسير فهذا فرسي بين يديك ، وهذا عابد يسير في ركابك فضلا عن الرسول القادم من عندها »

فوقف ركن الدين وقال : « أذهب الساعة » وتحول الى غرفة منامه وأصلح هندامه وتسلح بخنجرين وتشدد ، ثم خرج وركب الفرس ، وسار عابد في ركابه والرسول يمشي بين يديه . ولحظ في أثناء الطريق أن أهل الكاظمية فرحون معتزون وقد اشتدت عزيمتهم وهاجت نقمتهم على جيرانهم من أهل السنة الذين كانوا يعتزون بالخليفة وحكومته . ولما خرج من الكاظمية رأى الناس في خوف شديد يجتمعون جلوسا أو وقوفا للمداولة في الأحوال الجارية ويتلقفون الأخبار من أفواه المارة متناقضة متباينة

وصل الى الجسر فعبره الى الرصافة ، فرأى النـــاس هناك أقل قلقا لقربهم من قصور الخلافة حيث لا يسمعون غير ما يدعو الى الثقة بقوة الجند ومناعة الحصون رغم ما كان يتساقط عليها من حجارة المجانيق حينا بعد آخر ، وهى حجارة صوانية كروية الشكل قطر الواحد منها نصف متر أو أكثر ، يقذفه المنجنيق من معسكر التتر على أبراج السور أو على بعض القصور ، وكانت الأســوار تجيب بمثلها ، وهذه هى مدافع تلك الأيام

وانتهى مسيره أخيرا الى ضفة دجلة الشرقيــة ، فوقف الرسول والتفت الى ركن الدين واشار بأصبعه الى قصر على ضفة النهر تحيط به حديقة حولها سور . دخل ذلك السور راكبا ، فتقــدم الرسول لاعلان وصــوله ، وترجل ركن الدين وسلم زمام الفرس الى عابد وأوصاه أن ينتظره وأن يكون على حذر ، ومشى فى الحديقة وقلبــه يخفق تطلعا الى ما يكون من أمر سلافة ، وصورتها لا تزال فى ذهنه كما فارقها فى المرة الأخيرة

□

وصل ركن الدين الى باب القصر فرأى سلافة واقفة فى انتظاره وقد لبست أجمل ما عندها من الحلى والثياب ، وبذلت جهدها فيما تملك به قلبه . أما هو فقد كان مدرعا بالتعقل وحب شـــوكار ، فحياها فردت التحية ورحبت به ترحيبا حسنا ، ودعته الى قاعة مفروشة أحسن فرش فيها النمارق والستائر والطنافس ، وأشارت اليه أن يقعد وهى تقول له وتبتسم : « من كان يظن اننا سنلتقى فى هذا البلد ؟ »

فقال : « ان المصادفة تأتى بأعجب العجب »

قالت : « الصدف ! هل تظن أننا التقينا هنا صدفة ؟ »

قال : « نعم ، لأنى لم يخطر لى ببال انك تجيئين الى هنا »

قالت : « هذا يصح عليك وأما أنا . . أنا المسكينة الشقية فيخطر لى كل شىء ، وأبذل راحتى وحياتى فى سبيل لقاء ركن الدين . لم تخط خطوة فى مصر وغيرها الا عرفت بها وحسبت لها حسابا » . ثم تنهدت ، فتشاءم ركن الدين من هذه المقدمة ، وأراد تغيير الحديث فقال : « أشكرك ياسيدتى على حسن ظنك بى . وصل الى كتابك فجئت ، لكننى أسألك سؤالا أرجو الجواب عنه »

قالت : « قل ما تريد »

قال : « علمت ان شوكار جاءت اليك فى هذا القصر فأين هى ؟ » . قال ذلك وهو يخاف أن يسمع خبر موتها أو قتلها ، فتجلد وهو ينتظر الجواب ، فأبطأت سلافة فى الجواب وهى تنظر اليه نظر الاستغراب ثم قالت : « مسكينة » . فصاح فيها : « مسكينة ؟ ! أين هى ؟ »

قالت : « ليست هنا ، لعلك تذكر أنى كنت ناقمة عليها ، وقد قلت لك انى أحببت ابعادها رغبة فى قربك ، لكننى شعرت هذه المرة لما لقيتها فى قصر الخليفة ، أنها لا تستحق العذاب لسلامة قلبها وطيب عنصرها . . » . وتنهدت وأظهرت سلامة النية وشدة الاسف

فقال : « قولى ما بالها . أين هى ؟ ماذا جرى لها ؟ » . قالت : « قلت لك انها ليست هنا » . قال : « فهمت أنها ليست هنا فأين هى ؟ »

فنظرت اليه نظرة العاتب وقالت : « لله أنت ! ما أكثر تسرعك ! أتطمع فى الملك وتوشك أن تناله ، ولا تستطيع أن تصبر على سماع حديث قصير عن جارية ؟ ! اسمع لأقص عليك خبر هذه المسكينة : رأيتها فى أول يوم جاءت فيه الى قصر التاج ، وسررت بها ، وقد ملأت قلبى ، وندمت على ما فرط منى فى حقها ، واستأنست هى بى وقصت على حديثها معك وأنها لا تود البقاء بعيدة عنك ولو كان مقامها بقصر الخليفة ، فأشرت عليها أن تحتال بالمرض ، ولما لى من النفوذ فى دار النساء وعند الخليفة تمكنت من اقناعهم بأنها مريضة وأنها فى حاجة الى تبديل الهواء ، وفى اليوم التالى انتقلت أنا الى هذا القصر وبعثت من يأتى بها الى ولبثت فى انتظار قدومها » . وسكتت وأظهرت أنها غصت بريقها ، فقال ركن الدين : « وبعد ذلك هل أتت ؟ » . قالت : « لا ، لم تأت » . فصاح قائلا : « اذن ماتت أو قتلت ؟ »

قالت : « احسب كما تشاء . انها ماتت وانتهى أمرها »

فنهض وقد ثارت شجونه وقال : « لا . انها لم تمت انك خبأتها فى مكان »

فضحكت وهى تنظر اليه باستخفاف وقالت : « بل ماتت يا ركن الدين ، ويسوءنى انها ماتت ، وقد أخبرنى البحارة الذين حملوها الى فى القارب أنها غاصت فى الماء رغم ارادتهم . ارجع يا ركن الدين الى رشدك واستسلم لقضاء الله ، ولاتعمل عمل النساء وتبكى على جارية ، وبين يديك سلافة تعرض عليك نفسها ، وهى فوق ذلك تعرض عليك منصبا لم يحلم به أحد من سلاطين مصر »

فرجح له موت شوكار ، وكان فى ريب من سبب موتها ، وان كان يرجح ان سلافة سعت فيه برغم تنصلها منه واظهارها الميل اليها . فأسف أسفا شديدا وود أن يقتل سلافة ، لكنه لم يتحقق انها هى القاتلة . ومع ذلك أراد أن يعرف ما هو المنصب الذى تعرضه عليه فرأى من الحكمة أن يسمع حديثها الى آخره فقال : « مسكينة شوكار وا أسفاه عليها »

فقالت هى: « مسكينة ، لقد شق والله على موتها ، ولكن ما الحيلة ؟ لابد لنا من التسليم للقضاء والقدر ، والآن الا تريد أن أخبرك بما انتدبتك له ؟ » . قال : « وماهو ؟ » . قالت : « لنجلس ولنتحادث» . ومشت به الى القاعة فقعدت ، وقد سرها انه أطاعها وأصغى لها ، وبان البشر فى محياها ، وقالت : « لعلك عالم بالاضطراب المستحوذ على الدولة بسبب محاصرة التتر ، وهذا هولاكو عند برج العجمى . ولم يصل الى هنا الا لضعف رأى الداودار قائد الجند . وقد غضب مولانا أمير المؤمنين عليه وأراد ابداله ، وحادثنى أستاذ الدار فيمن يليق بهذا المنصب ويرجى منه أن يرد شرف الجند العباسى ويدفع العدو عن أسوار بغداد فلم يخطر ببالى سواك — وان كنت لا تبرح بالى فى أى وقت » . ثم ابتسمت وقالت : « ليس هناك من يستطيع أن ينقذ الدولة من هذا الضيق سواك ، وانت اذا صرت قائدجند بغداد هان عليك أن تكون كما تشاء ، وأنا أضمن لك سلطنة مصر أوغيرها كما تريد . . انى أحبك واتفانى فى الحصول عليك وأحب أن تقول لى انك تحبنى ، أو على الاقل لا تحب سواى » . قالت ذلك بلحن الغرام

فأطرق هنيهة واستجمع قواه ، واطرق يفكر فأصحاب المطامع طلاب منفعة قبل كل شىء . انه أحب شوكار فى بادىء الامر شفقة عليها ، ثم أحبها حقيقة بعد ما قاسته بسببه من الشقاء ، وكان يود أن يجعلها سعيدة ، أما الآن وقد ماتت فليس من الرجولة أن يموت فى أثرها ، وان كان موتها قد شق عليه كثيرا ، ولم يطاوعه قلبه أن يحب التى كانت تبغضها وكانت سبب موتها . لكن ذلك لا يمنع أن ينظر فيما تعرضه عليه لعل فيه ما يبلغه الامانى التى طالما تاقت نفسه اليها وحلم بها . وقد تأكد من قرائن كثيرة أن سلافة ذات نفوذ لدى الخليفة وأهله وحكومته ، فخطر له انها قدتفيده فى مطامعه ، فأراد مسايرتها مع حفظ مقامه فقال : « لا أرى فى الكفاءة لهذا المنصب يا سيدتى ، ولا أشعر من نفسى بميل للتكلم فى المناصب الآن . سننظر فى ذلك فى فرصة أخرى »

فقالت : « هذا أمر لا يمكن تأجيله لأن الدولة فى حرب ، وهذه

قنابل المجانيق تصل الى قصورنا صباح مساء ، وأما كفاءتك فأنا أعلم الناس بها . لم يبق الا أنه يشق عليك يا قاسي القلب أن تعترف بحبي لك ! فكيف لوطلبت اليك أن تعترف بحبك لي ؟ يا لله ما أقسى قلبك ! اسمع ، هذا أستاذ الدار قادم الى لأني أسمع صوته بالباب يخاطب الحاجب . انه آت ليرى هل أقنعتك بقبول القيادة ، فبالله لا تخجلني بين يديه . أما اعترافك بحبك لي فاتركه الى ما بعد نيلك هذا المنصب وغيره مما ستراه مني »

ثم دخل الخادم يستأذن لأستاذ الدار ، فخفت الى الباب لاستقباله واخذت ترحب به لما تعلمه من نفوذه لدى الخليفة ، ثم دخلت به الى القاعة وأشارت الى ركن الدين وقالت : « هذا هو الامير ركن الدين البندقداري الذي قهر الافرنج وأرجعهم عن مصر . وقد ذكرت لك عنه ما يكفي . وأنا أباحثه الآن فيما انتدبتني له »

فنظر أستاذ الدار اليه وهش له وقد أعجبه ما في طلعته من أدلة الشجاعة والذكاء وقال : « يسرنا أن يكون في الامير ركن الدين مايرضي مولانا أمير المؤمنين ويكشف عنا العار الذي سببه الداودار السابق بسوء تدبيره . هل تريد أن نذهب معا الى قصر التاج الساعة ؟ »

فأراد ركن الدين أن يعتذر من عجزه ، فرأى أستاذ الدار ذلك تواضعا وقال : « لا .. لا نقبل منك عذرا ، هلم معي الى أمير المؤمنين » قال ذلك ومشى فالتفتت سلافة الى ركن الدين لفتة هيام ، وأمسكت يده بحجة الوداع وضغطت عليها وهي تقول : « سرني النجاح في هذه المهمة ، وعسى أن تفوز بانقاذ الدولة من الخطر . وأما أنا فاذا مت بعد هذا فحسبي أنك أطعتني في شيء عرضته عليك وان لم يكن فيه غير لوعتي وآلامي . واذا التقينا بعد الآن كان لنا شأن آخر »

ولكنه لم يزد على أن حياها مودعا وانصرف في اثر أستاذ الدار ، فركب كل منهما فرسه ، ومشى عابد في ركاب ركن الدين الى قصر التاج

سار ركن الدين وهو غارق في تفكيره على اثر ما شاهده من سلافة وهو لايفهم حقيقة حالها . على انه فعل مايفعله الرجل العاقل البصير . ولم يلم نفسه لسكوته عن الانتقام لشوكار ، لأنه لم يحقق مصيرها وهل تعمدت سلافة أذاها ، وان كان ميالا الى اتهامها بناء على سابق عهده بها . لكنها شغلته بأمر ذلك المنصب ، ثم جاء أستاذ الدار فلم يسعه الا السير معه الى الخليفة ، وفي نفسه ان هذا كله لايمنع من انتقامه لشوكار عند الوثوق من صحة القتل .

قطع مسافة الطريق وهو لاينتبه لرفيقه الراكب الى جانبه ولا الى اشتغال القوم بأخبار التتر ، ولا بسمع وقع قنابل المجانيق على المنازل ، فقد كان ذلك بعيدا عن طريقهم لايسمعه الا المنصت . ولكنه حالما وصل الى قصر التاج وجد أهله فى هرج واضطراب لكثرة ما تساقط حوله من حجارة المجانيق أو النبال المرمية عن الآلات . ووجه التفاته الى أستاذ الدار ليقلده فيما يفعله من الرسوم المعتادة ، فلما رآه ترجل عن دابته ترجل هو أيضا وسار فى أثره حتى أقبلا على باب مجلس العامة فلاقاهما الحاجب فأمره أستاذ الدار بالاستئذان له . وما عتم أن جاء الاذن فدخل والامير ركن الدين يتبعه

فالقى الاستاذ التحية على جاري العادة ثم قال : « يأذن لى مولاى أمير المؤمنين أن اقدم له الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وكنت قد ذكرت اسمه لمولاى وانه خير من يقوم بقيادة جند بغداد فى هذا الوقت العصيب ، وقد اشتهر بمهارته فى الحرب وتدبير الجند كما شهدت به سلافة القهرمانة »

وكان الخليفة فى تلك الساعة مطرقا يفكر ، وليس فى مجلسه أحد ، كأنه التمس الانفراد للتفكير . فلما سمع قول أستاذ الدار قال : «مرحبا بالامير ركن الدين» . وأشار اليه أن يقعد وقال له : « أصحيح ما يقوله أستاذ دارنا ؟ ! »

قال : « ربما اثبت حسن ظنه ما مضى ؛ أما الآن فلا أرانى كفؤا لهذه المهمة لأنى من أصغر القواد »

فأعجب الخليفة بتواضعه فقال : « بل انت قائد باسل ، وكلام القهرمانة سلافة مصدق عندى ، ونحن الآن فى حرب مع عدو غريب هو عدو كل مسلم ، لانه إذا فاز لاسمح الله فى حربه معنا لاتنجو مصر من اذاه ، فأنت مطالب بقهره للدفاع عن الخلافة ببغداد وعن السلطنة بمصر ، وأنت فاعل ان شاء الله . ولو عرفت فضلك من قبل لما سلمت قيادة جنودنا الى الداودار الذى ألبسنا العار ، فعسى أن تكون الوسيلة لمحو هذا العار عن جيش بغداد » . قال ذلك وتنحنح وأظهر انه لم يكمل حديثه بعد فظل ركن الدين ساكتا

ثم عاد الخليفة الى الكلام قائلا : « أظننا اخطأنا لأننا لم نصغ الى رأى وزيرنا مؤيد الدين من أول الامر ، فلو اطعناه لما اضطررنا الى انفاذه الآن لطلب الصلح وتأجيل الحرب ، ولا ندرى اذا كان طلبنا يجاب . ولكن سامح الله أبا بكر انه تعدى حقوق الابناء وكدر قلبى على الوزير ، فالآن أنظر أيها الامير انى جاعل امارة جند بغداد اليك فاذا دفعت العدو كافأناك بما انت أهله »

فأجاب ركن الدين : « ان الدفاع عن دار السلام وأمير المؤمنين فرض على كل مسلم ، واني باذل روحي في هذا السبيل ، وعسى أن يوفقني الله الى القيام بحق الخدمة »

□

وبينما هم في ذلك اذ دخل الحاجب وقال : « ان الوزير مؤيد الدين بالباب» . فأشرق وجه الخليفة وبان التطلع في عينيه . وحالما دخل مؤيد الدين لم يصبر المستعصم عليه حتى يلقي التحية فصاح به : « قل ماذا جرى ؟ » . قال : « كل خير ياسيدي . والتوفيق من عند الله »

قال : « اقعد وحدثنا بما جرى »

فقعد والعرق يتصبب من جبينه وأخذ في الحديث ، فقال : « لقيت هولاكو خاقان التتر ، وبينت له جرم اعتدائه علينا بلا حق ، واننا لانخافه، لكنا نحب حقن الدماء ، فأجابني جوابا غليظا . وبعد جدال طويل لم يقبل الكف عن الحرب الا اذا ذهب مولانا أمير المؤمنين بنفسه الى معسكره ، وتعهد بالمحافظة على مقام مولانا والابقاء على خلافته كما فعل بمن حاربهم من الملوك ، وقد قال لي انه لايهمه تغيير الملوك والخلفاء وانما يهمه الا يهان جنده . وهو يعد رفض مولانا أمير المؤمنين نجدته على الاسماعيلية اهانة لأنه كان يريد بذلك قطع دابر أولئك الاقوام لينجو العالم منهم . ثم حارب القوم وحده وغلبهم وبعث الى مولاي يعاتبه فلم يرد عليه . وكنت قد أشرت على سيدي أن يبعث اليه هدية فمنعه بعض خاصته من ذلك . وبعث الينا هولاكو أنه لم يعد يقبل هدية ولا يرضى الا أن يذهب اليه الوزير أو الداودار فلم نفعل. فعد ذلك اهانة مكررة لايقبل ترضية عليها الا أن يركب مولانا أمير المؤمنين اليه ويكون هناك معززا مكرما مع رجال خاصته . وقد أخبرني اننا اذا أطعناه في ذلك فهو عازم على أن يزوج ابنته من مولانا الامير أبي بكر»

وكان الوزير يتكلم والعرق يتصبب من جبينه خجلا من حمل هذه الرسالة الى الخليفة . والخليفة مطرق يسمع ولايتكلم ولايبدي حركة ، وكذلك كان ركن الدين . فلما فرغ مؤيد الدين من كلامه رفع المستعصم رأسه وتنهد وقال : « انه لعزيز على نفسي أن أذهب الى هذا التتري ، واني لأرجو أن نفوز عليه ونرده عن بلدنا بعد أن عهدنا بقيادة الجند الى الامير ركن الدين . . » . ولبث ينتظر جوابه

فقال الوزير : « ان الامير ركن الدين أهل لثقة أمير المؤمنين ، وقد

يأتي النصر على يده . لكنني أخاف أن يكون جندنا أضعف مما نظن . ولا يبقى باب للصلح ، وقد عرض علينا القوم صلحا تحقن به الدماء ومع ذلك فالأمر لمولاى »

فقال الخليفة : « لكن هذا الطاغية يطلب أن أذهب أنا بنفسى الى معسكره ؟ »

قال : « كلا يا مولاى قد رضى أن يركب مولاى بأعوانه ورجال خاصته الى فسطاط ننصبه لهم عند باب كلواذى مما يحاذى الشاطىء فيلاقيه هولاكو هناك وينقضى الأمر »

فهان عليه القبول بعد هذا التسهيل ، لكنه التفت الى أستاذ الدار واستشاره فى الأمر فأشار بالقبول لأنه رأى الخليفة مائلا الى السلم ــ ذلك كان دأبه اذا استشاره الخليفة فيجعل نصب عينيه أن يرضى احساس مولاه . فاذا رآه مائلا الى رأى أشار عليه به ، شأن المتملقين المتزلفين فى كل زمان ومكان . وهؤلاء اذا كان الامير أو الخليفة عاقلا نبذهم ، واذا كان ضعيفا أصبحوا من المقربين اليه فيفسدون حكومته ويعينون على سقوط دولته

فاستقر رأى الخليفة على اجابة هولاكو الى طلبه ، والتفت الى ركن الدين وقال : « قد سمعت ما أشار به وزيرنا ، وقد طالما خالفناه ولم نر فى مخالفته خيرا . أما الآن فالرأى أن نطيعه . وعلى كل حال فاننا نعد الامير ركن الدين من كبار قوادنا وعسى أن نوفق الى مكافأته » . والتفت الى الوزير وقال : « متى نصب الفسطاط ذهبنا اليه »

فأشار الوزير مطيعا واستأذن فى الانصراف وانفض المجلس . وأومأ الوزير الى ركن الدين أن يوافيه الى منزله

فخرج ركن الدين وهو غارق فى الهواجس ، وقد ساءه تنازل الخليفة الى هذا الحد . لكنه ركب الى بيت مؤيد الدين ــ وعابد يرشده ــ ليستفهم عن الحقيقة ، فلما وصل اليه رأى مؤيد الدين قد سبقه ورأى سحبان عنده وكان قد جاء للاستطلاع بعد علمه بخروج الوزير الى هولاكو

نهاية الدولة العباسية

دخل ركن الدين فوجد الوزير يذرع غرفته ذهابا وايابا وقد قطب حاجبيه وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما ، وسحبان قاعد ينتظر التفاته اليه . فلما دخل ركن الدين أومأ اليه مؤيد الدين أن يقعد فقعد . ثم وقف أمامه وقال : « أيها الامير قد قضى الامر »

فتصدى سحبان للكلام قائلا : « وكيف قضى ؟ »

فالتفت اليه وقال : « قضى كما تريد أنت لا كما أريد أنا ولا كما يريد الامير ركن الدين »

فقال ركن الدين : « أفصح يا مولاى »

قال : « لم أقدر أن أقنع هولاكو باستبقاء الخلافة العباسية . انه مصمم على ابادتها »

فصاح ركن الدين : « ابادتها ! يريد أن يقتل كل بنى العباس ؟ »

قال : « هكذا ظهر لي من مغزى كلامه وان لم يصرح بذلك »

والتفت الى سحبان فرآه يضحك فانتهره قائلا : « أنت تضحك لأنك لاتنظر الى العواقب ، اذا محيت الدولة العباسية ذهب الاسلام من هذه الديار »

فقال سحبان : « ولماذا ؟ نحن نعيد الخلافة الفاطمية »

فصاح فيه : « انك رجل أوهام وأباطيل ، اذا كنت ترجو ارجاع الدولة الفاطمية فانك ترجو المحال وتطلب اقامة الاموات » . والتفت الى ركن الدين فرآه ينظر اليه ويراعى حركاته ويوافق على كل حركة منها بملامحه وعينيه . فلما التفت اليه نظر هذا الى سحبان وقال : «قد أصاب الوزير بقوله ، انه رجل عاقل مدبر ، وكم سمعتك تذكر أمر الفاطميين ، هل سمعت منى موافقة على ذلك ؟ »

قال : « كنت اذا ذكرتهم سكت »

قال : « وسكوتى يكفي ؟ واذا كان هذا الطاغية ينوى حقيقة ابادة العباسيين كافة فانه يحدث كسرا فى الاسلام يعسر جبره » . ووجه

كلامه الى الوزير وقال : « لكنك قلت للخليفة ان هولاكو ينوى استبقاءه »

قال : « هذا ما قاله لى هولاكو ، لكنني لا أصدقه وقد فهمت من خلال كلامه وقرأت فى عينيه ما ذكرته الآن ، ويؤيد ذلك انه أعطانى رايات عليها علامته ، وأوصانى أن أنصبها على أبواب المنازل التى أريد حمايتها من الاذى ، أو على الطرق المؤدية الى منازل الشيعة . فاذا رآها رجاله عرفوها وكفوا عن الاذى ، ألا يدل هذا على عزمه الذى ذكرته لكم ؟ وعلى كل حال لابأس من الاحتياط للمخاطر » . قال ذلك وتحول الى ناحية من الغرفة أخرج منها راية صفراء عليها صورة خنجر أحمر ودفعها الى ركن الدين وقال : « خذ هذه لعلك تحتاج اليها » . ودفع رايات أخرى الى سحبان وقال له : « خذ هذه الرايات اغرسها فى مداخل أحياء قومنا فى الكرخ والكاظمية ، افعل ذلك بلباقة لئلا يشعر بك أحد »

فتناول ركن الدين رايته وخبأها تحت ثيابه ، وقد شق عليه الالتجاء الى هذه الخرقة للنجاة من السيف وهو قائد باسل تعود دفع الاذى عن نفسه وقومه بالسيف البتار . لكنه كان داهية يلبس لكل حال لبوسها

اما سحبان فانه مكث بعد ما سمعه من الانتهار الصريح صامتا وقد استولى اليأس عليه ، لكنه ما لبث أن رضى بما وقع ورأى ذلك فوزا عظيما للشيعة . ونظر الى ركن الدين وسأله عما فعله عند سلافة فاختصر هذا الجواب لأنه شعر انه بين يدى أمر مهم ينبغى له أن يسرع فى تدبره واستأذن فى الانصراف

خرج ركن الدين مهموما وفكره تائه ، فتقدم عابد اليه بالجواد فركبه وهو لايقصد مكانا معينا . ثم خطر له أن يتجه الى منزل سلافة لأنه ما زال يرجو أن تكون شوكار حية ، وأن لا يليق به الخروج من بغداد قبل أن ينتقم لها . قضى مسافة الطريق وهو يردد ما سمعه من مؤيد الدين عن عزم هولاكو على ابادة العباسيين . ففكر فى الأمر مستوحيا نفع نفسه ، كما يفعل كل انسان فى كل زمان . وليس ما يدور على أقلام الكتاب من أسماء الفضائل الراقية ، كالاريحية والنجدة والاتحاد والشجاعة والاحسان وغيرها ، الا أسماء مختلفة ترجع الى معنى واحد وهو « المنفعة الذاتية » فمن أراد أن يستنهض همم جماعة لعمل فلن يلقى مجيبا ان لم يكن فى ذلك العمل نفع عائد على كل منهم

فكر ركن الدين فى مطامعه الراسخة فى قلبه ، ومرجعها طلب السلطة

فى مصر ، فرأى لذهاب الخلافة العباسية علاقة كبيرة بذلك فأعمل فكرته للاستفادة من تلك الاحوال ، وعاده الخاطر الذى كان قد مر فى ذهنه بالامس وهو أن يجعل مصر قصبة الخلافة العباسية بحيث لايستغنى عنها سلطان ولا أمير . وارتاحت نفسه الى هذا الأمر ، وتذكر الامام أحمد وما سمعه عنه من اللياقة لهذا المنصب وانه محبوس قرب باب كلواذى . فرأى ان يقابله ويسعى فى انقاذه فاذا فتك هولاكو بسائر بنى العباس احتفظ هو بهذا الامام . ومتى صار هو سلطانا على مصر جعله خليفة فيها . فلما تصور ذلك رقص قلبه من الفرح

قطع ركن الدين الطريق الى باب كلواذى وهو غارق فى هذه الهواجس ، ولم ينتبه الا والناس فى ازدحام وهرج عند ذلك الباب وقد أخذوا فى نصب الفسطاط للخليفة ، فعاد الى تذكر الخليفة وما علمه من مصيره ، وتذكر الامام أحمد لعلمه أنه مسجون قرب باب كلواذى فنادى عابدا فدنا منه فقال له : « يقولون ان الامير أحمد عم الخليفة مسجون فى قصر بهذه الجهة فهل تعرف مكانه ؟ »

قال : « أظنه هذا القصر » . وأشار باصبعه الى قصر وراء قصر سلافة

قال : « هل تعرف أحدا من خدمه أو حرسه ؟ »

قال : « كلا يامولاى لأنه نقل الى هنا من عهد قريب ، واذا شئت أن ابحث فى ذلك فعلت ، هل تريد الذهاب اليه الآن ؟ »

قال : « أريد الآن أن أعود الى سلافة وأفرغ جهدى فى استطلاع خبر شوكار لأنى على وشك سفر .. كن على استعداد يا عابد ، هل تسافر معى الى مصر ؟ »

فقال شاكرا : « ذلك حظ كبير لى يامولاى ، ولكن شوكار ، هل تذهب بدونها ؟ »

فأثر سؤاله فى نفس ركن الدين تأثيرا شديدا ، وكان أولى به أن يسأل نفسه هذا السؤال ، فقال وهو يستمهل الفرس بالمسير : « آه يا عابد ان سؤالك هذا دلنى على غيرتك وصدق خدمتك . صدقت كيف نأتى بغداد لأجل شوكار ونرجع بخفى حنين ؟ هذا لايكون .. أنا سائر الآن الى سلافة اللعينة ولا بد لى من أن أقف على مصير شوكار ، وعند ذلك أفعل ما يرضى المروءة والوفاء »

وكان ركن الدين يسير على جواده الهوينى على ضفة النهر وعابد يماشيه فوصل الفرس الى عشب استطيبه فوقف ليتناول منه شيئا . فقال عابد : « أنظر يامولاى ، لايليق بي أن أحذرك أو ألفت نظرك لكنني أستأذنك في هذا الأمر ، بلغني عن سلافة هـذه أنها من شر النساء وأدهاهن حتى ان الخليفة لايرد لها طلبا ، وأنت ستكون وحيدا في قصرها فاحذر أن تغدر بك أو تستعين عليك ببعض الاشقياء خلسة » .

فأثنى ركن الدين على غيرته وقال : « لا تخف على يا عابد ، لكنني أوصيك بالانتظار في الحديقة قريبا من القصر ، فاذا لحظت مكيدة أو شيئا فنبهني بالنداء على الملاحين في هذا النهر ، أى اجعل نفسك كأنك تنادى ملاحا أوشـك أن يغرق فتحذره من الغرق ، وأنا حالما أسمع صوتك أفهم المراد ، وفي كل حال لاتفارق الجواد وليكن مهيأ للركوب »

فأجابه مطيعا ودخلا الحديقة ، وأسرع الحارس في ابلاغ خبره الى سلافة فهرولت لاستقباله وقد بدلت بثوبها ثوبا أجمل منه ، وتلقته بالترحاب ودخلت به الى القاعة وهي تقول له : « أرجو أن تكون قد نجحت في مهمتك » . قال : « وأى مهمة ؟ » . قالت : « ألم تذهب في هذا الصباح مع أستاذ الدار على أن تلقي أمير المؤمنين ليوليك قيادة الجند ؟ فهل تم الاتفاق على ذلك ؟ » . قال : « لم يتم شيء من هذا القبيل ، أرى انه لم يبلغك الاتفاق الذى أبرم بين هولاكو والخليفة » قالت : « لا . ماذا جرى ؟ »

قال : « بعث الخليفة وزيره مؤيد الدين الى هولاكو للبحث في شأن وقف القتال ولو مؤقتا ، فعاد الوزير ونحن عند الخليفة وأبلغه انهم اتفقوا مع هولاكو على أن يخرج الخليفة بنفسه اليه مسترضيا الى باب كلواذى . واذا أطللت من هذه النافذة رأيت الفراشـين ينصبون الفسطاط الذى سيأتى المستعصم لملاقاة هولاكو فيه ، وهذا الاتفاق يمنع حدوث حرب ، ولم تبق حاجة الى قائد ريثما نرى ما يكون »

فلما سمعت كلامه نهضت الى النافذة وتطلعت ، فرأت الفسطاط يوشك أن يتم نصبه فصفقت ولطمت خدها وقالت :

« ويلاه ! واذلاه ! أمير المؤمنـين يخرج من قصره لملاقاة عدوه ليسترضيه ؟ . قل على الخلافة وأصحابها السلام . . » . قالت ذلك وبان التفكير في عينيها وركن الدين صابر فاذا هي تقول له : « لم يبق لنا وطر في هـذا البلد ولا خير في المقام به هلم بنا . وهـذه أموالي وجواهري وكل ما أملك بين يديك . هلم بنا » . فقال : « الى

أين ؟ » . قالت : « الى مصر » . قال : « نذهب الى مصر وحدنا ؟ » . قالت : « خذ من شئت من الاتباع والاعوان »

فنظر اليها باهتمام وقال : « وشوكار ؟ » . قالت : « ألم أقل لك عن مصيرها ؟ » . قال : « لا أفهم ما تقولين . جئت من مصر الى بغداد للبحث عن شوكار فلا أرجع بدونها »

فهزت رأسها هز الاستغراب وابتسمت وقالت بلطف : « ماذا أعمل ياسيدى ؟ . من أين آتى بشوكار وقد قلت لك انها غرقت وأصبحت طعاما للأسماك » . فأجابها بهدوء : « لا . انها لم تمت ؛ ولا بد انها موجودة فى مكان . ابحثى عنها لعلك تجدينها فانى لا أرجع بدونها »

فزاد استغرابها وقالت : « ماذا تعنى ؟ أظنك تمزح »

قال : « كلا . انى أقول الجد وقلبى يحدثنى بأن شوكار لم تمت »

فأمسكت بيده وهى تقول : « اذا كنت لم تصدق فتعال لأريك برهانا يقنعك وتتأكد صدق قولى »

فمشى معها فمرت فى دهليز الى غرفة تشرف على دجلة ، وتقدمت الى خزانة فى الحائط ففتحتها واستخرجت صرة أخوجت منها خصلة كبيرة من الشعر وقدمتها اليه ، فحالما وقع نظره عليها عرف انها شعر شوكار ، فاقشعر بدنه وارتعدت فرائصه وصاح : « ماهذا ؟ »

قالت : « أليس هذا شعر المسكينة المأسوف على شبابها شوكار؟ » . قال : « نعم ، ومن أين اتاك ؟ » . قالت : « جاءنى به الملاحون الذين أرسلتهم الى قصر التاج ليأتونى بها الى هنا لأجل الاستشفاء ، فجاءونى بهذا الشعر وقالوا ان السفينة انقلبت بهم فى هذا المكان (وأشارت الى مكان فى الماء تحت القصر) وانهم حاولوا اخراجها فأمسكوا بثيابها وشعرها فغرقت وتقطع شعرها وظل فى أيديهم »

فأصبح صدر ركن الدين يعلو ويهبط ، وهو يغلى كالمرجل من الغيظ ، وأطرق يفكر فيما سمعه وأوشك أن يعتقد اشتراك سلافة فى قتل شوكار . وظنت هذه ان يأسه من لقاء شوكار هون عليه الرضا بها فوضعت يدها على كتفه تلطفا وابتسمت وهى تقول : « أظنك صدقتنى الآن ، آه يا ركن الدين لو تعلم منزلتك فى الحب عندى . لقد بذلت كل ما فى وسعى لكى أجعلك قائدا عند الخليفة فتكون أعظم قائد فى الاسلام . ولا يغضبك ان ذلك لم يتم فانى قد هيأت سلطنة مصر ومهدت لك سبيلها ولم يبق الا أن تصل الى القاهرة فتنالها »

موت شجرة الدر وعز الدين

وقع لفظ السلطنة على قلب ركن الدين أجمل وقع لأنه أقصى مايتمناه فخف غيظه ومال الى استطلاع حقيقة ما تقوله سلافة ، وظل ساكتا وهي ترعاه بنظرها . فلما رأت سكوته أمسكت بيده ومشت الى شرفة في تلك الغرفة تطل على دجلة وأومأت اليه أن يقعد على وسادة هناك ، وقعدت هي بجانبه والماء يجري بين أيديهما ، وركن الدين لايرى شيئا لعظم ماجاش في خاطره ، فقعد قعود المتحفز وأدركت هي انه يطلب تفصيل ما ذكرته

فقالت : « أظنك تحب أن تطلع على تفاصيل خبر سلطنة مصر وما فعلته في سبيل اعدادها لركن الدين ؟ . آه لو تشعر يا قاسي القلب بعظم حبي ، ولكنك ستشعر متى علمت بما ارتكبته من الامور العظام في سبيل مرضاتك »

وتنحنحت ووضعت ضفيرة الشعر الى جانبها استعدادا للحديث ثم قالت : « فارقت القاهرة وأنت تعتقد أن الملك الأشرف سلطان عليها وعز الدين ايبك وصي عليه »

فهز رأسه أن : « نعم »

فضحكت وقالت : « ذهب هؤلاء جميعا وذهبت شجرة الدر معهم »

قال : « الى أين ؟ » . قالت : « الى الموت » . فأجفل وقال : « كيف ماتوا ، انك تكذبين » . قالت : « سامحك الله على هذه التهمة ، أنا لا أكذب ، الا اذا كان ذلك في سبيل مرضاتك . نعم قد ارتكبت في هذا السبيل أفظع من الكذب ، ارتكبت القتل والخيانة في سبيل ركن الدين ، وهو ما زال يضن علي بكلمة أو لفتة » . قالت ذلك وغصت بريقها وتلألأ الدمع في عينيها ، فتأثر ركن الدين من منظرها لكنه تجلد ليسمع تتمة الحديث

فقالت : « انك تركت عز الدين وصيا على الملك الأشرف ، وقد رضي بذلك ، وشجرة الدر ساكتة قانعة بالسلامة ، ولو بقي الحال على ذلك لم يبق لركن الدين سبيل الى نيل السلطة . وهب انه نالها فهولايكون

سلطانا بل وصيا والسلطان من بنى أيوب ، وأنا أريد أن يكون ركن الدين سلطانا كما وعدته ، أتدرى ماذا فعلت ؟ »

فتطاول لسماع الحديث فقالت : « أظنك تعلم منزلتى عند عزالدين ومقدار انصياعه الى لأنى كنت السبب فى نيله ذلك المنصب بعد خلع شجرة الدر . أنا خلعت شجرة الدر ونصبت عز الدين ، وأنا جعلت القوم يختارون سلطانا أيوبيا ففعلوا وصار عز الدين وصيا . فعلت ذلك تمهيدا لك يا قاسى القلب ، وقد ذكرت لك عملى هذا ونحن فى القاهرة فلم تعبأ بقولى ، وأوشكت أن أنقلب عليك وأنتقم منك ، لكن قلبى لم يطاوعنى فظللت على حسن ظنى بك ، والقيام على خدمتك ، فأغريت عز الدين بالملك الأشرف فألقاه فى سجن مظلم سيموت فيه قريبا ان لم يكن قد مات . وقبض عز الدين على السلطنة بيده ولم ينازعه أحد فى ذلك ، بقى على أن أتخلص من عز الدين ليخلو الجو لركن الدين ويكون هو السلطان ، وأنا أعلم ان لعز الدين أعوانا أشداء ولايسهل قتله ، فأغريت به شجرة الدر ، وكان قد تزوج بها فدسست بواسطة بعض الجوارى من أبلغ شجرة الدر أن عز الدين لايحبها وانه عازم على التزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وشغلت عز الدين عن زيارتها مدة فتحققت تلك الاشاعة ، وأنت تعلم غلظ قلب هذه المرأة ، فاشتدت غيرتها حتى أغرت بعض الخدم وأوصتهم اذا دخل عز الدين الحمام أن يقتلوه خنقا فقتلوه وقالوا انه أغمى عليه فى الحمام فأخرجوه وشاع انه مات مصروعا

فصاح ركن الدين : « مات عز الدين ؟ » . قالت : « مات وماتت أيضا شجرة الدر »

فقال : « وشجرة الدر أيضا ماتت ؟ وكيف ذلك ؟ » . قال ذلك وقد غلبته الدهشة

قالت : « لما توفى عز الدين بايع القوم ابنه نور الدين على ، وكنت قد ربيته ، وهو يصغى لقولى ، فلما تولى أنبأته أن شجرة الدر هى التى قتلت أباه ، وحرضته على الانتقام له ، فأوعز الى نساء بيته فأماتوها ضربا بالقباقيب على رأسها ، وطرحوا جثتها فى خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقى فى مقابر السيدة نفيسة »

فبغت ركن الدين لذلك الحديث وقال : « أكنت أنت السبب فى ذلك كله ؟ »

قالت : « نعم . أنا السبب فى ذلك ، وقد ارتكبت هذه الأمور فى سبيل مرضاتك ، فأنت اذا نزلت مصر الآن لاتجد من يقاومك ، وهذا

نور الدين على فى قبضة يدى ، اذا شئت قتلته أيضا ، فتكون أنت سلطان مصر »

فأدهشته تلك الفظاعة والقسوة من امرأة ، وخيل له انه قبض على السلطة بيده ، فاختلج قلبه فى صدره ، وأطرق لحظة يفكر ، فوقع نظره على خصلة الشعر بجانب سلافة ، فعادت صورة شوكار الى ذهنه ، وتذكر أن شجرة الدر كانت السبب فى خطبتها ، وان هذه المرأة الخائنة اعترفت بأنها كانت سبب قتل كثيرين ، ورجح لديه انها قتلت شوكار أيضا . وما يمنعها أن تقتله اذا خامرها شك فى صداقته ويئست منه ؟ فتحير فى أمره معها . فلما رأته ساكتا قالت : « أرأيت ماذا ارتكبت فى سبيل حبك ياقاسى القلب ؟ وأنت تحاسبنى الآن على جارية تستطيع أن تبتاع أحسن منها بمائة دينار! دع عنك الجفاء ، ولننس الماضى ، ونذهب الى مصر لتتم سعادتك ، وهذه أموالى بين يديك »

فمر بخاطره أنه اذا أطاعها صار سلطانا ونال البغية التى طالما شغلت باله وتمناها قلبه ، لكنه ما لبث أن أنكر ذلك على نفسه وتصور شوكار وما أصابها بسببه ، فنهض على رغم ارادته فنهضت سلافة معه وهى تحسبه اقتنع بأقوالها ، فمد يده الى خصلة الشعر وتناولها ، وجعل يتفرس فيها فقالت سلافة وهى تداعبه : « أظنك تأسف على صاحبة هذا الشعر ، ولكن ما لك وله وهذا شعر امرأة حية تخاطبك وتتمنى رضاك ؟! » . وأشارت الى خصلة من شعرها مرسلة على كتفها

فقال : « وشوكار ؟ هل ماتت ؟ » . فقهقهت وقالت : « ألم أقل لك انها ماتت ؟ » . قال : « قلت ذلك نقلا عن الملاحين وقد يكذبون »

قالت : « بل هم صادقون ، ولماذا يكذبون ؟ » . قال : « قد يكون لهم غرض »

فنظرت اليه نظرة هيام وقد احمرت عيناها من فرط ما جاش فى خاطرها من أمره ، ثم قالت : « لقد أحرجتنى يا ركن الدين لأؤكد لك موت هذه الجارية . انها ماتت ، وأنا دبرت قتلها ، وقد فعلت ذلك أيضا فى سبيل الحصول عليك لئلا يكون وجودها حائلا بينى وبينك ، وهى تتمة الفظائع التى ارتكبتها لأجلك »

فلما سمع اقرارها لم يعد يستطيع التجلد والاغضاء ، ونظر الى ما حوله فلم يجد من يخشى بأسه ، ولاحت منه التفاتة فرأى عابدا فى الحديقة يشير اليه بيده أن يقتلها ، فقال فى نفسه : « لأمر ما يلح على هذا الغلام بقتلها » . فاستل خنجره وطعنها فى قلبها طعنتين ،

فسقطت على الارض لا تبدى حراكا وأغمد خنجره وأخذ صرة الشعر بيده وتحول الى الباب ، ولم يجد فى البيت أحداً يعترضه

ماكاد ركن الدين يجتاز الباب حتى استقبله عابد والفرس معه ، وأومأ اليه أن يركب وهو يقول : « لا شلت يمينك ! قد انتقمت لسيدتى شوكار ، اركب يا سيدى وهلم بنا »

فركب وخرج من الحديقة ، واذا هى خالية ليس فيها أحد من الناس ، فلما صار خارجها قال لعابد : « لماذا تعجلت قتلها ؟ »

قال : « لأنى تيقنت من بعض الخدم أنها هى التى تعمدت قتل سيدتى شوكار ، فأغريت من كان هنا من الخدم بالذهاب الى باب كلواذى لمشاهدة الخليفة قادما الى الفسطاط الذى نصبوه له ، فمضوا وخفت أن تقنعك تلك الخبيثة بأنها بريئة فتؤجل قتلها »

فقال : « بورك فيك من صادق امين . لقد اعترفت بأنها قتلتها ، واعترفت بفظاعتها ولكن كيف عرفت أنت أنها تعمدت قتلها ؟ »

قال : «اغتنمت انفرادى ببعض خدمها وتحدثت فى شؤون عديدة ، وقصصت عليهم فظائع زعمت أنى ارتكبتها بايعاز مولاى بين قتل ونهب واغراق . وكنت أقول هذا مفتخرا فتحركت غيرة احدهم وقص على كيف كلفته سلافة مع رفيق له أن يأتيا بشوكار من قصر التاج الى هذا القصر ، وانها أوعزت اليه سرا أن يجعل المسير ليلاً ، وأن يغتنم فرصة يحتال فيها لالقاء الفتاة فى دجلة ، وقال انه لم يستطع ذلك الا قبيل وصوله الى قصرها ، لأن قاربا آخر كان فى أكثر الطريق قريبا من قاربهم لا يعرفون من فيه . فقص شعرها بخفة ورماها فى دجلة ، وذهب بالشعر الى سيدته شهادة على امضاء أمرها . فسألته : هل رآها غرقت ؟ فقال انه لم يقدر أن يراها لشدة الظلام ، لكنه لا يرتاب فى انها ماتت »

فاطمان ركن الدين عند سماع هذا الحديث لأنه رأى سلافة تستحق القتل وقال فى نفسه : « الا يمكن ان تكون شوكار قد نجت بقضاء الله » . ولم يذكر ذلك أمام عابد ، لكنه استحثه الى سجن الامام أحمد ابن الظاهر

فساق فرسه ، وقد أوشكت الشمس أن تغيب ، واذا بجند هولاكو يركضون من جهة برج العجمى نحو باب كلواذى والناس يفرون من بين أيديهم ، فتحول عابد بالفرس الى الطريق المؤدى الى سجن الامير



« وقص كيف كلفته سلافة مع رفيق له أن يأتيا
بشوكار من قصر التاج ، ويلقياها في نهر دجلة »

أحمد ، وركن الدين يفكر فى سلافة من جهة وفى مصير الخليفة وأهله من جهة أخرى ، فأراد أن يلقى نظرة على بغداد فى نور الشفق عند الغروب ، فصعد الى مرتفع يطل على باب كلواذى وما يجاوره الى برج العجمى ، فرأى التتر زاحفين نحو المدينة ، وتحولت شرذمة منهم نحو قصر سلافة وتسلقوا أسواره ، فالتفت عابد الى ركن الدين وقال : « هل ترى يا سيدى ؟ » . وأشار بيده الى القصر

فقال : « أرى القوم هاجمين يريدون النهب ، ولا أظنهم يجدون من يردهم .. سيجدون سلافة مضرجة بدمها ، وأظنهم يشتركون مع خدمها فى النهب والقتل ، تلك آخرة القوم الظالمين . كم كنت أحب أن أطلع على ما يجرى فى بغداد غدا ، هيا بنا الى الامام أحمد »

وقبل الوصول الى قصره رأوا الحرس وقوفا بالباب ، فتقدم عابد وسأل عن الامام أحمد هل هو هناك فأجابه الحارس : « نعم لكنه فى شغل شاغل »

قال : « بماذا ؟ » . قال : « جاءه زائر منذ حين » . قال : « استأذن لنا فى الدخول عليه » . قال : « لا أظنه يأذن لأحد لأن أمير المؤمنين يمنع الناس عن مخاطبته »

قال : « نحن غرباء ، وقد أمسى علينا المساء قبل دخول المدينة ونطلب المبيت الى الغد »

فقال : لا بد من الاستئذان ، فماذا أقول له ؟ »

قال : « قل له اننا من مصر نطلب الراحة الليلة »

فذهب الحاجب وطال غيابه ، وركن الدين لا يزال على جواده ، وعابد واقف ، وبعد برهة سمعا وقع أقدام الحاجب ثم وصل ومعه رجل آخر تقدم وتفرس فى ركن الدين وصاح : « الامير ركن الدين تفضل يا مولاى »

فعرف ركن الدين من صوته أنه سحبان فترجل ودخل معه الى دهليز نوره ضعيف لا يسمع فيه صوت ، وقد استولى الهدوء على المكان كأنه مقر الأموات ، فتهيب ركن الدين وتوقع أن يبادئه سحبان بالكلام ، فلما رآه ساكتا قال له : « أنت هنا من زمن بعيد ؟ » . قال : « منذ ساعة » . قال : « وهل الامام أحمد هنا ؟ » . قال : « نعم » . قال : « أين هو ؟ »

قال : « يلبس ثيابه للخروج مع الخليفة وأهله الى الفسطاط لمقابلة هولاكو كما تم الاتفاق فى هذا الصباح »

قال : « ومن أشار عليه بذلك ؟ »

قال : « جاءه الأمر من الخليفة كما جاء لجميع الأمراء العباسيين »

قال : « وهل وافقت على أن يذهب معهم »

قال : « لماذا أمنعه ؟ دعه يذهب »

وبان الغدر فى عينيه ، فتذكر ركن الدين مطامع سحبان فى ارجاع الخلافة الى الفاطميين ، وانه ينوى قطع دابر العباسيين من الارض حتى اذا لم يجد المسلمون خليفة يبايعونه هان عليهم متابعة الخلفاء الفاطميين فتعود دولتهم . ولكن هذا يخالف مطامع ركن الدين ، فرأى من الحزم أن يحول دون خروج ذلك الامير من قصره فى تلك الليلة ، فاستوقف سحبان وقال له : « لا ينبغى لنا يا سحبان أن نسوق هذا الامير الى القتل »

قال : « انهم لم يدعوه للقتل ، ولكن لمقابلة هولاكو مع سائر بنى العباس للكف عن الحرب »

فضحك ركن الدين وامسك بكتف سحبان وهزه وقال : « تقول ذلك لى ، وقد سمعنا خبر الاتفاق معا ؟ دع الرجل حيا »

قال : « وهل يهمك بقاؤه ؟ »

قال : « هب ان بقاءه لايهمنى ، فلا ينبغى أن يهمك أنت قتله ، دعه أين هو الآن ؟ »

قال وقد تلعثم وارتبك : « أظنه خرج »

قال : « لايمكن أن يكون قد خرج ، ينبغى أن تحضره تو الساعة » . قال ذلك وبان الغضب فى عينيه

فخاف سحبان غضبه وعمد الى الملاينة وقال : « أراك قد غضبت يا ركن الدين ولاموجب للغضب ، اذا كان الامام احمد هنا فهو يسر بلقياك » . واظهر الاهتمام ومشى الى باب غرفة الامير وقرعه وركن الدين واقف فسمع الامام يقول : « أوشكت أن انتهى من وضع ردائى »

فقال سحبان : « هنا أحد الضيوف يرغب فى لقاء مولاى »

الامام احمد بن الظاهر

فتح الباب واطل الامام احمد وقد لبس بعض ثياب الخروج ، ولم يبق الا الجبة السوداء شعار العباسيين وقد تناولها ليلبسها ، فتقدم سحبان وساعده فى لبسها وهو يقول : « أقدم لمولاى الامام الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى ذكرت لك اسمه الساعة . انه جاء من مصر ، وكان الخليفة قد أراد أن يعهد اليه فى قيادة الجند ، ثم جرى الاتفاق والصلح بالشكل الذى ذكرته الآن ، وقد جاء ضيفا على مولاى »

فابتسم الامام أحمد وقال : « مرحبا بالامير الباسل ، تنزل علينا على الرحب والسعة » . وأشار اليه أن يدخل ثم قال : « تمكث هنا ريثما أعود من مقابلة هولاكو بعد قليل »

فلم يتمالك ركن الدين أن قال : « لا ينبغى لمولاى أن يخرج من هذا القصر الليلة »

قال : « ولكن أمير المؤمنين بعث الى أن أذهب قياما بالاتفاق الذى عقد بينه وبين هولاكو ، وإخاف أن يترتب على تخلفى ضرر ، وقد استشرت سحبان فأشار على بالذهاب »

قال : « أظنه غير رأيه الآن ، اسأله »

فالتفت الامام أحمد الى سحبان فرآه أسرع الى التنصل من تلك المشورة وقال : « غيرت رأيى لأن الامير ركن الدين نبهنى الى أمر فاتنى والافضل أن يبقى مولانا الليلة هنا ، وسنرى ما يكون فى الغد . »

قال : « وبماذا أجيب الرسول ؟ »

قال ركن الدين : « قل انك ستنظر فى الامر »

وشق على سحبان حبوط مسعاه ، فكتم ما فى نفسه وأظهر أنه مضطر للذهاب فى تلك الساعة ، فأذن له وانصرف . فارتاب ركن الدين فى نية سحبان ، وأعمل فكرته فيما قد يكون غرضه ، وعزم أن يصطنع الدهاء والحيلة للوصول الى هدفه الذى جعله نصب عينيه منذ نشأت مطامعه السياسية ، نعنى الوصول الى السلطنة ، وهى تستلزم

وجود خليفة عباسي يثبته ، وقدكاد ان يوقن انه ظافر بها بعد ماسمعه من حديث سلافة ، فحالما خرج سحبان نظر ركن الدين الى الامام أحمد وقال : « هل يعرف مولاى هذا الشيعى من عهد بعيد ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وهل هو على ثقة من اخلاصه ؟ » . قال : « لم يظهر لى منه ما يوجب شكا » . قال : « وهل تظن الشيعة يخلصون للخلفاء العباسيين ؟ »

فأطرق الامام لحظة وقال : « لا أدرى » . قال : « يأذن لى مولاى أن أصارحه القول ، ونحن الآن على باب مستقبل جديد وانقلاب عظيم »

فاستغرب الامام أحمد هذا التعبير وقال : « وأى انقلاب تعنى . كنا نخاف الانقلاب قبل عقد الصلح بين الخليفة وهولاكو ، وأما الآن فلا تلبث الامور أن تعود الى مجاريها »

فابتسم ركن الدين ابتسامة تهكم واستخفاف وقال : « ان الذى بلغ مولاى ليس سوى خداع ، واذا كان المبلغ سحبان نفسه فانه يكون قد تعمد الكذب ، لأنه يعلم ان حقيقة هذا الاتفاق تخالف ظاهره . ان الحقيقة فى ذلك تقشعر منها الابدان وتشمئز منها النفوس ، أعوذ بالله منها وأدعو الله أن ينجى الامام أحمد من عواقبها »

فوقع هذا الكلام فى نفس الأمير وقعا شديدا ، وتهيب مما سمعه ، وعظم أمر ركن الدين فى نفسه وأصبح شديد الشوق الى معرفة سر الأمر فقال : « انى أرى الجد فى كل كلمة أسمعها وكل حركة أراها . قل أيها الأمير . أفصح . انى شديد الثقة بك »

قال : « لو أن مولاى أطاع سحبان وذهب فى الأمر الذى دعى اليه لأصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه» . قال ذلك وأبرقت عيناه واشتد لمعانهما لاضطراب النور الواقع عليهما من المصباح فخيل للأمير أحمد أنه يخاطب رسولا هبط عليه من السماء وقال : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « لأن ظاهر الاتفاق بين المستعصم بالله وهولاكوأن يجتمع هذا بالخليفة وأهله للتصافى والصلح، وأما حقيقته فهى أن يغتنم هذا التترى الفرصة ويفتك ببنى العباس جميعا »

فلما سمع الامام احمد ذلك ارتعدت فرائصه وقال : « وهل كان سحبان يعرف ذلك ؟ » . قال : « نعم » . فقال : « قبح من خائن ، وبارك الله فيك ! . انى لا انسى لك هذه اليد ما حييت . ولكنى أجزع لما سيحل بأهلى وقومى ، هل أنت على ثقة مما تقول ؟ »

قال : « نعم . وفى الغد يظهر الحق ، وعسى أن أكون مخطئا فيكون

ذلك الصلح صحيحا وترجع الاحوال سيرتها الاولى ولا يكون من بأس على مولاى الامام ، واذا لحقته من ذلك تبعة ، فأنا أتحمل عنه كل تبعة وأفديه بروحى »

فازداد الامير اعجابا بركن الدين ، وهان عليه أن يفعل كل ما يامره به لأنه أنقذه من الموت ، فأخذ يثنى عليه ولا يعرف كيف يعبر عن شكره . فقال ركن الدين : « لم أقل ما عندى بعد » . قال : « قل أيها الصديق »

قال : « اذا خلت بغداد من بنى العباس غدا تنحصر الامامة فيكم ، فلا تظهر للناس ، واستتر كما استتر أئمتكم قبل ظهور دعوتكم على يد أبى العباس والمنصور فى بغداد حتى يأذن الله بظهورها ثانية فى غير بغداد . ستظهر فى مصر ، والقاهرة التى كانت عاصمة الفاطميين الذين يطمع سحبان هذا فى ارجاع ملكهم تصير عاصمة ثانية لبنى العباس »

فازداد الامير دهشة من هذه المنن المتوالية ، ورأى انه قد آن له أن يكافئه على خدماته بمثلها فقال : « اذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يحدث ما تقوله وتصير الخلافة الى فالسلطنة فى مصر لاينالها سوى الامير ركن الدين بيبرس »

فوقع القول عنده موقع الرضا ، وقال : « ان السلطنة ياسيدى ينالها الاقوى ، وأما الخلافة فانها حق موروث لا توهب ولا تباع »

قال : « وهل فى مصر من هو أهل للسلطنة سواك ؟ » . وأطرق يفكر فيما هو فيه من غرائب الامور ، وتصور المستعصم وسائر أهله فشق عليه ذلك ودمعت عيناه وقال : « يشق على أيها الامير أن يصيب بغداد ما تقوله »

فقال ركن الدين : « أظن مولاى لا يجهل سبب ذلك ، ان التبعة فيه على فساد الأحكام وضعف الخليفة واستسلامه للملاهى والاشتغال بالغناء ، فانه لم يسمع بمغنية فى أطراف المملكة الا بعث فى استقدامها ، وأطاع المتملقين ، وبخاصة ابنه أبا بكر ، وغير ذلك مما لا يليق بصاحب هذا المقام ، فلعل الله أزال هذه النعمة عنه ليضعها فيمن هو أهل لها »

فقال الامير أحمد : « قد آن وقت العشاء فلنذهب الى الصلاة ريثما يعدون لنا الطعام فنأكل ثم نذهب للرقاد التماسا للراحة »

فقال ركن الدين : انى طوع ارادة مولاى فى كل ما يريده الا الرقاد، فليذهب مولاى الى فراشه متى شاء ، وأما أنا فسأمكث ساهرا أرقب ما أخشاه . ان خروج سحبان على النحو الذى خرج به لم

يرضنى ، ونحن علي كل حال فى ابان فتنة كما يعلم مولاى »

فأعجب الأمير بيقظته وعلو همتـــه وقال فى نفسه : « مثله يليق بالسيادة » . ثم خاطبه قائلا : « بارك الله فيك أيها الامير وما الذى أخافك من سحبان ؟ »

قال : « أخافنى فشله وسكوته ، ولوجادلنى وعنفنىعلى معارضتى له لما خفت خوفى من كظمه لأن الكظم يحبس الغيظ ويزيد النقمة »

قال : « لاينبغى أن تخافه لأنه من أوليائنا وأصدقائنا »

قال : « لعلى مخطىء ، وعلى كل حال انى شديد الحذر ، وان شاء مولاى فانى رفيقه الى الصلاة » . فنهض الامام أحمد وذهبا للصلاة فى مصلى خاص هناك ، وعادا للعشاء

استحسن ركن الدين ماظهر من تقوى الامام أحمد وتدينه وتوكله ، وجلسا الى الطعام فتناولاه ، والأمير احمد يبالغ فى اكرام ركن الدين الذى انقذه من القتل ، فقال له ركن الدين : « لم أعمل من عند نفسى، انما كان ذلك بقضاء الله مكافأة على حسنة من حسناتك الكثيرة »

فأطرق الامير أحمد وهو يبتسم كأنه تذكرأمرا يسره تذكره ، فتوقع ركن الدين أن يقص عليه سبب ابتسامه فسكت وأخذ يراعيه فقال الامام أحمد : « أعلم أيها الامير انى شديد الاعتقاد بأن من يعمل خيرا يلق خيرا ، ولعل الله بعثك الليلة لانقاذى من هذا الخطر مكافأة على حسنة وفقت الى اتيانها بقضاء من الله »

فأعجب ركن الدين بتواضعه وأنصت يسمع تتمة الحديث فقال الامام : « أحمد الله على ذلك التوفيـــق ، فانه من نعم المولى .. وقد وفقت اليه وأنا فى أشد الضنك ، واستبشرت من تلك الساعة . وذلك انى كنت سجينا فى قصر الفردوس ، وأنا صابر على السجن ، ولا ذنب لى غير أنى من آل العباس المرشحين للخلافة . وكم شكوت الى الله ذلك وتمنيت لو كنت من عامة النـــاس ، ولكن الخليفة لم يقنع بالسجن فأراد مزيدا فى التضييق فأمر بنقلى الى هذا القصر ، فنقلونى ليلا فى سفينة نزلنا فيها دجلة فى مثل هذا الوقت ، وكان النوتية ومن جاء معهم من الجند يكرموننى ويؤانسوننى ، لكن نفسى ضاقت وعظم على ذلك الظلم ، وانفردت فى مكانعند مقدم السفينة أتشاغل بالتفرج على الماء فى الظلام ، وكان نظرى يقع بين الفينة والفينة على سفن تمر بنا صعودا أو نزولا ، واستأنس بنداء ملاحيها أوغنائهم الا سفينة

كانت سائرة على مقربة منا لم نسمع فيها صوتا ولم نعلم بوجودها الا من نور ضعيف كان معلقا فى ساريتها ، وقبل وصولنا الى هذا القصر بقليل سمعت صيحة ورأيت شبحا وقع فى الماء فحدثتني نفسي بجريمة، فناديت ربان سفينتنا وأمرته أن يتعقب تلك السفينة فلم يستطع لكنه عثر فى أثناء تفتيشه على غريق يتحرك ويستغيث ، فأعانه وانتشله وهو على آخر رمق ».

وكان ركن الدين يسمع الحديث وشوقه يتزايد الى سماع تمامه ، حتى اذا وصل الى هنا خطر له أن الغريق الذى يشير اليه شوكار ، فلم يتمالك ان صاح : « وهل هي حية ؟ » فاستغرب الامام دهشته وتسرعه وسأله كيف عرف انها امرأة ؟

قال : « عرفتها يا سيدى عرفتها ، قل بالله ماذا جرى ؟ »

قال : « فأخذ الملاحون فى معالجتها حتى أفاقت ورأينا شعرها مقصوصا ، وأردنا الاستفهام منها عن حالها فلم تشأ أن تقول شيئا ، فلم نكرهها على ذلك »

فقال ركن الدين : « هى شوكار ياسيدى ، شوكار ، أريد أن أراها »

قال : « لا ياعزيزى ، لو عرفت ان أمرها يهمك لاحتفظت بها » .

فقال : « أين هي الآن ؟ » . قال : « لما وصلنا بها الى هنا وارتاحت وبدلت ثيابها وانتعشت سألناها عن شأنها وعما تريد أن نساعدها عليه فلم تزد على أن شكرت فضلنا وأبت أن تبوح بشىء ، لكن الملاحين عرفوا من شكل السفينة ان الفتاة من جوارى الخليفة قضى باغراقها . ولم يجرؤ أحد منا أن يقص خبر هذه الفتاة على أحد ، وبعد بضعة أيام سألتها اذا كانت تعرف أحدا فى بغداد تريد أن تذهب اليه ، فقالت انها تعرف سحبان ، وتريد خادما يوصلها اليه ، فتنكرت بلباس الرجال وأرسلنا معها بعض الخدم يوصلونها الى بيت سحبان فى الكاظمية . وكان ذلك فى صباح هذا اليوم ولما جاءنى سحبان ورأيته أنت عندى لم يكن قد علم بوصولها بعد »

فأطرق ركن الدين ، وقد ثارت عواطفه وتضاربت أفكاره ، وسر كثيرا لنجاة شوكار ، لكنه أسف لذهابها الى بيت سحبان ، ولا سيما بعد أن وقع ما وقع بينهما فى ذلك المساء ، وأصبح الامام أحمد فى شوق الى معرفة علاقة شوكار بركن الدين فسأله عن ذلك فقص عليه خلاصة تاريخ تلك العلاقة فى مصر وما ارتكبته سلافة الى آخر الحديث ، فأسف الامام أسفا شديدا لأنه بعثها الى بيت سحبان ، لكنه لم يلم نفسه لأنه لم يكن يعلم علاقتها بالأمير ركن الدين

التتر يخربون بغداد

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا ضوضاء فى حديقة القصر فاستغرب الامام ذلك ، لكن ركن الدين لم يستغربه بل كان يتوقعه وقد استبطأه، فأومأ الى الامام أن يظل فى مكانه ، ووثب كالأسد حتى أتى الباب فرأى أحد الحراس قددخل وأقفل الباب وراءه وهو فى اضطراب شديد، فقال له ركن الدين : « ما بالكم ؟ »

قال : التتر يا سيدى ، دخلوا الحديقة وهم يطلبون القبض على مولانا الأمير وقد غضبوا لأنه لم يأتهم من تلقاء نفسه »

قال : « اذهب وقل لهم انى خارج لهم بنفسى » .

قال : « ولكنهم يطلبون الامام والا فانهم يأخذوننا عنوة ويقتلوننا مع الامام »

وسمع الامام حديثهما فهزول وتوسل الى ركن الدين ألا يعارض التتر فيما يريدون ، وانه يؤثر الذهاب معهم الى الفسطاط

فأشار ركن الدين اليه قائلا : « كن مطمئنا يامولاى ؛ لايستطيع هؤلاء القوم أن يمسوا ظفرا من أظفارك قبل أن يستباح دمى »

قال : « وما الفائدة من اباحة دمك اذا فاز أولئك التتر علينا ، وهم فائزون لأنهم أكثر عددا وأقوى عدة »

قال : « لا تخف انهم غير فائزين باذن الله » . قال ذلك وصعد الى كوة فوق الباب وأطل منها على الحديقة فرآها مزدحمة بالناس بينهم حملة المشاعل للانارة وحملة العصى والنبال والسيوف ، وقد علا ضجيجهم وتعالت غوغاؤهم وفى مقدمتهم رجل يظهر من هندامه انه كبيرهم وبجانبه سحبان ، فلما رأى سحبان معه تحقق عنده ماظنه فيه منذ خرج من القصر على تلك الصورة . فناداه : « سحبان » . فرفع سحبان بصره الى ركن الدين وقال : « لا بد من تسليم الامير أحمد لأن خبره وصل الى الخاقان هولاكو ولم يعد بالامكان اخفاؤه » . قال : « انى لا أرى تسليمه » . قال : « لكن الخاقان امر بالقبض عليه ، والا فان الجند يهاجمون القصر ويأخذونه عنوة »

قال . « انهم لايفعلون ذلك ، ولم يخطر لهم أن يفعلوا لولا وشايتك فارجع بهم ، وذلك خير لك وأبقى »

قال : « لماذا تعترض وتعرض نفسك لهذا الامر أيها الامير وأنت فى غنى عنه ؟ »

قال : « وأنت أيضا فى غنى عن هذه الدسائس »

قال : « فاتنى أن أخبرك أن شوكار عندى وأنت انما جئت هـذا البلد من أجلها فاذا شئت فانى أدفعها اليك ودع هذا القصر »

فلما سمع قوله أحس بانقباض لأن سحبان يهدده بشوكار كأنه يقول له انه اذا لم يطعه آذاه فيها فوقع فى حيرة فقال : « وما تعنى بذلك ، وما دخل شوكار فيما نحن فيه ؟ »

قال : « لا أعلم ، والآن افتح هذا القصر والا دخله الجند بالقوة ، وأنت تعلم عقبى ذلك ، ولا تنس أمر شوكار »

وكان الامام أحمد واقفا بجانب ركن الدين يحثه على الاستسلام ولا سيما بعد أن سمع هذا التهديد فيه وفى شوكار ، فأخذ يحرضه ويلح فأبى ركن الدين . ولما أبطأ ركن الدين فى الخضوع وفى فتح باب القصر قال له سحبان : « لا تقل ان صديقك سحبان غدر بك ، فانى نصحتك مرارا وأعيد النصح الآن أن تسلم والا فأنت ومن فى القصر فى قبضة الجند ولن ترى شوكار أبدا »

واذا بصوت صاح فى وسط الضوضاء قائلا : « لا تصدق أيها الامير ان شوكار معنا فى أمان ، وعرف ركن الدين أنه صوت عابد فصدقه وأحس بانفراج الأزمة واشتد قلبه ونظر الى سحبان وقال : « لم أكن أتوقع منك يا سحبان أن تحرض الجند علينا »

فقال : « لم أحرضهم ، ولكنهم قادمون بأمر الخاقان »

قال : « كذبت ان الخاقان لم يأمرهم بذلك بعد أن أعطانى الأمان أنا وسائر أهل هذا المنزل وهـذا علم الأمان أنظروه » . قال ذلك وأخرج العلم الذى كان مؤيد الدين قد أعطاه اياه ، ونشره فى النافذة فبان جليا للناظرين ، وحالما رآه الجند التتر طأطأوا رؤوسهم اذعانا وتحولوا من الحديقة راجعين ، وسار سحبـان فى أثرهم كالهارب ، وركن الدين يرقبه ، وقلبه يرقص فرحا بذلك الفوز والامام أحمد يضمه ويقبله شاكرا . فنزل ركن الدين الى صحن الدار ونادى عابدا وسأله عن شوكار فقال : « هى هنا ياسيدى ، قد علمت بخروجها من هذا القصر من الخادم الذى أخذها الى الكاظمية ، فذهبت وأتيت بها لعلمى ان وجودها هناك يسبب عراقيل كثيرة »

فقال ركن الدين: « بورك فيك من صديق غيور ، أنك لست خادما، وهذه الاريحية والشهامة جديرة بالصداقة» . ففرح عابد لهذا الاطراء وقال: « اذا شئت أن ترى شوكار فهلم الى غرفتها » . فمشى ركن الدين مسرعا الى تلك الغرفة ، فرأى شوكار لاتزال متنكرة بثوب بعض الخصيان ، فلما رأته طفرت الدموع من عينيها فرحا وترامت على ركبتيه تقبلهما ، فأنهضها وقبل رأسها وقال: « الحمد لله على سلامتك يا حبيبتى .. نشكر الله على هذه النعمة ، والفضل الأكبر فى ذلك لمولانا الامام حفظه الله »

قال الامام: « الفضل كله لك أيها الامير ، وأهنىء شوكار بهذا النصيب »

والتفت ركن الدين الى عابد وقال: « كيف عرفت يا عابد خبر شوكار ؟ »

قال: « كنت جالسا فى الحديقة وصرة الشعر معى ، فسألنى بعض الخدم عن خبرها ، وحالما رآها صاح : (ما أشبه هذا الشعر بشعر الفتاة التى وجدناها فى دجلة وأنقذناها من الغرق) . وبعد أخذ ورد فهمت ان شوكار حلت الى منزل سحبان ، فذهبت بأسرع من لمح البصر وأتيت بها متنكرة كما تراها »

فكرر الثناء عليه ، فازداد فرح عابد ، ولكنه قال: « لا ينبغى لمولاى الامام أن يبقى هنا »

فقال ركن الدين: « لماذا ؟ » . قال: « لأن التتر وان كانوا قد تراجعوا فان سحبان لايلبث أن يذهب بنفسه الى الخاقان او غيره ويخبره بوجود الامام هنا فيبعث فى طلبه .. لأنى رأيت فى طريقى من الفظائع ما لا يخطر ببال بشر »

فقال ركن الدين: « ماذا شاهدت ، هل نزل التتر بغداد ؟ »

قال: « نزلوا دور الخلافة ، ومعهم هولاكو نفسه ، وتفقد تلك القصور ، وأخرج من فيها من النساء وفرقهن فى رجاله »

فقال الامام أحمد: « والخليفة ؟ ماذا فعلوا به ؟ أين هولاكو ؟ »

قال: « علمت ان مؤيد الدين الوزير حرض بنى العباس وجميع وجوه الدولة على الخروج الى الفسطاط فقتلهم التتر عن آخرهم ، ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء ومن كان منهم صغيرا أخذوه أسيرا ، والقتل الآن على أشده فى بغداد ، والقائد التترى باجو قد عبر الجسر الى الكرخ وغيرها وأخذ رجاله ينهبون ويقتلون ، وقد علمت ان الكتب التى كانت



« وهجم التتر عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا
كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء العباسيين »

فى خزائن قصور الخلافة أخرجوها وألقوها فى دجلة وهى شىء لا يُعبر عنه لكثرته . وسمعتهم يذكرون اسم مولاى الامام وسبب تغيبه ، لأنهم لم يجدوه فى قصر الفردوس كما كانوا يظنون ، ولذلك قلت لكم لا بد من السرعة فى الخروج الآن »

فوقع الرعب فى قلب الامام أحمد ، فالتفت ركن الدين الى عابد وقال : « أنت من أهل هذه البلاد فارشدنا الى مكان نختفى فيه مولانا حتى تستقر الحال » .

فأشار مطيعا وقال : « ذلك على . فأمروا بأخذ ما خف حمله وغلا ثمنه واتبعونى »

فعمل الامام أحمد وخادمه بما قاله عابد ، ثم ركبوا قبل الفجر ، وعابد يمشى فى مقدمتهم حتى خرجوا من بغداد ، وعلموا فى اليوم التالى أن التتر يتعقبونهم فلم يروا بدا من الالتجاء الى بعض قبائل العرب ، فالتجأوا الى قبيلة هناك مكث عندها الامام ومعه عابد

ولما اطمأن ركن الدين على مصير الامام أوصى عابدا به خيرا ، وسافر الى مصر ومعه شوكار ، حيث عقد زواجه بها ، ووجد سلطان مصر نور الدين ابن عز الدين ، فحرض الامراء على التذمر منه لأنه غلام لا يصلح للحكومة ، وبايعوا بعده سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ لأنه من سلالة ملوك خراسان ، فصبر ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من أمر نقل الخلافة الى مصر

وفى السنة التالية زحف هولاكو على سوريا وبعث يهدد قطز ، فشاور الأمراء فأشاروا عليه بالحرب وفى مقدمتهم ركن الدين ، فجرد حملة سار ركن الدين فيها ، واضطر هولاكو الى الرجوع لموت والده ، وأخذ معظم جيشه معه ، والتقى ما بقى من رجاله بجيش قطز فى فلسطين فى معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين . فاغتنم ركن الدين فرصة فى أثناء رجوعهم وقتل قطز ، وكان قد تواطأ على ذلك مع رفاقه الامراء ورضوا أن يتولى هو مكانه ، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ ولقب بالملك الظاهر . وحالما استقر له الأمر بعث فى استقدام الأمير أحمد فجاءه فى السنة التالية ، فبايعه خليفة ولقبه بالمستنصر بالله ، وصارت الخلافة العباسية بمصر من ذلك الحين

روايات تاريخ الاسلام

مسلسلة حسب العصور التاريخية

١ ــ فتاة غسان

تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم فى آخر جاهليتهم وأول اسلامهم

٢ ــ ارمانوسة المصرية

فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والاقباط والرومان فى ذلك العصر

٣ ــ عذراء قريش

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام على وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتى الجمل وصفين

٤ ــ ١٧ رمضان

تتضمن مقتل الامام على وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بنى أمية بالخلافة وخروجها من اهل البيت

٥ ــ غادة كربلاء

تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين وأهل بيته فى كربلاء ، وواقعة الحرة وغيرها

٦ ــ الحجاج بن يوسف

تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة

٧ ــ فتح الاندلس

تتضمن تاريخ أسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط

٨ ــ شارل وعبد الرحمن

تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب فى أوربا

٩ ـ أبو مسلم الخراسانى

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل أبى مسلم . ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

١٠ ـ العباسة أخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة فى عصر الرشيد

١١ ـ الامين والمأمون

تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

١٢ ـ عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية فى عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

١٣ ـ أحمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة على زمن أحمد بن طولون

١٤ ـ عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى وخروج ابنه عبد الله عليه

١٥ ـ فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى أفريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر ، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية

١٦ ـ صلاح الدين ومكايد الحشاشين

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

١٧ ـ شجرة الدر

تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر

١٨ ـ الانقلاب العثمانى

تشرح أحوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه فى طلب الدستور . ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه

روايات لجرجي زيدان

خارجة عن سلسلة تاريخ الاسلام

لجرجي زيدان أربع روايات اخرى خارجة عن سلسلة تاريخ الاسلام المنشورة في الصفحتين السابقتين . وهي :

١ ـ استبداد المماليك

تتضمن حوادث مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر مع بسط عادات الأمراء والمماليك وأخلاقهم ونوع حكومتهم

٢ ـ المملوك الشارد

تشمل وصف حوادث مصر وسورية وأحوالهما في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومن أبطالها محمد علي باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، والأمير بشير الشهابي ، وأمين بك

٣ ـ أسير المتمهدي

تتناول حوادث المهدوية من أول ظهور المهدي في السودان الى سقوط الخرطوم وحوادث الثورة العرابية من أول نشأة عرابي الى الاحتلال الانجليزي

٤ ـ جهاد المحبين

هي رواية أدبية غرامية تبين ما يقاسيه المحبون في سبيل الحب

رأي الشعر في روايات جرجي زيدان

بقلم المرحوم علي الجارم بك

رُدَّا شَبَابِي وَرُدَّا عَهْدَ زِيدَانِ
وَمِنْ رَوَائِعِ مَا أَمْلَاهُ زِيدَانِي
قَرَأْتُهُ وَرِيَاضُ الْعُمْرِ وَارِفَةٌ
فَكَانَ مِنْهُ وَمِنْ سِنِّي شَبَابَانِ !
فِي ضَوْءِ خَافِقَةٍ بِالرِّيفِ شُعْلَتُهَا
كَالسِّرِّ مَا بَيْنَ إِعْلَانٍ وَكِتْمَانِ
بَدَتْ بِهَا زُمَرُ الأَبْطَالِ مَاثِلَةً
تَطْوِي الْقُرُونَ لِأَلْقَاهَا وَتَلْقَانِي
مِنْ كُلِّ مَنْ شَادَ لِلإِسْلَامِ مَمْلَكَةً
أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مِنْ رَضْوَى وَثَهْلَانِ
لِلْعُرْبِ «بِالضَّادِ» إِيمَانٌ يُوَحِّدُهُمْ
كَانُوا لِعَدْنَانَ أَمْ كَانُوا لِغَسَّانِ
مَا خَطَّ زِيدَانُ أَسْطَاراً عَلَى صُحُفٍ
لَكِنْ جَلَا صُوَراً مِنْ صُنْعِ فَنَّانِ
قَدْ كَانَ أَوَّلَ مُرْتَادٍ لِأُمَّتِهِ
وَالْخُلْدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَهُ ثَانِ

علي الجارم

الرواية التاليـة

أرمانوسة المصرية

تصدر فى ١٥ ابريل القادم

صفحات من رواية أرمانوسة المصرية

ننشر فى الصفحات الأربع الآتيـة ، جزءاً من فصول الرواية القادمة « أرمانوسة المصرية » ، ومنـه يتبين القارىء أهمية هذه الرواية فى تاريخ الاسلام وتاريخ مصر عند ما فتحها العرب على يد عمرو بن العاص :

عمرو بن العاص

ولما كان اليوم التالى أفاق مرقس على ضوضـاء الجند ، فنهض مذعورا ، فاذا به يراهم قد تجمهروا وخرجوا من العسكر ينظرون الى جهة الصحراء ، فرأى غبارا يتصاعد والناس يتطاولون بأعناقهم ، وقد علا ضجيجهم ، وفى مقدمتهم « يوقنا » يجر حسامه وراءه تيها ، وقد أحاطت به حاشيته ، وكلهم ينظر الى جهة الغبار ، فسأل مرقس عن ذلك ، فقيل له : « ان العرب قادمون » . فتظاهر بأنه عالم بقدومهم لئلا يسيئوا الظن به ، ثم علم انهم جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر ، فلبث واقفا فى جملة الواقفين ، وقد نسى رجل الامس ، على انه حاول أن يراه فيمن حوله من الناس ، فلما لم يره عول على أن يستطلع مكانه بعد ذلك

ونظر الى موكب البطريق يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته ، وكلهم فى اللباس الرومانى الا يوقنا ، فقد لبس العمامة وتقلد الحسام ، وسمع الناس ينادونه باسم عبد الله فتحقق لديه اذ ذاك انه اعتنق الاسلام لا محالة ، وبخاصة لما رآه مستبشرا بقدوم جيش العرب

ثم جىء اليه بجواد ركبه وركب معه جماعة من رجاله ، وخرجوا للقاء العرب ، فلبث مرقس واقفا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبا ، وجيش العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرياح ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد ، وفى المقدمة رجلان على هجينتين ، فعلم انهما الدليلان يقودان الجند ، ومن ورائهما الفرسان ، وفى مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن ، وعليه العدة والسلاح ، وفى ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل . فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا ، وترجل فرسان العرب ، وتقدم يوقنا الى كبيرهم وتصافحا وتعانقا ، ثم سلم على الباقين وعاد معهم وقد أخذ كبيرهم بيده . فسأل مرقس عن

اسمه فقالوا هذا هو البطل الشهير عمرو بن العاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه جيدا ، فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج ، يلبس ثيابا موشاة كأن بها العقيان تأتلق ، وعليه عمامة وجبة ، وقد أحاط به وبيوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون ، فتنحى مرقس جانبا ليرى مقدار الجند ، فاذا هم يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الاعلام ، وقد لبس كبارهم العمائم الخضر ، وتقلدوا السيوف والخناجر ، أما المشاة ففيهم حملة الرماح وحملة النبال ، فجعلوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ، ينصبون الخيام ويضربونها . وأول خيمة ضربت فسطاط الامير ، وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على أعمدة من القصب الهندي وضربوا اطنابها وفرشوا أرضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الامير . أما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة ، فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند ، وقد أراد أن يعرف مقدارهم ، فعلم انهم يزيدون على أربعة آلاف ، وبعد أن تفرق الجند فرقا ونصبوا الخيام جماعات ، وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والاحمال ، وفي الهوادج النساء والاولاد ، وهم يصيحون ويغنون أنغام الحداء فأنزلوهم على مسافة من الجند ونصبوا لهم الخيام

فتحول مرقس الى خيمة الامير فرآها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ، ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسيا ولا مقعدا كما كانت الحال بخيام الروم اذا نزلوا ، وشاهد أمام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربي لم يفهمها

ثم تحول نحو خيمة يوقنا فرأى عمرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده ، فاقترب منها على قدر ما مكنته حاله فاذا بعمرو قد جلس في صدرها متربعا على وسادة من الحرير ، وجعل السيف على فخذه ، والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه ، ويوقنا بين يدي عمرو يرحب به وبينهما ترجمان كان قد شاهده قادما مع عمرو يحمل العلم ، ثم سمع عمرا يناديه « وردان » فعلم ان ذلك اسمه

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وتجويدا ، فنظر فرأى رجلا عربيا جالسا في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب ، والناس جلوس ووقوف يصغون ويطربون لسماع ذلك النغم ، ثم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقفا الى جانبه ، فأراد أن يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية : « هو الامير عمرو بن العاص » . فلحظ مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومي ، فخاطبه

بالقبطية وسأله عن هذا التجويد فقال : « انهم يقراون كتابا عندهم اسمه القرآن ، وهي عادة يتبركون بها » . فرأى مرقس ان اللسان القبطى أيضا ليس لسانه ، فرغب فى الاستفهام عن حاله فقال له : « وبأى لسان يقرأون ؟ » . قال : « باللسان العربى » . فقال : « وهل تفهم لسانهم ؟ » . قال : « نعم أفهمه جيدا وهو لسانى ، وأنت ما هو لسانك » . فقال : « انى من جند الروم »

قال : « ولكننى أراك تتكلم القبطية ، وملامحك قبطية ، فهل أنت من أهل مصر ؟ » . فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف أن ينكشف أمره فقال : « قلت لك انى من جند الروم وفيه من سائر الملل »

فتبسم الرجل وقال بالقبطية همسا : « ولكن قل ولا تخف الحقيقة على ، انى لا أريد بك سوءا ، ولعلك اذا صدقتنى أن تنال خيرا »

فتحير مرقس بماذا يجيبه وسكت برهة لايتكلم

فأدرك الرجل انه يدافعه ويريد اخفاء أمره ، فعاود سؤاله قائلا : « قل ولاتخف ، فاننى أعرفك ولو أخفيت حقيقة حالك ماخفيت على »

فقال مرقس : وأظننى أعرفك أيضا ، وكأننى قد رأيتك قبل هذه المرة فى الاسكندرية »

فقال عند ذلك : « أنت اذن مرقس تابع المقوقس » . فاختلج قلب مرقس فى صدره وخاف عاقبة الامر ، فقال له الرجل : « لا تخف انى لك نصير ، فهل عرفتك أم أنا مخطىء ؟ »

قال : « أصدقك الخبر انى أنا هو ، ولكن أين رأيتنى ؟ »

قال : « رأيتك وقد جئت بيت يحى النحوى الاسكندرانى بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس ، ألا تذكر ذلك »

قال : « نعم أذكر ذلك جيدا ، فأنت اذن زياد العربى »

قال : « نعم أنا هو زياد فلا تخف ، فهل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب ؟ »

قال : « لا والله ، وانما ساقتنى اليه المقادير عن غير قصد منى ، وأنت ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ هل تأذن لى بالسؤال عن ذلك »

قال : « أما مجيئى الى هذا المكان فقد كان لمهمة لا أخفيها عليك ، على انى لا أخافك فقد آنست فيك اخلاصا »

قال : « ان ظنك فى محله ، وانى أعد نفسى سعيدا لاجتماعى بك ؛ وقد رأيتك بالامس وآنست فيك خيرا ، وكنت منشغل البال لاستطلاع

حالك مذ كنت جالسا على الاكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك الرق ، فأفصح ولا تخف »

قال : « أنا زياد العربى ، ولا يخفى عليك أن وجودى فى الاسكندرية كان بالاتفاق ، اذ قل وجود العرب فى بلادكم ، وأما قصتى فسأقصها عليك على انفراد لئلا يسمعنا الجند الرومى نتكلم بالقبطية فيشوا بنا ؛ والافضل تأجيل حكايتى الى المساء على انفراد »

قال : « حسنا فلنتكلم الآن بالرومية ، فانى أريد الاستفهام منك عن بعض ما أشاهده فى هذا الجيش . وقد عجبت لحال هـذا الامير وسررت لما أرى فى وجهه من الصباحة وما يتجلى فى محياه من الشجاعة والشهامة ، ولا عجب اذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم ، وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا هذا فانى أراه روميا ولكنه يلبس العمامة ويتزيى بزى العرب ، وهذا جنده فى لباس الروم »

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : « ان العرب أهل شهامة واقدام وشجاعة ، ولا غرو اذا فتحوا الامصـــار وأخضعوا الملوك . وانظر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم ، وأنا اعرفه مذ كان جاهليا ، وهو يعرفنى جيدا ، ولعله اذا رآنى الآن ينادينى باسمى ويرحب بى وأجلس الى جانبه ، ولكنى لا أريد أن يكون ذلك بمحضر من الناس اكراما لمن أرسلنى ، لأنه يود أن تكون رسالته سرية »

فقال : « ومن هو هذا الترجمان الذى ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو؟ »

قال : « هو وردان مولى عمرو ، ويعرف اليونانية جيدا ، ويعرف القبطية أيضا ، وأنا لا اعرفه من قبل ، ولكننى فهمت ذلك من كلامه ، وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند وأطلعك عليها »

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن أعرف حقيقة حالك وما جئت من أجله لكى يكون كلامنا أكثر ايضاحا »

قال : « تعال ننفرد جانبا » . وأخذ بيده وخرجا من المعسكر والجند منشغل بشؤونه ، ولم يلتفت اليهما أحد حتى وصلا الى مأمن فجلسا

رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى اليها كما أن لها خطة مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة فى رفع المستوى الثقافى فى مصر واقطار العربية. وأما الخطة فالتوفيق بين قديمنا وحديثنا والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغرب : فلا جمود ولاطفرة بل هو تمش وئيد فى سبيل الرقى الوطيد

ودار الهلال تؤدى واجبها بهدوء وعزيمة معا ، مطمئنة الى ماقد أنتجت ، متطلعة الى اتقان ماتنتج لاتداهن فريقا ولا تتملق كبيرا — ولاتتساهل فيد شعرة فيما تعتقده حقا وصوابا

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق ماعداه . وهى لذلك لاتحفل بالسفاسف والصغائر ، بل ترحب بكل فكرة نزيهة وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام الى الأمام !